مطبوعات مجمع العربية السعيدة

العالم الموسوعي

د. محمد شفيق البيطار

١٩٦٥ - ٢٠٢٤

في ذكرى رحيله

أشرف على إخراجه

الدكتور مقبل التام الأحمدي

العالم الموسوعي

د. محمد شفيق البيطار

١٩٦٥ - ٢٠٢٤

في ذكرى رحيله

جميع الحقوق محفوظة

لِـ(مجمع العربيّة السّعيدة)

Arabia Felx Academy

الجمهورية اليمنيّة – صنعاء

Arabiafelixacademy.org

arabiafelixacademy@gmail.com

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ/٢٠٢٥م

☒ لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومسبقًا.

مطبوعات مجمع العربية السعيدة

العالم الموسوعي

د. محمد شفيق البيطار

١٩٦٥ - ٢٠٢٤

في ذكرى رحيله

أشرف على إخراجه

الدكتور مقبل التام الأحمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

يسرّ (مجمع العربيّة السّعيدة) للعناية بالتّراث واللُّغة العربيّة، إصدار هذا الكتاب الموسوم بـ(العالم الموسوعيّ، د. محمّد شفيق البَيْطار، في ذكرى رحيله)، إحياءً لذكرى عَلَمٍ من أعلام العربيّة الكبار، وتَعْضيدًا لروابط الإخاء بين اليَمَن والشّام قديمًا وحديثًا، ووفاءً للدّكتور محمّد شفيق البَيْطار الّذي وَهَب جُلَّ حياته في استنهاض هِمَمِ طلبة العلم في جامعة دمشق وغيرها، على إحياء جمع أشعار العَرَب شعراءَ وقبائل في الجاهليّة والإسلام، وبَعْث ما في تلك الأشعار من مخزونٍ معرفيّ وفكريّ وفنّيّ، سيرًا على نهج شيخِهِ العلّامة الدّكتور عبد الحفيظ السَّطْليّ، رحمهما الله.

يُعَدُّ الدّكتور محمّد شفيق البَيْطار أوّلَ مَن رمى بسهمٍ صائبٍ في سبيل جمع أشعار القبائل، فبلغ في عملِهِ الغاية، وأقام فيه النّهاية، وكانت رسالتاه في الماجستير والدّكتوراه مثالين يُحتذى بهما، وتُقاس الأطاريح عليهما، والدّكتوراه منهما خاصّة، إذ كانت أَمْيَزَ أعماله وأَنْبَهَها، وكان وَهَبَها صِرْفةً لقبيلةٍ عربيّةٍ صَلِيبةً كانت تقطن بلاد الشّام قبل الإسلام، هي (كَلْب بن وَبْرة)، إحدى قبائل قضاعة، فتَقَصَّى أخبارها، وجمع أشعارها، وأحيا ذِكْرها، وصَنَعَ ديوانَها (ديوان شعراء بني كَلْب بن وَبْرة) وجوّدَهُ.

وظلّ الدّكتور محمّد شفيق البَيْطار مُرابطًا في الشّام لا يخاف، طوالَ سِنِي القَحْط العِجاف، صابرًا على المِحَن مُتَرَفِّعًا على الإِحَن، فسَدَّ ببقائه ثَغَراتٍ علميّةً في فنونٍ عدّة ما تُسَدُّ بغيرِهِ، وكان –فيما انتهى إلينا – مَلاذَ كثيرٍ من طلبة قسم اللُّغة العربيّة في جامعة دمشق، وطلبة الدّراسات العُليا منهم خاصّة، وكان لهم فيها أَبًا وأَخًا، ومرشدًا وناصحًا، ومُوجِّهًا ومُقَوِّمًا ومُصَبِّرًا، فتجاوز القسمُ بما أسدى مِحْنَتَهُ، ونال كلّ طالبٍ فيه مِنْحَتَهُ، حتّى جاء الفَرَج أو كاد، فتَرَجَّلَ الرَّجُلُ قبل أن يشهد النَّصْر، أو يجني ثمرة الصَّبْر، أو يرى ما وَعَدَ به غيرَهُ من الخير

القادم لا محالةَ حاضرًا قبل تصرّم العام الّذي لقيه فيه رَبَّهُ، فرحمه الله رحمةً واسعةً، ولَقّاهُ نَضْرةً وسُرورًا.

وليس يحسن طَيُّ هذا التّصدير الوَجيز من دون الشّكر الجزيل لكلّ من أسهم في الكتابة من أساتذةٍ وأصدقاءَ وطلبةٍ وأهلٍ ومحبّين، ولمن كان لهم الفَضْل في وجود هذا الكتاب فكرةً وإعدادًا وتنسيقًا، وجمع مادّة ومراجعةً، وبَذْلَ جهدٍ وإنفاق طاقة، وهما الدّكتور إسماعيل إسماعيل مروة، والدّكتورة رغد ياسين الصّبّاغ. والشّكر موصول أيضًا لعائلة الدكتور محمّد شفيق، على إسهامهم، كبيرهم وصغيرهم، في الكتابة برغم هَوْلِ الفاجعة، وعِظَمِ المصاب، واحتباس الأنفس، ولكونهم لم يَضَنّوا بشيءٍ طُلب إليهم.

رئيس مجمع العربيّة السّعيدة

الثّلاثاء، ٠٨، نيسان/أبريل، ٢٠٢٥م

١٠، شوّال، ١٤٤٦هـ

رَحَلَ الأخ والرَّفيق ... رَحَلَ محمَّد شَفيق

د. مقبل التَّام عامر الأحمدي

رئيس مجمع العربيّة السّعيدة

فقدَتِ العربيَّةُ عَلَمًا كبيرًا من أعلامها في اللُّغة والأدب والشِّعر وعِلْم الأنساب والأخبار، العلَّامةَ المَجمَعيَّ الأستاذ الدُّكتور محمَّد شَفيق بن خالدٍ البَيْطار، أستاذَ الأدب الجاهليِّ في جامعة دمشق، وعضوَ مَجمَع اللُّغة العربيَّة بدمشق. تَرَجَّلَ وهو في أَوْجِ العطاء قبل أن يُعْذَرَ إليه في العُمْرِ أو يبلغَ السِّتِّين؛

رَأَتْهُ المَنايا خَيْرَنا فاخْتَطَفْنَهُ

ففَقَدَت برَحيلِهِ الجامعةُ شيخَ أساتذتها وشاعرَهم ونسَّابتَهم وقِسْطاسَ العَروض فيهم، وحَليمَهم وحبيبَهم، وصاحبَ نَجْدتهم ومَهْوى أفئدتهم. وفَقَدَ المَجمَعُ لسانَ حقٍّ وعَدْل لا يُبارى ولا يُزاحَم، وخَلَتْ برحيله من أهلها الدَّارُ إلا ما كان من بقيَّةٍ صالحةٍ من إخوةٍ؛

وكُلُّ أَخٍ مُفارِقُهُ أَخُوهُ

أو من طلَبةٍ بَرَرةٍ رُزِقوا حَظًّا من وِراثةِ عِلْمِهِ، وتَمَثُّلِ سيرتِهِ، واحتِذاءِ نَهْجِهِ، واختِطاط دَربِهِ، وكانوا بعَهدِهِ أوفياءَ؛

وقَلَّما سادَ امْرُؤٌ إِلَّا بِحِفْظِ وَفائِهِ

***

وُلِدَ محمَّد شفيق البَيْطار في رأس المَعَرَّة بريف دمشقَ، في الثَّالث من شهر كانون الثَّاني عام ١٩٦٥م، وتلقَّى تعليمَه الجامعيَّ والعالي في جامعة دمشق؛ إذ تخرَّج فيها عام ١٩٨٧م، وحصلَ على الماجستير عام ١٩٩٢م، عن أطروحتِه المَوسُومة بـ (شِعر حُمَيد بن ثَورٍ الهِلاليِّ جمعًا ودراسةً)، ثمَّ حصلَ على الدُّكتوراه في الأدب الجاهليِّ بمرتبة الشَّرف عام ١٩٩٥م، عن أطروحتِه الموسُومة بـ (شِعر قبيلة كَلْب بن وَبْرة جمعًا ودراسة)، وكانتِ الأطروحتان بإشراف

أستاذِهِ عبد الحفيظ السَّطْلي الَّذي سَبَقَهُ إلى دار الحقِّ قبل ثلاث سنوات ١٦/ ٩/ ٢٠٢١م؛

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويَصْطَفي

كما كانت أطروحتاه مثالَيْنِ يُقاسُ عليهما في جَودة الصَّنعة، ودِقَّة الضَّبط، وسَعَة الجَمْع، وحُسْن التَّخريج، وبَراعة التَّحشِية والتَّعليق، وكان لصاحبِهما الفَضْلُ على مَن جاء بعدَهُ من جُمَّاع شِعر الشُّعراء والقبائل؛ إذ كانت أطاريحُهم عالةً على رسالَتَيْهِ، من حيثُ الأخذُ والاقتباسُ والتَّمثُّل والاحتِذاء.

أَنفَق محمَّد شفيق البَيْطار جُلَّ وقتِهِ في التَّدريس بجامعة دمشق والإشراف على رسائل طلبة الماجستير والدُّكتوراه فيها، ولم يُغادِرها إلا سنةً واحدة حُمِلَ فيها على ذلك مُعارًا إلى أحد الأقطار العربيَّة تحقيقًا لرغبةِ غيره وإرضائهم، ثمَّ عاد إلى جامعته أشدَّ تمسُّكًا بها وبالشَّام، وآلى على نفسِه ألا يُفارقَها حيًّا دهرَهُ كُلَّهُ، فلم يَحْنَثْ بقَسَمه حتَّى في أشدِّ سنوات الحرب، وأقسى ظُروفِ المعيشة، برغم ما كان يُعرَض عليه من فُرَصِ الإعارة إلى جامعاتٍ عربيَّة عِدَّة، بل اكتَفى بجامعته عمَّا سِواها، واحتَمَل معها عِبْءَ العَمَل ضِمنَ لِجان المَجمَع بعد انتخابه عُضوًا فيه عام ٢٠٢٢م.

وكان له إنجازٌ قلَّما عرَفَ أهمِّيَّته إلا مَن خالطَهُ، أو تابع الرُّسومَ المتحرِّكة طِفْلًا، وهو عمَلُهُ في تدقيق النُّصوص المقدَّمة للأطفال على قناة (سبيس تون Space toon) للرُّسوم المتحرِّكة على مَدارِ ما يُربي على ثلاثين حَوْلًا، فضلًا عن كتابتِه كثيرًا مِنَ الأناشيد وشارات الأفلام والمسلسَلات؛ فأغنى عمَلُهُ ذاك عن إرسال أولادِ اليوم إلى البادية لتَلْتَقِطَ آذانُهمُ العربيّةَ من أَفْواهِ أهلِها الأقحاحِ صافيةً بلا كَدَر، فيمتَلِكُوا بذلك فصاحةً وبيانًا وحُسْنَ إلقاءٍ من دون تكلُّفٍ أو صَنعةٍ، فنَقَلَ بصَنيعِه هذا باديةَ (بني سَعْد) إلى بيوت النَّاس اليومَ بلا عَناءٍ ولا سَفَرٍ ولا اغتراب، تلك البادية التي كان عَرَبُ الجاهليَّة يُرسِلونَ أولادَهم إليها فيُحرَمون من رؤيتهم دهرًا.

عرفتُهُ أيَّام جَمْعي أشعارَ قبيلة مَذْحِج في الجاهليَّة ضمن أطروحتي لدرجة الماجستير في الجامعة اللُّبنانيَّة عام ٢٠٠٠م، فكان نِعمَ المعِين والنَّصير، وكان كتابُهُ عن شِعر كلب بن وَبْرة الذي أهداه إليَّ قبل طبعِهِ نِعْمَ الزَّادُ والعَتاد، ثمَّ توَطَّدَت الصِّلة بيننا حتَّى لا يكادُ يمرُّ يومٌ من دون أن نلتقيَ فيه، وكانت اللِّقاءاتُ تتضاعفُ ساعاتُها أيَّام الإجازات، فكان مَقامي في بيتِهِ في (الدُّويلعة)، ثمَّ في (المعَضَّمِيَّة) طَوالَ النَّهار، وربَّما امتدَّ ساعاتٍ من اللَّيل، وكان الكلامُ يدور بيننا حولَ الأشعار المُسْتَغْلِقة التَّوجيه، أو الألفاظ التي تكونُ مَظِنَّةَ التَّحريف والتَّصحيف، فضلًا عن قراءة الجُزأينِ الأوَّلَين من مَخْطوط الإكليل، وكذا شرح القصيدة الدَّامِغة، وكلاهما للهَمْدانيِّ، وكنت أَعْجَبُ بعدَ أن غادَرتُ بلادَ الشَّام من صَبْر أهلِهِ عليه وهو يقضي سَحابةَ النَّهارِ معَ غير أولادِه وأهلِهِ، فجَزاهُ الله عنَّا خيرَ الجَزاء، وصَبَّرَ أهلَهُ على فِراقِهِ أضعاف صَبْرِهم على انصِرافِهِ عنهُم أيّامَ حياتِه.

***

تمتَّع محمَّد شفيق البَيْطار بنَفْسٍ رَضِيَّة، وتسليم جَمٍّ بما قُسِمَ له، فكان عَطاؤُهُ لغَيرِهِ غيرَ محدودٍ ولا مَجدُود، فاستفادَ من عِلْمِهِ خَلْقٌ كثيرٌ، وانتَهَب النَّاسُ وقتَهُ، فأَثْرى مَنِ استفاد، واغتَنَى مَنِ انْتَهَب. وبقي غَنِيَّ النَّفْسِ، قليلُهُ كثيرٌ، ولم يَترُك من الآثار بعد رسالتَي الماجستير والدُّكتوراه، ما يُعادِلُهما أو يُدانيهما إلا ما كان من تحقيقِه (اختيارات ابن مُسافرٍ) الذي شاركته إيَّاه، أو ما كان من معاناتِهِ في تحرير نسبة كتاب (حرب البَسُوس بين بَكْر وتَغْلِب) لابن الكَلبِيِّ، فيما كان يَرى رحمه الله، وهو عمَلٌ لم يُتِمَّهُ، وهو المعروفُ بين النَّاس بـ (تاريخ الحروب العربيَّة بين بكر وتَغْلِب ابنَي وائل بن قاسِط)، وهو كتابٌ يَمورُ مَطبوعُهُ بالتَّصحيف والتَّحريف حتَّى مُشاشِهِ، وقد أَخَذَ عن هذا الكتاب أُناسٌ كُثْر، ففَشا فسادُهُ وغُثاؤه، وما به من عُوارٍ في كثيرٍ من الكتب المتعاوَرة، وكنت قد وقَفتُ على قطعةٍ من عمل الدُّكتور في كتاب البَسوس قبل أشهُرٍ من وفاته، فرأيتُها تُحْفةً من التُّحَف، ورأيتُ جُهدَهُ فيها يُضاهي صَنيعَ ابن

الكلبيِّ نفسِه.

وممَّا لا يَحْسُنُ تَجاوزُهُ في هذه العُجالة من الكلام على هذا العَلَم الشَّامِخ، أنَّه قُبيلَ أشهُرٍ قليلةٍ من رحيلِهِ كان أكبرَ هَمِّه تزكيةُ بعض طلَبَتِه الّذين أشرفَ عليهم في الدُّكتوراه، مُنبِّهًا في اتِّصالٍ بي على قَدرٍ منَ العلم أصابوه، راغبًا في أن يكون حظُّهم في الاستِمرار في البحث العِلميِّ الجادِّ الرَّصِين أفضلَ من حظِّ غيرهم قبلَ أن تتصَرَّم من بينِ أيديهِم الأيَّام والسِّنُون وهم سامِدُون، وكان مِن بينِ أولئك الذينَ زكَّى: الدُّكتور أحمد عودة، والدُّكتورة رغَد الصَّبَّاغ؛ فاللهَ أسألُ لهما التَّوفيقَ والسَّداد، وحُسنَ أداء الأمانة والوَفاء بحَقِّها.

***

وكنت قد ذكَرتُ في رثائي العلَّامةَ السَّطْلِيَّ أنَّه (من البِرِّ به اليومَ وقد صارَ بين يدَي ربِّه، أن يُسمَّى المدرَّج الأوَّل بكلِّيَّة الآداب باسمِه رَسمِيًّا، لأنَّه لا يُعرَف إلا باسمِه، وإن لم يُسَمَّ بهِ). ولا أظنُّ ذلك تمَّ حتَّى الآن، وها أنا اليوم أجدِّد الدَّعوةَ إلى ذلك، وأضيفُ دعوةً أُخرى بتسميةِ أحدِ المدرَّجات التي شَهِدَت مُناقشاتِ الدُّكتور محمَّد شفيق لأطاريحِ الطَّلَبة بجامعة دمشقَ باسمِه؛ تخليدًا لذِكراهُ التي يترَدَّدُ صَداها في كلِّ زاويةٍ من كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة بجامعة دمشق، كما يترَدَّدُ صَدى نَفَثاتِ تلك الذِّكرى في صُدورِ طَلَبَتِه وزُمَلائه وأحِبَّته في الجامعة وخارجها.

رحم اللهُ أبا عبد الرَّحمن محمَّد شفيق البَيْطار، وأسكنَه فسيحَ جنَّاته، وأنزلَهُ منزِلَ صِدْقٍ مع الشُّهداء والصِّدِّيقين، وجعلَ خِدمتَه للعربيَّة وأهلِها شَفِيعًا له يومَ القيامة، وإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعون.

سيرة الدكتور محمّد شفيق البيطار[1]

محمد شفيق البَيْطار (١٣٨٤- ١٤٤٦ هـ / ١٩٦٥- ٢٠٢٤ م) باحث ومحقِّق في الأدب القديم، وأديبٌ شاعرٌ، وأستاذ جامعيٌّ، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق. أستاذ الأدب الجاهليّ في قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق منذ عام ١٩٩٥م، إلى جانب العَروض وموسيقا الشّعر العربيّ، وشارك في إعداد أعمال تلفازيّة مدبلجة ومراجعتها لغويًّا وتربويًّا، وكتب عشَرات الأناشيد والشّارات لبرامج الأطفال.

ولادته وتحصيله:

ولد محمّد شفيق بن خالد بن محمد علي بن عبد القادر البَيْطار في بلدة رأس المعرّة في يَبْرود، يوم الأحد أوّل رمضان ١٣٨٤هـ الموافق ٣ يناير (كانون الثاني) ١٩٦٥م، لعائلة دمشقيّة من مَحلَّة الشمَّاعين في حيِّ الشاغور.

تلقّى تعليمه الابتدائيّ والإعداديّ والثانويّ في مدينة دمشق، ثم التحقَ بقسم اللّغة العربيّة في كلّيّة الآداب بجامعة دمشق، وحصل على الإجازة في اللّغة العربيّة وآدابها (بكالوريوس) عام ١٩٨٧م بمرتبة جيد جدًّا وكان الأوَّل على دُفعته، ثمّ على شهادة دبلوم الدراسات العليا، دراسات أدبيّة عام ١٩٨٨م بمرتبة جيّد.

وتابع دراسته العليا في الكلية نفسها، فحصل على شهادة (ماجستير) في الآداب عام ١٩٩٢م بمرتبة امتياز، وموضوع رسالته (شعر حُمَيد بن ثَوْر الهِلالي جمعًا ودراسة)، بإشراف الدّكتور عبد الحفيظ السطليّ، ثمّ نال شهادة (دكتوراه) في الأدب الجاهليّ عام ١٩٩٥م بمرتبة الشّرف، وموضوع أطروحته (شعر قبيلة كَلْب بن وَبْرة جمعًا ودراسة) بإشراف أستاذه السطلي أيضًا.

---

[1] الكلام منقولٌ عن مقالة (محمد شفيق البيطار) المنشورة على موقع الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).

أساتذته:

انتفع بعدد من كبار الأساتذة بجامعة دمشق وخارجها، من أشهرهم:

- الدّكتور عبد الحفيظ السّطليّ (درَّسه في السنة الأولى وأشرف عليه في الماجستير والدّكتوراه).
- الأستاذ عاصم بهجت البَيطار (درَّسه في السّنة الأولى).
- الأستاذ محمّد عليّ حمد الله.
- الدّكتور رضوان الدّاية (درَّسه العَروض وأتاح له الاطّلاع على المكتبة العربيّة والتدرُّب على التحقيق).
- الدّكتور مازن المبارك (درَّسه في السنة الثالثة).
- الدّكتور وَهب رومية (درَّسه في سنة الدبلوم).
- الدّكتور عبد الكريم الأشتر.
- الدّكتورة عزيزة مُرَيدِن.
- الدّكتورة ليلى الصّباغ من قسم التّاريخ (درَّسته في السّنة الرّابعة).
- الدّكتور حسام الخطيب.
- الدّكتور عبد النّبيّ اصطيف.

عمله ووظائفه:

عُيِّن معيدًا في قسم اللّغة العربيّة وآدابها في جامعة دمشق عام ١٩٨٨م، ثم بدأ عمله الوظيفيّ في تدريس مادَّة الأدب الجاهلي في قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق منذ عام ١٩٩٥م، وتدريس مادَّة المكتبة العربية بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠٠م، وتدريس الأدب الأموي بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٢م، وتدريس العَروض وموسيقا الشعر العربي بين عامي

١٩٩٩ و٢٠١٨م، ودرَّس مقرَّر دراسات في العَروض وموسيقا الشعر في السّنة التحضيريّة لماجستير الدّراسات الأدبيّة، وماجستير النّقد والبلاغة، بجامعة دمشق، ورُقِّي في الرّتب الجامعيّة إلى مرتبة أستاذ مساعد عام ٢٠٠١م، ثمَّ بلغ مرتبة أستاذ (بروفيسور) عام ٢٠٠٧م.

عقد دورات مجَّانية لتدريس العَروض والتذوُّق الشعريّ في قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق خارج الدّوام الرّسميّ، وشارك في دورات جائزة عبد العزيز سعود البابطين في العَروض والتذوُّق الشعري التي أُقيمَت في جامعة دمشق بين عامي ٢٠٠٣ و٢٠٠٧م.

أُعير إلى كليتي المعلِّمين في مكة وجدة، فدرَّس فيهما الأدب الجاهلي، والعَروض، وقاعة البحث، والقراءة التحليليّة لكتب القراءة، والمهارات اللغوية، ودرَّس الأدب الجاهلي في جامعة بلاد الشام بدمشق، من عام ٢٠٠٢ إلى عام ٢٠١٩م.

أشرف على أكثر من عشرين رسالة جامعية ما بين ماجستير ودكتوراه، وشارك في مناقشة رسائلَ أُخرى.

وعمل في مجال الإعلام الموجَّه إلى الطفل، بمراقبة البرامج والإشراف اللغويّ على برامج الأطفال بقناة (سبيس تون)، وكتب لبرامجها عشرات الأناشيد والشارات، وهو خطَّاط مُتقن لفنِّ الخطّ العربيّ.

أشرف على عدد من مؤتمرات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيّة في عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦م، وشارك في كثير من المؤتمرات والنّدَوات، ببحوث أو إلقاء شعر، في بعض المدن السّوريّة والدول العربيّة. منها: مِهرجان الشّعر العربيّ، في مدينة حماة، عام ٢٠١٨م، ومؤتمر مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، وشارك في مناقشة معجم لغة الشعر، عام ٢٠٢٣م.

مناصبه ونشاطاته:

- أمين المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإنسانيّة في سورية، بين عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦م.
- عضو عامل في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق منذ ٢٨ أبريل (نيسان) ٢٠٢٢م.
- رئيس تحرير مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة ثلاث سنوات ونصف، أوَّل مرَّة.
- رئيس قسم اللّغة العربيّة مدَّة سنتين، مع رئاسة تحرير المجلّة مرَّة ثانية.
- رئيس تحرير مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة، مرَّةً ثانية حتى ٢٠٢١م.
- عضو هيئة تحرير مجلّة المخطوط العربيّ، وزارة الثقافة، دمشق.
- عضو هيئة تحرير مجلّة التُّراث العربي، اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق.
- عضو قراءة كتب التراث العربي في الهيئة العامَّة السّورية للكتاب من عام ٢٠١٨ حتى ٢٠٢٠م.
- عضو تحكيم مسابقة حفظ الشّعر العربيّ في الهيئة العامَّة السورية للكتاب للدّورات ٢٠١٨ و٢٠١٩ و٢٠٢٠ و٢٠٢١م.

في مجمع الخالدين:

انتُخب محمّد شفيق البَيطار عضوًا عاملًا في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، بقرار مجلس المجمع في جلسته الثّالثة المنعقدة يوم الأربعاء ١٣ شعبان ١٤٤٣هـ الموافق ١٦ مارس (آذار) ٢٠٢٢م، ليشغل الكرسيَّ الذي شَغَر برحيل الأستاذ الدّكتور إحسان النّص نائب رئيس المجمع، وصدر المرسوم الجمهوريّ بتعيينه بتاريخ ٢٨ أبريل (نَيْسان) ٢٠٢٢م.

وأقام المجمع له حفلةَ استقبال علنيّة في يوم الأربعاء ٢٢ من يونيو (حَزِيران) ٢٠٢٢م، في قاعة المحاضرات بالمجمع، حضرها نخبةٌ من أهل العلم والأدب، وأُلقيَ فيها الكلماتُ الآتية:

- كلمة الدّكتور محمود السّيد رئيس المجمع.
- كلمة أستاذه الدّكتور وَهْب روميّة.
- كلمة الدّكتور محمّد شفيق البيطار، تحدَّث فيها عن سلفه الدّكتور إحسان النص.

مؤلّفاته وآثاره:

<u>في التّحقيق:</u>

- ديوان أبي بكر الصدِّيق، عن نسخة خطّيّة في المكتبة الظّاهريّة، دار الشّراع بدمشق، ١٩٩٢م.
- ديوان زهير بن جَناب الكَلْبي، دار صادر ببيروت، ٢٠٠٠م.
- ديوان بني كلب بن وَبْرة في الجاهليّة والإسلام، (دراسة وتحقيق) في ٣ مجلدات، دار صادر ببيروت، ٢٠٠١م.
- ديوان حُمَيد بن ثَوْر الهِلالي، (دراسة وتحقيق)، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب بالكويت ٢٠٠٢م، ثم في الهيئة العامَّة للكتاب بأبو ظبي، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- ديوان الإمام الجليل خليفة رسول الله أبي بكر الصدِّيق وجمهرة خُطبه ووصاياه ورسائله: نشرة إلكترونية على موقع مجمع العربية السعيدة، ٢٠٢١م.
- اختيارات ابن مُسافِر من شروح أشعار العرب، لعمر بن الحسن بن عَدِيّ ابن مُسافِر الشاميِّ الأُمويِّ (القرن السابع الهجري)، بالاشتراك مع الدكتور مُقْبِل التّام الأحمَديِّ، مركز أبو ظبي للّغة العربيّة، البصائر للبحوث والدّراسات، ٢٠٢٣م.

في التّأليف:

- المكتبة العربية، (بالاشتراك)، كتاب جامعيّ، جامعة دمشق، ١٩٩٨م.
- العَروض وموسيقى الشعر، (بالاشتراك)، كتاب جامعيّ، جامعة دمشق، ٢٠٠٦م.
- بحوث ندوة خير الدين الزِّرِكْلي، (بالاشتراك)، وزارة الثّقافة بدمشق، ٢٠١٧م.
- بحوث ندوة ماري عَجْمي، (بالاشتراك)، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠١٨م.
- نقوش حِسْمَى: قراءة نقوش مِن حِسْمَى، (بالاشتراك)، منشورات المجلة العربية (٢٧٢)، الرياض، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
- جداول بحور الشّعر العربيّ، وزارة الثقافة بدمشق ٢٠١٨م، ثم في دار البشائر بدمشق ٢٠١٩م.
- مخالفة القياس في العربيّة: شعر الأعشى مثالًا، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠١٩م.
- مخالفة القياس العَروضي: شعر الأعشى مثالًا، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠١٩م.
- بحوث ندوة الدّكتور عمر النّصّ، (بالاشتراك)، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠١٩م.
- بحوث ندوة الدّكتور شاكر مصطفى، (بالاشتراك)، وزارة الثّقافة بدمشق، ٢٠٢٠م.
- المُختار مِن عيون الأخبار لابن قتيبة، وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠٢٠م.
- العصافير تُغنِّي كلَّ يوم: ديوان شعر للأطفال، دار نور الصَّباح بدمشق، ٢٠٢٢م.
- حامِلُو الهوى: اختيارات من الغزل في الشعر العربي القديم، (بالاشتراك)، دار المحيط بالإمارات العربية المتحدة، ٢٠٢٤م.

- محاضرات في الأدب الجاهليّ، كتاب جامعيّ، جامعة دمشق.
- أطلال رُوح (ديوان شعري)، منضَّد ولم يطبع.

في الإبداع:

- لبن النّاقة، مسرحيّة من وحي التراث، مجلّة جيش الشّعب بدمشق.
- بين أحضان الشَّرَر، قصيدة، مجلّة الفيصل السّعودية.
- مشرَّد بلا خطيئة، سيناريو (بالاشتراك) لفِلم رسوم متحرِّكة، عن رواية للدّكتور محمّد عبده يماني.
- غناء عاشقٍ على طريق الحبِّ (من رُباعيَّات بابا طاهر عُرْيان)، صياغة شعريّة لرُباعيَّات فارسيّة، لم تطبع.
- ما يزيد على خمسين نصًّا شعريًّا لبرنامج الأطفال مدينة المعلومات (مسلسل)، مؤسّسة الإنتاج البرامجي المشترك لدول (مجلس التّعاون لدول الخليج العربيّة).
- ما يزيد على خمسين نصًّا شعريًّا لبرنامج الأطفال (بيتنا العربيّ)، مؤسّسة الإنتاج البرامجيّ المشترك لدول (مجلس التّعاون لدول الخليج العربيّة).
- الكثير من الأناشيد والشّارات لمسلسلات وأفلام الرّسوم المتحرّكة، بقناة سبيستون.
- نشيد الجامعة السّوريّة الدّوليّة الخاصّة للعلوم والتّكنولوجيا.

كتب راجعها:

- الأعمال الشعرية الكاملة مع التقديم لكلٍّ مِن: خليل مَرْدَم بِك، وعمر النصّ، ومحمد الفُراتي، وزارة الثقافة بدمشق.
- ديوان (الفَجْر الأوَّل) لخليل شَيبوب، وزارة الثقافة بدمشق.
- نتائج الفِطْنة في نظم كليلة ودِمْنة، لابن الهبَّارية، وزارة الثقافة بدمشق.

- طَوْق الحمامة، لابن حَزم، وزارة الثقافة بدمشق.
- الحماسة الشَّجَرية، لابن الشَّجَري، وزارة الثّقافة بدمشق.
- ديوان عُروة بن الورد، وزارة الثّقافة.
- جمهرة مقالات خليل مَرْدَم بِك رئيس مجمع اللّغة العربيّة السّابق، مجمع اللّغة العربيّة بدمشق.

بحوثه المحكَّمة:

- ما هكذا تورد يا سعدُ الإبل، مجلة عالم الكتب، السعودية، المجلَّد ١٩، العدد ٣، عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. ونشرته مختصرًا مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلَّد ٤٢، الجزء ٢، عام ١٩٩٨، بعنوان (عودة إلى شعر زُهَير بن جَنَاب).
- امرؤ القيس بن حُمام، الشّاعر الذي بكى الديار قبل امرئ القيس بن حُجْر، مجلّة جامعة البعث، حِمص، المجلد ٢٤، العدد١، عام ٢٠٠٢م.
- (أحاديث الشعر) لعبد الغنيّ المقدسيّ، مجلة مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، المجلَّد ٧٩، الجزء ٤، عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الشّعر في بلاد الشّام قبل الإسلام، بحث ضمن كتاب (الحركة الأدبيّة في بلاد الشّام)، الأمانة العامَّة لمنشورات دمشق عاصمة للثقافة العربية، عام ٢٠٠٨م.
- صورة الطبيعة في شعر الشَّابِّي: مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة، المجلَّد ٤١، العدد ٣، عام ٢٠٠٨م.
- جداول بحور الشعر العربي، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتَّاب العرب بدمشق، العدد المزدوج ١٤١-١٤٢، عام ٢٠١٦م، ثمَّ صدر في كتاب.
- سرقة الأطاريح والرّسائل الجامعيّة: شعر ثَقِيف مثالًا: مجلّة التراث العربي، اتّحاد

الكتّاب العرب بدمشق، العدد المزدوج ١٤٦-١٤٧، عام ٢٠١٧م.

- مُنتقَيات من نُقوشِ النُّبَلاء وأبنائهم ومَواليهم، مجلّة المخطوط العربيّ، وزارة الثّقافة بدمشق، العدد ١، ٢٠٢١م.
- اختياراتُ ابنِ مُسافِرٍ من شروح أشعار العرب، مجلّة المخطوط العربيّ، وزارة الثقافة بدمشق، العدد ٢، ٢٠٢١م.
- كتابة موادَّ معتمَدة في الموسوعة العربيّة، وهي: حُمَيد بن ثور الهلالي، قبيلة خَثْعَم، الخطابة عند العرب، قبيلة قُضاعة، قبيلة كَلْب بن وَبْرة، طَسْم وجَدِيس، طَرَفة ابن العَبْد، الفَضْل بن العبَّاس اللَّهَبي، الفِنْد الزِّمَّاني، العرب، المفضَّل الضَّبِّي، مَناة، مالك بن أسماء الفَزَارِي، المُعلَّقات، مَعَدُّ بن عدنان، عِلم النسَب، اليرموك.

مقالاته:

- قراءة في ديوان قصائد للشّام، مجلّة الثقافة بدمشق.
- التّحقيق في سرقة ديوان الصدِّيق، صحيفة تشرين بدمشق.
- برهان بخاري ظالمًا، صحيفة تشرين بدمشق.
- الموسيقى في شعر حُمَيد بن ثور الهِلالي، مجلّة جيش الشّعب بدمشق.
- وَحدة القصيدة الجاهليّة (في حديث الأربعاء)، مجلّة الغد الجديد بدمشق.
- عُرْوَة بن أُذَيْنة (قراءة في حياته وشعره)، مجلّة الجنديّ العربيّ بدمشق.
- ردٌّ على نقد، مجلّة المنهل، السّعودية.

رسائل جامعية أشرف عليها:

١. الرّسائل الشّعريّة في العصر الجاهليّ: ماجستير، طُبِعَت، للطّالبة شمس الإسلام بنت أحمد حالو، تاريخ المناقشة ٢٠٠٣م.

٢. الأَفْوَه الأَوْدِيّ حياته وشعره: ماجستير، للطالب مروان الوزَّة، تاريخ المناقشة ٢٠٠٥م.

٣. أثر الفكر البلاغي في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري: ماجستير، للطالب حسين حسن أسود، تاريخ المناقشة ٢٠٠٥م.

٤. أثر الغناء في حفظ الشعر الجاهلي من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي: ماجستير، للطالب رفاعي سكون، تاريخ التسجيل ٢٠٠٤م، تاريخ المناقشة ٢٠٠٧م.

٥. المُنْصِفات في الشعر الجاهلي: ماجستير، للطالبة طلة محمد بدر سراقبي، تاريخ المناقشة ٢٠٠٧م.

٦. المُعمَّرون (أخبارهم وأشعارهم) في الجاهلية والإسلام إلى نهاية العصر الأمويّ: دكتوراه، طُبِعَت، للطّالبة شمس الإسلام بنت أحمد حالو، تاريخ التّسجيل ٢٠٠٤م، تاريخ المناقشة ٢٠٠٩م.

٧. الإيقاع في الشّعر الجاهليّ: شعراء الطّبقة الأولى نموذجًا: ماجستير، للطّالبة سمر محمود، تاريخ التّسجيل ٢٠٠٤م.

٨. الأدب النِّسْوي في صدر الإسلام والعصر الأموي: ماجستير، للطالبة رشا الكردي، تاريخ التسجيل ٢٠٠٦م، تاريخ المناقشة ٢٠٠٩م.

٩. شعراء كِنْدة (أخبارهم وأشعارهم) في الجاهلية والإسلام إلى نهاية العصر الأموي: دكتوراه، للطالب رفاعي سكون، أنجزها ولم تُناقَش لظروف خاصَّة به، تاريخ التسجيل ٢٠٠٨م، ثم سجَّلها في إحدى جامعات السودان، ونُوقِشَت.

١٠. الكُهَّان الجاهليون أسجاعهم وأشعارهم: ماجستير، طُبِعَت، للطالب ياسين جَمُّول، نوقشت ٢٠١١م.

١١. شعر النّقائض في الجاهليّة وصدر الإسلام حتى نهاية عصر النّبوة: ماجستير، للطالبة هبة الحمصيّ، تاريخ التسجيل ٢٠٠٨م، تاريخ المناقشة ٢٠١٣م.

١٢. بيوتات الشعر والمُعْرِقُون فيه في الجاهلية والإسلام: دكتوراه، للطالبة رشا الكردي، تاريخ التسجيل ٢٠١٢م، تاريخ المناقشة ٢٠١٩م.

١٣. شعر بني كِنانة في صدر الإسلام والعصر الأمويّ (جمعًا وتحقيقًا ودراسة): دكتوراه، للطالبة إيناس بوبس، تاريخ التسجيل ٢٠١٤م، تاريخ المناقشة ٢٠١٧م.

١٤. شعر القُضاة وما قيل فيهم في صدر الإسلام والعصر الأموي: دكتوراه، للطالبة وفاء الحمود، تاريخ التسجيل ٢٠١٥م، تاريخ المناقشة ٢٠١٧م.

١٥. الصورة الحركيّة في شعر طبقة الجاهليّين الأولى عند ابن سلَّام الجُمَحي: ماجستير، للطالب حميد محمد الموسى، تاريخ التسجيل ٢٠١٧م، تاريخ المناقشة ٢٠١٩م.

١٦. أثر الحياة الزّراعيّة في الشّعر الجاهليّ: ماجستير، للطّالب أحمد العبد العودة، تاريخ التسجيل ٢٠١٨م، تاريخ المناقشة ٢٠٢٠م.

١٧. ديوان شعراء خَثْعَم (أخبارهم وأشعارهم) في الجاهليّة والإسلام حتى نهاية العصر الأموي (جمع وتحقيق ودراسة): ماجستير، للطالبة رغد بنت عبد الرّزّاق ياسين الصبَّاغ، تاريخ التسجيل ٢٠١٨م، تاريخ المناقشة ٢٠٢٠م.

١٨. الشعراء الثُنْيان في الجاهلية والإسلام إلى نهاية العصر الأموي (جمع وتحقيق ودراسة): دكتوراه، للطالب حميد محمد الموسى، تاريخ التسجيل ٢٠١٨م، تاريخ المناقشة ٢٠٢١م.

١٩. أثر الحياة الصّناعيّة والتّجاريّة في شعر الجاهليّة وصدر الإسلام: دكتوراه،

للطالب أحمد العبد عودة، تاريخ التسجيل ٢٠٢٠م، تاريخ المناقشة ٢٠٢٣م، في ستة مجلَّدات (دراسة وملاحق معجميَّة لألفاظ الصناعة والتجارة الواردة في الأشعار، مع معاني الألفاظ).

٢٠. شعراء بَجيلة (أخبارهم وأشعارهم) في الجاهلية والإسلام إلى نهاية العصر الأموي (جمع وتحقيق ودراسة): دكتوراه، للطالبة سناء عيسى، تاريخ التسجيل ٢٠٢٠م، تاريخ المناقشة ٢٠٢٣م.

٢١. ديوان بني جَدِيلة (فَهْم وعَدْوان) في الجاهليّة والإسلام إلى نهاية العصر الأموي (جمع وتحقيق ودراسة): دكتوراه، للطالبة رغد بنت عبد الرّزاق ياسين الصبَّاغ، تاريخ التسجيل ٢٠٢١م، نوقشت في ٢٤ سبتمبر (أيلول) ٢٠٢٤م.

٢٢. موسيقا الشعر في الدواوين الموجَّهة للأطفال في القرن العشرين (سورية أنموذجًا): دكتوراه، للطالبة عائشة العمري، تاريخ التسجيل ٢٧ سبتمبر (أيلول) ٢٠٢٤م.

رسائل جامعيّة شارك في مناقشتها:

- شعر الفروسيّة في ظلّ الفتوحات الإسلامية: دكتوراه.
- وصف الطّبيعة في شعر الصّنوبري: ماجستير.
- السّريّ الرّفّاء حياته وشعره: ماجستير.
- لغة القصص المصوَّرة في مجلات الأطفال: ماجستير، في الجامعة اللبنانية، بيروت.
- المجالس الأدبية في ظلِّ بني بُوَيه: دكتوراه.
- ساعدة بن جُؤَيَّة الهُذَلي حياته وشعره: ماجستير، للطالبة ميساء قَتَلان، بإشراف الدكتور حسين جمعة، نوقشت عام ٢٠٠٣م.
- الحارث بن عُباد البَكْري حياته وشعره: ماجستير، للطّالب أنس أبو هلال،

بإشراف الدكتور علي أبو زيد، طُبعت عام ٢٠٠٧م.

- رمز الناقة في الشعر الجاهليّ: ماجستير، جامعة حلب.
- جماليات تأثير اللّون في شعر الأغربة الجاهليين: ماجستير، جامعة البعث في حِمص.
- صورة المرأة في الحديث النبويّ: ماجستير.
- مُزاحم العُقَيلي حياته وشعره: ماجستير.
- شعر حِمْيَر في الجاهلية والإسلام: دكتوراه.
- الرّجز في العصر الجاهلي: ماجستير، جامعة حلب.
- شعر بني بكر بن وائل في الإسلام حتى نهاية العصر الأموي: دكتوراه.
- شعر خُزاعة في الجاهلية والإسلام حتى نهاية العصر الأموي: دكتوراه.
- مفهوم الذات وجمالياتها بين شعر امرئ القيس وزهير بن أبي سُلمى: دكتوراه.
- ديوان الشواهد الشعرية في مؤلَّفات الواقدي: ماجستير.
- الحاشية الكبرى على متن الكافي في علمَي العروض والقوافي: ماجستير.
- التشكيل الموسيقي في شعر أبي العتاهية: دكتوراه.
- التّشكيل الموسيقي في شعر نذير العظمة: ماجستير.

صفاته وشمائله:

وصفه أستاذه الدكتور مازن المبارك بقوله: «عرفت الدكتور محمد شفيق البَيطار منذ سنين بعيدة، وعرفت فيه خُلقًا قلَّ نظيرُه؛ فهو هادئ دَمِث، يحبُّ الأناة والهدوء، حلوُ المَعشَر، خافِتُ الصوت، وهو كنزٌ في العربية ومصادرها، حاضرُ الحُجَّة، سريعُ البديهة، وقد فقدناه أستاذًا جامعيًّا محبوبًا، وخسرناه زميلًا مَجمَعيًّا يُنجدنا بالحُجَّة والبُرهان، وذِكرِ المصادر بالاسم والعنوان، وغاب عنَّا بفَقدِه أخٌ صادق الودِّ، تميَّز بالوفاء والأُلفة، وسَعة المعرفة، وقدَّم للعربيَّة

وأهلها وأجيالها جهودًا كبيرة في التدريس والتأليف والتحقيق».

وبيَّن مكانته الكاتبُ والملحِّن الموسيقي والمغنِّي لأناشيد الأطفال في قناة سبيس تون طارق العربي طرقان بقوله: «الدكتور شفيق البيطار هو المربي الفاضل الغَيور على لغته وأبنائه، أحبَّه الملايين من أصدقاء الطفولة، وكان له فضلٌ عليهم وعلينا. كلماته ومشاعره دخلت كلَّ بيت عربي دون استثناء، وكان لها أثر طيِّب سيدوم للجميع بإذن الله».

وأشاد رئيس المجمع الدّكتور محمود السّيد بتفوّقه قائلًا: «كان الدّكتور شفيق البَيطار متفوِّقًا في جميع مراحل دراسته، وظلَّ التفوُّق ملازمًا له في حياته العملية، ويتَّسم نتاجه الغزير بتعدُّد أبعاده؛ تدريسًا وتأليفًا وإشرافًا على الرّسائل الجامعيّة، وتحكيمًا لعدد منها في الجامعات السورية، وتحقيقًا لبعض الدواوين الشعرية ودراستها، وإنجازًا لبحوث علمية، ومشاركةً في ندَوات ومؤتمرات».

ومن أصدق الشهادات فيه شهادة أستاذه الدكتور وهب رومية، قال: «نفضَ الدكتور شفيق مِن على مَنكِبَيه غُبارَ سبعةٍ وخمسين عامًا قضاها في مدارسة الكتُب، وزانها بالعطاء وحبِّ الناس، وحَسبُك أن تُراقبَه وهو مع طلَّابه الذين يُشرف عليهم، فتراه يحلُّ لهم ما اعتاصَ عليهم، ويقوِّم ما انآدَّ من آرائهم وأقوالهم، وينشُر فوقهم جناحَ الثقة والمحبَّة، فيغمُرهم ببساطته الآسرة، وتواضُعه الجمِّ الذي يَفيضُ عذوبةً ومحبَّة، وحَسبُك أن ترى كلَّ ذلك منه لتُدركَ أن الله قد وهبَه الصَّبرَ والعلم والمحبَّة، وهو باحثٌ جادٌّ مدقِّق، ومحقِّق حَصيفٌ رزقه الله الصَّبرَ على مَكارِه البحث ومَضايقِه، وراضَ نفسَه في حُزون التُّراث حتى ذلَّلها ووطَّأ أكنافها، فجرى فيها طَلقًا تُسعِفُه معرفةٌ واسعة بعلوم الآلة كالنَّحو والصَّرف والعَروض، ومعرفةٌ واسعة بكثير من حقول التُّراث وأنساقه المعرفية، ورغبةٌ جارفة في الاستزادة من المعرفة، وإيمانٌ جليل بخدمة اللغة العربية وتُراثها الخالد، وحِرصٌ مُفعَم بالأمل على استمرار مسيرة العرب الحضاريّة دونَ التنكُّر للماضي أو الانقطاع عنه».

مرضه ووفاته:

في صباح يوم السبت ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٤م، وبينما كان يتهيَّأ للذهاب إلى عمله فقدَ وعيَه ووقع أرضًا، فجأةً دون عوارضَ مرَضيّة سابقة، ونُقل إلى مستشفى المواساة بدمشق، وتبيَّن إصابته بنَزْف دماغي، وأُدخل وحدة العناية المشدَّدة. وفي صباح يوم الجمعة ٢٩ نوفمبر ٢٠٢٤ أُجريت له جِراحة دقيقة (عملية أمّ الدّم الدِّماغيّة) في مشفى دار الشّفاء، ولم يلبث أن دخل في غيبوبة في إثرها متعرِّضًا لموت دماغي، مع بقاء القلب ينبض. وفي يوم الأحد أول **ديسمبر** ٢٠٢٤، أُدخل غرفة الإنعاش في مستشفى المواساة مرَّة أُخرى.

وبقي في غيبوبته حتى توفّي يوم الثلاثاء ٢ جُمادى الآخرة ١٤٤٦هـ الموافق ٣ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٢٤م، في مستشفى المواساة بدمشق، وفي اليوم التالي الأربعاء ٤ ديسمبر ٢٠٢٤م نُقل جثمانه إلى مسقط رأسه بلدة رأس المعرَّة، وصُلِّي عليه في جامع البلدة، ودُفن في مقبرتها.

وقد نعاه مجمع اللّغة العربيّة بدمشق في موقعه الرّسميّ، ونعاه كثير من زملائه وطلابه وأحبابه.

حفل تأبينه:

أقام مجمع اللّغة العربيّة بدمشق بالتّعاون مع كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة دمشق، حفلَ تأبين له يوم الأربعاء ٢٢ رجب ١٤٤٦هـ الموافق ٢٢ يناير (كانون الثاني) ٢٠٢٥م، في قاعة الاحتفالات في مقرِّ المجمع، أُلقيت فيه عدد من الكلمات.

ثلاثية الفقد والسّيرة واللّقاء

د. إسماعيل مروة

(١)

الفقد

الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار واحدٌ من أهمِّ علماء العربيَّة قاطبة على صغر سنه، من أكثر المدقّقين العارفين في بواطن اللُّغة وتراثها، شعرها ونثرها، أخلص حياته العلميَّة للأدب القديم، فأحيا حميد بن ثور، واستعاد قبيلة بني كلب بن وَبْرة، وجمع ديوان الصّديق رضي الله عنه، وأنصف ابن مسافر ومنجزه في الاختيارات، وفي اللُّغة كان محلِّقًا وحافظًا ومرجعًا، وفي الشعر وأوزانه كان الوحيد الذي لا يُردّ له حكم فيما يقول، وعلى الرَّغم من اختصاصه القديم، فقد كان مطلعًا وشغوفًا بالحديث فقرأ الكثير وحاضر في عدد منهم، ويمثل نموذجًا فريدًا للباحث الموسوعيّ في القديم والحديث، إضافةً إلى ما قام به خلال مسيرته من عمل إعلاميّ وتربويّ يعجز عنه فريق عمل... محمد شفيق البيطار بعد أن خرّج عشرات الشّهادات من الدكتوراه والماجستير يغادرنا وهو عطر الذّكر، نبيل الأثر، لا يقدر واحد أن يسلبه من محاسنه التي لا تُحصى، مضى حاملًا شرف العلم والتّدريس، وعلى صدره شارة مجمع اللُّغة العربية بدمشق.

العمل في التَّحقيق

من المصادفات المؤلمة لي أنَّني تزاملت مع الدكتور شفيق واحدًا وأربعين عامًا، دخلنا كلية الآداب معًا، في دفعة واحدة، تخرجنا معًا، ولا نزال معًا، وسنبقى دومًا، وفي السّنة الأولى كان الرّاحل عبد المعين الملوحي قد أصدر كتابه (أخبار اللصوص وأشعارهم) فاقتنى شفيق نسختين واحدة له، وأخرى لي، قرأت في نسختي ووضعتها في المكتبة، وبقي شفيق يحمل نسخته ومعه قلمه، يضيف ويصحِّح ويشطب، وقال لي: أعود إلى المصادر القديمة فأصوّب

أشعارًا، وأضيف أخرى، وربما وجدت شاعرًا لم يذكره، وأضبط ما يحتاج إلى ضبط، وأظنُّ أنَّ حجم الكتاب تضاعف لو تهيَّأ لي العودة إليه.. ومنذ ذلك اليوم ظهرت ملكة التَّحقيق عند شفيق، وبقي على مدار السَّنوات الأربع الأول الذي لا ينازعه واحد، المتواضع الذي لا يعرفه أصدقاؤه، ولا يتشاوف عليهم.. وكان معيدًا في الأدب الجاهليّ، وحقَّق ديوان حميد بن ثور بعد عبد العزيز الميمنيّ، ومن يجرؤ على فعل ذلك غير المتمكِّن الذي لا يشقُّ له غبار، وأنجز ديوانًا فريدًا لشاعر فريد، وفي الدكتوراه عكف سنوات طويلة يجمع ديوان قبيلة كلب بن وبرة، ويدرسه، ليجمع الشَّتات النَّادرة، ويقدِّم ديوان قبيلة لم يسبق إليه في مجلدات ثلاثة.. وفي أثناء دراستنا جمع شعر أبي بكر الصّديق وطبعه، وكم كان متألِّمًا عندما سرق أحدهم جهده فيه، وضاع الجهد لمصلحة من لم يسمع بأبي بكر شاعرًا.. ومنذ أشهر صدرت طبعة كتاب اختيارات ابن مسافر بالاشتراك مع صديقه الوفيِّ الدكتور مقبل التامّ الأحمدي، فكان كنزًا ثمينًا يضاف إلى مكتبة الاختيارات والتّراث، يومها قال: جاءتني نسختان مبدئيًا، واحدة لك وأخرى لي..

لم يتوقَّف عمله في التَّحقيق على ما أنجزه، فقد كانت روح الإيثار عنده عاليةً، عندما يقدِّم لطلَّابه مخطوطًا أو فكرة للحصول على درجة علميَّة، بل يعطيهم ما أنجزه ليكون علامة في طريق البحث الشَّاقّ، وأزعم أنَّ شفيق من مزاملتي له في المكتب في قسم اللُّغة العربيَّة هو المشرف القارئ بدقَّة، حرفًا حرفًا، وهو القارئ الطلاب الآخرين، وهو المرجع في كل قضيَّة تعرض عليه دون تأفُّف أو تبرُّم، وكم من مرَّة اختار للطَّالب الموضوع، ووضع له المخطَّطَ، وراجع ما أنجزه، ودافع عن الطَّالب وحقوقه عندما كان رئيسًا لقسم اللُّغة العربيَّة بجامعة دمشق، أو عندما كان رئيسًا لتحرير مجلَّة جامعة دمشق، بأيِّ اختصاص كان الطّلبة، كانوا يقصدونه، وبابتسامة ودّه العلميّة، يمسك القلم بيده اليسرى ليبدأ الإرشاد والتّقويم والتّوجيه.

التّأسيس والغَيْريَّة

عُرِف عن الأستاذ الدّكتور محمّد شفيق البيطار غَيْريَّته فهو شخص محبٌّ للنَّاس، يقدّم مصالحهم في كثير من الأحيان، وقد استطاع رحمه الله أن يؤسِّس لمناهج تدريس الأدب الجاهليّ بعد أن كانت أمليات، وبحبِّه واندفاعه للعلم والنَّاس جمع كوكبةً من الباحثين الذين أشرف عليهم، ورأى فيهم العلم والنَّباهة، وانسحب تدريجيًّا من التحكُّم بالمادّة، بل جعل محاضراته بلا درجاتٍ ولا امتحانٍ وهي للاستزادة، وشهد قسم اللّغة العربيّة عددًا من الوفيات المفاجئة والأمراض المستعصية فكان المندفع لمساعدة الجميع، وإن لم يكن لديه إلا القليل، فإنَّه يجود به وبدالته على الآخرين يستطيع خدمة الزملاء.

إسهاماته التَّربويَّة

منذ ما يزيد على ثلاثة عقودٍ والدكتور البيطار يشرف على برامج الأطفال إعدادًا ولغة ورسالة في إحدى أهمِّ الشَّركات التي تتوجَّه للأطفال، وملاصقتي له جعلتني أرى مقدار ما كان يفعله ويقدِّمه، فقد كان يتابع الأصل الأجنبيّ حرفًا حرفًا، ويقف عند دلالاته التَّربويَّة والقيميَّة، وكم من مرَّةٍ وقف عند إشارة فنيَّة، تتعلَّق باللّباس، أو إيحاء في حركة، ليتوقَّف ويناقش طويلًا حتى يقنع الشّركاء بضرورة التزام المنهج التربويّ وطنيًّا وقوميًّا وتربويًا، انطلاقًا من رؤيته بأنّ هذه الأعمال أنتجت لثقافة أخرى، ومن حقّنا أن نتصرَّف بها طالما أنَّها تتوجَّه إلى ثقافتنا، ولا أستطيع ذكر التّفاصيل، وليس من حقّي ذلك؛ لأنَّه يعني الشركة المنتجة المحترمة التي كانت تثق بالدكتور وعلمه ورؤيته التربويّة العربيّة الخالصة.. وعددٌ كبيرٌ من هذه الأعمال كتب شارات أعمالها شعرًا الدكتور البيطار، ويردّدها أطفالنا، وقد استطاع أن يجمع هذه الأشعار الكثيرة والسّهلة والعميقة في لغتها ودلالاتها ومضامينها، وبعضها حكاياتٌ على ألسنة الأطفال، وأرسلها إلى إحدى المسابقات العربيّة، وغادر الدّنيا ولم تصدر النّتيجة إيجابًا أو سلبًا، وقبل رحيله بأسبوع عبّر عن رغبته بأن يُطبع هذا الدّيوان ليكون بين أيدي الأطفال، وإن لم يتمكَّن فإنَّه سيقوم بنشره على

الإنترنت مجانًا لكلِّ الأطفال... إنَّ برامج الأطفال النَّاجحة باللّغة والحكايات تدين بالكثير لهذا الرّجل الذي كان يعمل بصمتٍ وزهدٍ زائدين عن الحدّ، وكلّ من عمل معه رأى أنَّه لم يتساهل بكلمةٍ أو لقطةٍ يمكن أن تؤدّي دورًا هادمًا في التّربية.. ومنذ شهور اختار واحدًا من طلّابه النّجباء ووضعه إلى جانبه، وحين سألته قال: يجب أن يكون أحد المثقّفين الذين يكملون المشوار، فقد أغادر لسببٍ أو لآخر.

عضويَّة مجمع اللغة العربية

رُشّح اسم الدكتور لعضويّة مجمع اللّغة العربية، وللحقّ فإنه كان زاهدًا بكل شيء، ولأنَّه ينظر إلى كلِّ عملٍ من منظور الأمانة، ومن أنَّه تكليفٌ إلهيٌّ وواجب فقد التزم العضويَّة وأعطاها حقَّها، وصار عضوًا في عدد من اللّجان، وفي كلّ مرّة تجلس إليه تجد الحاسب أمامه والمراجعات والتصويبات، ولم يكن قادرًا على أيّ مجاملة في الأشخاص أو العلم، وأزعم أنّه كان أمينًا على المجمع والقضايا العلميّة التي أوكل إليه أمر إعدادها أو مراجعتها، ومن أمانته التي أذكرها لأنّها خاصة بي وبه، فقد عملت بإشراف أستاذي العالم الجليل مروان البواب على إنجاز (معجم الأخطاء الشائعة في الكتابة والنّطق) والجهد الأكبر لأستاذي البواب، لكنّه آثر أن تبقى الشراكة، وليشعرني بجهدي أعطاني التّجربة الأخيرة لمراجعتها، وبسبب وضع عينيّ الصحيّ لم أتمكن ولم أعتذر، فطلبت من أخي شفيق أن يقوم بالمهمّة، فوافق شريطة ألّا يعرف واحد بالأمر، وبالمجّان، لكن بعد أن أخبرت الأستاذ البوّاب قمنا بإيراد اسمه وشكره؛ تقديرًا لقيمة ما فعله، وكم عانيت في الأمر الآخر الماديّ حتى استطعت إقناعه، برحيله خسر المجمع، وخسر الأصدقاء عالمًا مشاركًا ومتطوعًا في خدمة العلم دون تأفّف.

الإدارة والمصلحة

تولّى الدكتور محمد شفيق البيطار رئاسة المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون، وأنجز ندوات، وفعّل المجلس حتى ابتعد عنه بداعي السّفر، وصار رئيسًا لقسم اللّغة العربيّة، وخلال مدة رئاسته كان يحضر قبل أيّ طالب أو أستاذ، ويبقى بابه مشرعًا حتى يغادر بعد الجميع، ولم يؤخّر معاملة لطالب، ولم يضع عثرة أمام طالب أو زميل، ولم يجامل واحدًا على حساب آخر حتى اختار أن يرتاح من رئاسة القسم ويحتفظ برئاسة تحرير مجلة جامعة دمشق لمدّة لا بأس بها.

وفي ميدان الأبحاث المحكّمة لم يجامل واحدًا ممّن ثبت عليه أنّ بحثه فيه مشكلة ولا يصلح للتّحكيم، وفي هذه المدّة قوبل الدّكتور البيطار لأنّه مرشح لعمادة الكلية مرة، ولمنصب نائب رئيس جامعة دمشق مرّة أخرى، وفي كلّ مرّة كان يعتذر لأسبابه.. وكانت أسبابه كما أسَرّ لي مرّات بأنّ هذا العمل الإداريّ يحتاج تفرّغًا تامًّا، وهو لا يستطيعه بسبب عمله الخاصّ، الذي لا يستغني عنه ليكفي بيته وأسرته، وكلاهما عنده مهمّ.

أعمال منجزة

منذ أعوام والدّكتور البيطار يعمل على كتاب (حرب البسوس) ويجمع المخطوطات ويحقّق، ويعدّ دراسة عن أدب المسامرات، ويدافع بأنّه أدب أصيل وليس أدبًا شعبيًّا مرذولًا، وقد رأيت الكتاب شبه تامٍّ بين يديه، وكان يسعى لإيجاد طريقة لنشره وتوزيعه بما يعادل قيمة الكتاب وجهده فيه.

– أنجز ديوان الصّدّيق ودراسة فنيّة كبيرة فيه، وخاطب جهات كثيرة لنشره، لكن نشره تعذّر لأنّهم أرادوا الدّيوان دون الرّسائل والنّثر، وهو جعلهما متلازمين عسى أن يجد الكتاب طريقه.

– ديوان الأطفال الشعريّ، وهو يعد من الأهمية بمكان، إذ يجمع أشعاره في مسلسلات

الأطفال التي أشرف عليها، وإضافات أخرى، وفيه إضافات للمنجز الشعريّ للطّفل والحكايا.

– ديوانه الشعريّ، وكثيرون لا يعرفون أنّ هذا الرجل العالم كان شاعرًا رقيقًا غزلًا، ينساب شعره بالسّهولة والطّزاجة، ومنذ أيام الدّراسة الأولى قال شعرًا عذبًا، لو قدّر له لسار بين الناس، ولم ينشره مع أنه جاهز بين يديه، ويكرّسه شاعرًا من شعراء تسعينيات القرن العشرين في الشعر العمودي، وفي شعر التّفعيلة.

وأخيرًا

بين مولده عام ١٩٦٥م ووفاته عام ٢٠٢٤م أمضى أخي وصديقي العالم الجليل الأستاذ الدّكتور المجمعيّ محمد شفيق البيطار عالمًا ومتعلّمًا، دارسًا ومدرّسًا، مثقّفًا وملقيًا، عرفته الملتقيات قليلًا حين استجاب لإلحاحي وشارك في ندوات عدّة عن الأدباء الحديثين فكان مجليًا في كلّ ميدان، لأنّه لم يقبل يومًا أن يدخل في ميدان لا يملك عدّته.

ستبقى في ذاكرة طلّابك وأصدقائك منارة وستبقى عصيًّا على أولئك الذين يعجزون عن مجاراة زهدك ونبلك واستقامتك ووطنيّتك..

في رحاب الخلد أيّها العالم الكبير..

(٢)

السّيرة

كان ذلك في عام ١٩٨٢م في كلّية الآداب في جامعة دمشق، كان اللّقاء الأوّل أمام تمثال الكنديّ، كان يقف بهدوء، لا يتحدّث كثيرًا، يحمل كتابه ودفتره، وكنّا جميعًا نلتزم بلباس واحد موحّد للبنين والبنات، وهو اللّباس الجامعي الأزرق، ندلف إلى المدرّج الأوّل المخصّص لطلبة السّنة الأولى، كان شفيق ولم أكن أعرفه، يجلس دومًا في الصّفوف الأولى، يأتي مبكّرًا، يحجز مقعده ويجلس، وتستمرّ الأيام ويكون هذا الشّاب من القلائل الذين يقفون لمناقشة فكرة ما أو

للإجابة عن سؤال ما طرحه أحد الأساتذة في أيّ مادّة كانت.

كنت قد اخترت ثلّة من الأصدقاء تختلف اختلافًا جذريًّا عن شفيق وهدوئه، لكنّ هذه الثلّة لم تكن تمنع نظري من التوجّه إليه وهو يركن بهدوئه على مقعده بانتظار محاضرة ما، أو حين يقلّب كتابًا معه سواء كان ذلك كتابًا جامعيًّا أم لا، ذات يوم اقتربت من شفيق وبدأنا نتحدّث حديث العلم، وكان السّؤال يأخذنا لأعرف أنّه من أبناء القلمون، وهذا أمر مشترك بيننا، لم يأتِ يومها الأستاذ الدكتور، فاتّفقنا أنا وشفيق على المشي، واستمرَّ مسيرنا من كلية الآداب في المزّة إلى الحلبوني، يومها اشترى شفيق كتاب "أخبار اللصوص وأشعارهم" للأستاذ الراحل عبد المعين الملوحي، نظرت إليه اشترى نسختين واحدة له وواحدة لي، وبعد ذلك قرأت الكتاب وركنته جانبًا، وبقي شفيق يحمله ويضيف ويشطب حتى وصل إلى قناعة بأنّه يمكن أن يعاد هذا الكتاب في طبعة جديدة تصل إلى أضعاف ما صدر فيه، وصارت زياراتي للمكتبة مع أخي شفيق دومًا مستمرّة، وكان الكتاب حينئذ بسعره المقبول – ورحم الله ذلك الزّمان– فيشتري من أيّ كتاب نسختين واحدة له وواحدة لي، وعندما أشتري أسأله إن لم يكن عنده هذا الكتاب، وأشتري نسختين واحدة له وواحدة لي، وأذكر من تلك المرحلة أنّنا جمعنا معًا أهمّ أمهات الكتب في التراث العربيّ، كان أستاذنا في مادّة المكتبة العربيّة الدكتور محمد رضوان الدَّاية يتحدّث عن الكتب وطبعاتها وأحسن هذه الطبعات، نذهب مباشرة لنشتري الأفضل وكلّها بأسعار مقبولة، واشترينا "طبقات ابن المعتزّ" واشترينا "شرح القصائد الجاهليّات السّبع الطوال" واشترينا "الممتع في التّصريف" واشترينا كثيرًا من الكتب، وذات يوم تجرّأنا –شفيق وأنا– طلاب السّنة الأولى وذهبنا إلى مكتب الأستاذ الدكتور مازن المبارك أستاذ النحو، وشكونا له من أنّنا نعاني نقصًا في مادّة البلاغة وفهمها بسبب الطريقة الخاصّة التي كان يُدرس بها المادة أستاذها الجليل، يومها قال لنا الدكتور المبارك: "اذهبوا واقتنوا كتب الدّكتور عبد العزيز عتيق التي وضعها منهاجًا لطلاب اللّغة

العربيّة في الجامعة العربيّة في بيروت، إنّها موجودة في الأسواق". ذهبنا معًا واشترينا الكتب الأربعة، وبدأنا ندرسها معًا وفي كثير من الأحيان كنّا نتشاور وربّما يُغلق علينا أمر فنسأل الأساتذة، وربّما أغلق عليه أمر فيسألني، وكثيرًا ما كانت تغلق عليّ أمور فآخذ رأيه لأنه كان متعمّقًا في قراءته، ودراسته في ذلك الوقت أكثر من أيّ واحد منّا.

استمرّت هذه العلاقة العلميّة حتّى خواتيم السّنة الأولى، وفي خواتيمها كانت المحطّة المهمّة معًا، إذ كان مدرس الأدب الجاهلي الأستاذ علي أبو زيد وهو ابن قرية شفيق، رأس المعرّة، تحدّث معه، واتفقنا على أن نذهب معًا -شفيق وأنا- إلى بيت الأستاذ علي أبو زيد يومها على طريق المطار لنقرأ معًا، ونقوم ببعض المهامّ العلميّة التي تكسبنا مزيدًا من المعرفة والتعلّم، وتجعلنا نتعرّف إلى مصادر المكتبة العربية أكثر، وكان ذلك. كنّا نذهب في الأسبوع مرة أو مرتين، نغوص في الكتب، يعطينا المعلومات يدلّنا على مفاتيح كتب التراث، وفي الوقت نفسه بدأنا معه مشروع فهرسة كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحمويّ، ويومها زادت علاقتنا بالأعلام والأشخاص والأماكن إلى درجة كبيرة جدًا، وكنّا مدينين لهذه المرحلة بالكثير الكثير، وفي أثناء زياراتنا التي كانت تطول من أوّل النهار إلى آخره، وبضيافة أستاذنا، تعرّفنا إلى الأستاذ الدّكتور محمد رضوان الدّاية عن قرب، واختار أستاذنا أن نذهب معًا في يوم محدَّد من الأسبوع إلى مدينة دوما إلى بيته في شارع سعيد عودة إلى مكتبته العامرة هناك، وبالفعل خصصنا يوما في الأسبوع نتوجه فيه إلى "دوما" معًا ونجلس طالبَين يحاولان التعلّم من أستاذهما الدّكتور في بيته وفي مكتبته، أول مرّة نقف أمام مكتبة عامرة مرتّبة يعتني بها صاحبها وفيها ما يُذهل من الكتب، وعند الدّكتور الداية تعرَّفنا إلى صور المخطوطات إلى قراءة المخطوطات بما فيها من خطّ مغربيٍّ له علاقة باختصاص الأندلسيّ لأستاذنا الدّكتور الداية، وبما فيه من مشقّات وصعوبة، وكنّا نجلس معًا نحاول أن ننسخ ونتعلّم إلى أن تعرض لنا مشكلة فنطلب من الأستاذ الدكتور أن يحلّها، فيشير بإصبعه إلى الكتب، نقوم لنجد الضالّة

في هذه المرحلة بدأ التكوّن العلمي لشفيق ولي، وحقيقة أنا مدين لأخي شفيق فبسببه جاءني نوع من الحافز والغيرة لأكون مثله ولأقلّده في تعاطيه العلمي وفي جَلَده، فكان لي أن حظيت بهذه المرحلة من التعلّم والتي وضعتني أمام التراث وجهًا لوجه، هكذا كانت بداية مسيرة شفيق ومسيرتي، وأعتذر لأنّني أذكر الأشياء مشتركة؛ ليس أريد أن أظهر ما لديّ، وإنّما لأنّ القدر أراد أن يرسم خطواتنا معًا وأن نكون لصيقين، لأنّ القدر أراد لأحدنا أن يكتب أو يقول في الآخر ما لا يعرفه أقرب الناس إليه.

في المعسكر الجامعيّ في السّنة الأولى نجح شفيق بكلّ المواد، وترفّعت إلى السنة الثانية وأنا أحمل مادتين هما النّحو واللّغة الإنكليزية، وفي الفصل الثاني أو في الدورة الثانية، فقد كان نظام الدّورات، ترفعت بمادة النّحو أيضًا، وصرنا أكثر قربًا وابتعدت شيئًا فشيئًا عن تلك الثلّة الطّيّبة التي كنت مصاحبًا لها، ليلتزم كلانا منهج العلم والقراءة، فلا نترك محاضرة ولا نترك مناقشة لرسالة أكاديميّة، ولا نترك محاضرة بأيّ مكان دون أن نكون معًا، ومن ذلك الزّمن أذكر أنّنا كنّا نذهب معًا في الأسبوع مرّة إلى جامع السنجقدار بعد صلاة العشاء، لحضور قراءة الدّكتور محمّد سعيد رمضان البوطي كتابه "كبرى اليقينيات الكونية" في هذا الكتاب الكثير من الرّؤية والكثير من الفلسفة والكثير من المعرفة، داومنا على الكتاب كلّه وحضرناه وتناقشنا فيه وزادت معارفنا، واستمرّ شفيق صديقي في سيرته التي أتحدث عنها بقي ملتزمًا مع الأستاذ الدّكتور محمّد رضوان الدّاية في قراءة التّراث وفهمه، بينما شغلتني المشاغل وشغلني العمل في محلّ والدي، وشغلتني لقمة العيش عن أن أكون متفرغًا، وكان شفيق متفرغًا بسبب عمل والده الراحل السّيّد خالد الذي كان يعمل في المواصلات سابقًا وكانت لديه أملاك وعوائد في القرية، وكان يسبغ على شفيق الكثير، لذلك لم يكن شفيق بحاجة إلى تدريس أو إلى أي عمل من الأعمال، بقينا معًا لكن نحضر معًا، نعمل معًا، أذهب إليه بشكل يوميّ، شفيق في غرفته المطلّة على الشارع، فيها قضيت أجمل أيام حياتي ونحن نتناقش ونتشاور حتى يدركنا النّعاس، وكان

يأتي أيضًا لنقضي أيامًا في قريتي.

بدأ شفيق بالمنهج العلميّ، وبدأت بالتّدريس الذي كنت بحاجته، ليس ماديًّا فقط وإنّما لأرمّم معلوماتي في النّحو وغير ذلك، لأكون لائقًا بالأدب ومهنته، قضينا السّنوات الأربع معًا، وفي كل مادة من الموادّ كان شفيق هو الأوّل في درجته، يأتي بهدوء وتؤدة كما عرفه طلابه يقف أمام لوحة الإعلانات ينظر إلى اسمه ويرحل، وفي هذه السّنوات خاض معارك من أجل الآراء والفكر، وربّما في بعض المعارك تشاركنا، حتّى جاء موعد التّخرّج، تقدّمنا إلى الامتحان معًا، وعندما صدرت النتائج، ويومها لم تكن تحمل لوحة الإعلانات إلّا أسماء الناجحين، نظر شفيق إلى اللّوحة وغادر، وكنت في طريقي إليها ناديته فلم يردّ، ووصلت إلى اللّوحة ولم أجد فيها اسمي فعرفت لماذا غادر صديقي، رسبت في مادة اللّغة الإنكليزية وكانت الدّورة العادية، ذهبت مباشرة إلى المكتبة العربيّة في شارع غسّان في سوق الحميدية واشتريت كتابًا أصدره مجمع اللّغة العربيّة اسمه "المحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب" للسريّ الرفّاء، تحقيق مصباح غلاونجي وماجد الذهبي، وضعته في كيس وذهبت إلى بيت شفيق، كان موجودًا، ضحكنا معًا وقلت له: إن لم أتخرّج في هذه الدّورة، أتخرّج في التي تليها، لكن فرحتك يجب ألّا تُفسد، وقضينا سهرة نحتفل فيها بنجاح شفيق، كان الأوّل على الدّفعة، وفي الدّورة الاستثنائيّة نجحت في مادّة اللغة الإنكليزية، وصرت أيضًا من المتخرّجين، وأيضًا جاء شفيق واحتفل معي احتفالًا كبيرًا حتى مطلع الفجر في قريتي معربا، وبعد أيام يأتيني اتصال إلى بيت أهلي من شفيق، ليخبرني بأنّني كنت من الخمسة الأوائل وبأنّني يمكن أن أسحب شهادتي مباشرة مكافأة للذين يحصلون على هذه الدّرجة، وكان ذلك، وهنا يتوقّع الإنسان أن تنتهي المحطّة، ولكن القدر الذي ربط شفيق وإسماعيل لم يقبل أن تنتهي، اشترينا كتبنا العلمية معًا، أسسنا مكتبتينا معًا، هو في غرفته وأنا في غرفة أخي التي كنت أسكن فيها، أغلب هذه الكتب إلى اليوم تحمل توقيعه عندي وتحمل توقيعي عنده، إلى أن بدأت أثمان

الكتب ترتفع بشكل كبير فاقتنينا معًا آخر الكتب "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" في السنة الثالثة من دار الفكر بدمشق، اقتنيته يومها ب ٦٠ ل.س، وفي اليوم الثاني جاء شفيق ونزلنا ليشتري نسخة وإذا به وقد ارتفع سعره إلى ١٠٠ ليرة، عندها اتفقنا أن يشتري كلّ واحد لنفسه، وهنا انتهت مرحلة التعليم الأولى، أنا توجهت إلى مركز البحوث العلمية، وشفيق إلى المعيديّة، ولكن القدر الذي ربطنا معًا جعلنا نبقى معًا نتشاور ونتشاور ونتحدث في كثير من الأمور دون أن نبتعد عن بعض.

أعود إلى السّيرة العلميّة للدّكتور شفيق، فقد تمرّس تمرّسًا كبيرًا في ميدان التحقيق العلميّ وكانت ميزته عنيّ أنّه غير ملول وأنّه صبور ويمكن أن يجلس ساعات طويلة من أجل أمر ما للبحث فيه، وقد تستغرق القضية أيامًا حتى يصل إلى مشكلة ضبط في حرف أو قراءة، أقول هذا لأن هذه الميزة التي رافقت أخي شفيق في حياته قدّمت له الكثير وجعلته من أهمّ المحققين المجلّين المتفوقين على مستوى الوطن العربي دون أن يكون هناك أي مبالغة.

شفيق سجّل المعيديّة وبدأ باختصاص الأدب الجاهلي، وسجّل موضوعه حُميد بن ثور الهلالي بإشراف أستاذنا الرّاحل الدّكتور عبد الحفيظ السطلي، خلال السنوات الدراسيّة كنا قد اشترينا معًا ديوان حُميد بن ثور تحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي طبعة هيئة المصرية العامة للكتاب، يومها دلّنا أساتذتنا على هذا الديوان وبأنه أفضل الطبعات لأن عبد العزيز الميمني الراجكوتي الهندي، هو من أوثق العلماء وأقدرهم، عندما أختار شفيق هذا الموضوع تشاورنا معًا.. كيف يجرؤ واحد على العمل في ديوان حقّقه من قبل الراجكوتي وقدّمه، وفي النقاش تبيّن لي أنّ نسخة شفيق من طبعة ديوان حميد بن ثور فعل فيها ما فعل في أخبار اللصوص وأشعارهم، قال لي يومها: هذا الدّيوان ليس له أصل مخطوط وإنما جمعه عبد العزيز الميمني من المصادر، اليوم بعد عقود من طبعته صدرت مصادر جديدة وأشياء عديدة وصارت وسائل البحث مختلفة أنا سأعمل عليها إضافة إلى دراسة شعر ابن ثور الهلالي دراسة

فنية وتاريخيّة وتحقيق هذا الشعر وتخريجه بالطّريقة العلمية الحديثة، استغرق شفيق مدّته في إعداد هذا الديوان وجمعه وصنعه، وهو حقيقة من صنعه وصُنع على دمه وروحه وضوء بصره حتى استوى بين يديه ليكون ديوانًا علميًا موثّقًا بقدر خمسة أضعاف ديوان حميد الذي نشره عبد العزيز الميمني الراجكوتي، ونُوقش شفيق في رسالته، ويومها اكتشف الناس أنّهم أمام محقّق ودارس من النّسق الأعلى، وبدأت أسهم شفيق ترتفع في الأدب القديم وفي دراسته وفي تحقيقه وفي تتبّعه إذ لم يكن في كلّ دراسته يأخذ المعلومة ويمشي بيها، وإنّما كان مدقّقًا ومحقّقًا حتّى النهاية.

وفي الدّكتوراه ومع أستاذنا الدّكتور عبد الحفيظ السّطلي هذا الرّجل الذي عاش حياته لطلّابه رحمه الله الذي ظلم نفسه وظلمه الآخرون كثيرًا، وضع الدكتور السطلي منهجًا كان كفيلًا بإحياء التراث الشعري العربي، وسيذكره التاريخ طويلًا لجلالة ما فعله؛ إذ قام الدكتور السطلي بوضع خريطة للقبائل العربية كلّها، ووضع هذه الخريطة أمام طلّابه لكل طالب من الطلاب في مرحلة الدكتوراه كان يضع قبيلة، ليقوم الطّالب بجمع شعرائها وأشعارها ودراستها، وكان من حسن حظّ شفيق أنّه أخذ ديوان قبيلة بني كلب بن وبرة، هذه القبيلة الكبيرة التي ينتمي إليها شعراء كبار من مرتبة زهير بن جناب، وبدأ شفيق جمعه وبحثه ودأبه، فلم يغادر قصيدة ولم يترك مصدرًا ولم يترك شاعرًا، واعتمد التّوثيق العلميّ اللّائق حتّى أتمّ ديوان قبيلة كلب بن وبرة، فكانت في مجلّدين كبار، والدّراسة في مجلّد كامل، وهذه الدّراسة تعدُّ واحدة من أهمّ الدراسات العلميّة التي لا ثرثرة فيها والتي اقتصرت على الحديث عن القبيلة وشعرها وشعرائها وتاريخها، وتنقلاتها وأهمّ مآثرها ومميزاتها، ومرة أخرى يحوز شفيق على الإجماع والامتياز، ليصبح أستاذًا مدرّسًا في مادة الأدب الجاهلي في اللّغة العربيّة بشكل آلي لأنّه معيد في الأصل.

في سيرته العلميّة أقف عند بعض القضايا، لشفيق شغفٌ خاصٌّ بالبحث والتَّتبّع، ومن ذلك

أنّه من المؤمنين بأنّ العرب على السّليقة شعراء، وبدأ في مرحلة مبكّرة في تتبُّع كتب التاريخ والسّيرة ليجمع بين يديه صفحات عديدة وكثيرة، وعندما تمّت بين يديه تحدّث مع صديق مشترك كان يملك مكتبة، وإذا به يصدر ديوانًا شعريًا للخليفة الراشدي الأوّل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولم يتوقّف هنا بل تابع في البحث والإضافات حتى لحظته الأخيرة، وارتأى ألا يكتفي بأبي بكر شاعرًا، إنّما جاء بجمع خطبه ورسائله وتحقيقها تحقيقًا علميًا من مصادر السّيرة والأدب، ليصبح بين يديه كتابٌ ضخمٌ بعنوان ديوان أبي بكر وخطبه، ويحزُّ في النّفس أنّه راسل عددًا كبيرًا من الدّور التي تدّعي حرصها على التراث، وكنت على معرفة بهذه المراسلات ولكنّهم بالإجماع أرادوا ديوان أبي بكر ولكنّهم أرادوا فصل خطبه ورسائله عن الأشعار، يأخذون الديوان دون الخطب، ولكن ذلك كان متعذرًا عند شفيق لأنَّه يريد لهما الذيوع معًا، ولأنَّه ربط الخطب بالأشعار في تحقيقه، وفي لحظة صدق مع الذّات يطرح الأشعار والخطب على الشبكة بشكل مجّانيّ، لأنّه تعرّض للسّرقة من عدد من الناس الذين أخذوا ديوانه تحت ذريعة أن هذا الديوان لم يلق الذيوع، إذ طبع بعدد محدود من النّسخ داخل سوريا فقط، فتنازع عدد منهم النسبة لهذا الديوان وحاولوا نزعه من أبيه الحقيقيّ الدّكتور شفيق، لكنّه ترك ذلك للزّمن على شبكة الإنترنت، واستمر الدكتور شفيق في سيرته العلميّة التي لا يصل إليها واحد غيره، وأزعم أنه لن يصل، بتعدّد الاهتمامات والشّغف والصّبر.

النّقوش وجهود الدكتور شفيق

كان شفيق مولعًا بالخطّ، وكان صاحب خطٍّ جميل مقعَّد، وإن لم يتعلّق على خطاط ولم يمارسه، فقد كان صاحب خطّ جميل وصاحب معرفة بالخطّ، فما صدر كتاب عن الخطّ وأنواع ورحلة الخطّ إلا كان شفيق مهتمًّا به يسعى إلى قراءته، هذه المعرفة بالخطّ جعلت عنده ملكة في قراءة الخطّ القديم بداية من الخطّ المغربيّ وكيفيّة كتابته والنّقطة تحت الحرف وغير ذلك إلى

محاولة قراءة أي لغز أو نقش، وكان خبيرًا بالنقوش العربية، ومستشارًا في هذه النقوش، وكانت تصله نقوش من علماء وباحثين من الجزيرة العربية عثروا على نقش فيرسلونه ليقوم بقراءته والعمل عليه ومدى صدقيته وتحديد تاريخه، وكان شفيق يفعل ذلك وقد صدر عدد من كتب النقوش في الجزيرة العربية وكلّها تحمل اسم الدّكتور شفيق البيطار مراجعًا ومدققًا لكثير من النقوش، ومن حسن الحظّ أنّ الدكتور شفيق كتب مقالات في دورية سورية، ونشر فيها عن هذه النقوش وقراءتها، ووضع نماذج منها، وقضية النقوش أقف عندها لأنها تمثّل خاصّيّة لا يشاركه فيها كثير من الباحثين، ولأنّ الدّكتور شفيق استفاد من ميزة التّحقيق للوصول إلى قراءة هذه النقوش وتأصيل النقش إلى صاحبه والأرض التي نشأ بها.

آخر إصداراته كتاب اختيارات ابن مسافر والكتاب مشترك مع صديقه المحترم والجليل مقبل التّام الأحمدي ابن اليمن الوفيّ الذي درس في جامعة دمشق مرحلة وتخرج فيها، وكان موضوع الدّكتوراه شعراء حمير في ثلاثة مجلدات، ربطته بشفيق علاقة فكر وعلاقة ودٍّ واحترام وبقيا على تواصل، وعندما عثر الدكتور مقبل على مخطوطات لابن مسافر كان يتناقش مع شفيق بشكل يوميّ، كنت حاضرًا لبعض هذه النقاشات حول الكتاب وأهمّيته والمؤلّف، إلى أن قرّ قرارهما بتحقيق الكتاب، وقاما معًا بتقاسمه، وكنت كلّما حدثت شفيق قال لي: إن جهد الدّكتور مقبل أكبر من جهدي، لكن العلم عنده يؤثر أن أكون شريكًا، وتمّ إنجاز العمل، وحين ضاقت أيضًا سبل النشر قام بطبعه على صفحة مجمع اللغة العربية اليمنيّ التي يشرف عليها الدّكتور مقبل، وتقاضى الدكتور شفيق أتعابه من الدّكتور مقبل كما أخبرني، إلى أن تهيّأ لهما طباعة هذا الكتاب الجليل ورقيًا في أبو ظبي وفي مساعٍ كبيرة من الدكتور حسان فلاح أوغلي، وقبل أقلّ من ثلاثة أشهر من رحليه جاءني شفيق إلى مكتبي وقال هذا الكتاب وصل منه نسختان واحدة لك وواحدة لي، وكان من الكتب التي عرضتها في صحيفة (الوطن) وتحدثت عنه وعن أهمّيته وميزته، ويعدّ من أهمّ إنجازات الدّكتور شفيق، وقد أخبرني الدكتور شفيق بأن الدكتور مقبل

أصرّ على المشاركة في الكتاب معنويًا وماديًا، على الرغم من رفض الدكتور شفيق لتقاضي الأجر مرّة أخرى.

للدكتور شفيق جهود علميّة أخرى لعلّ من أهمّها كتابه عن موسيقا الشعر العربيّ، وما من واحد يعرف الموسيقا والشّعر كما هو شفيق فصنع كتابًا مرجعًا على صغر حجمه وعلى بساطته ليُعتمد في الشعر وموسيقاه، وله أيضًا قراءات في شعر الأعشى طُبعت، وله مشاركات عديدة ومقالات في مجلات محكّمة وأخرى غير محكّمة.

شفيق البيطار ومجمع اللغة العربية

منذ سنوات ليست بقليلة طُلب من الدكتور شفيق أن يقدم سيرته الذّاتيّة ليصبح عضوًا في مجمع اللغة العربيّة، لكنني أعلم أن شفيقًا عنده نوعٌ من الورع وحبّ الابتعاد فتباطأ وتكاسل في إنجاز ما طلب منه حتى جاءت اللّحظة التي طُلب ذلك ولم يكن أمامه من بُدٍّ، وتقدم بسيرته الذاتية العطرة والمليئة والغنية، واختير عضوًا في مجمع اللغة العربية بدمشق، وصار مشاركًا في جلساته عضوًا عاملًا في مناقشاته وفي لجانه، وكان في كلّ ما قدّمه للمجمع عالمًا ناصحًا أمينًا لا يعرف مجاملة.

أعماله التي تنتظر دورها

منذ سنوات كلّما جلسنا كان يفتح حاسبه ويطلعني على كتاب يعمل به هو حرب البسوس، تناقشنا طويلًا وقلت له أمَا قال أدباؤنا: إنّ هذا الكتاب من كتاب الأسمار أي الحكايا والقصص. قال: نعم هو كذلك، لكن من قال إنّ كتب الأسمار ليست كتبًا أدبيّة خاصّة، إن كتبها أديب وناقد له قيمة! واليوم يوجد لدينا مصادر تتمّ معارضة هذا المخطوط على المصادر والمراجع، إنّ حرب البسوس هو من أهمّ كتب التّاريخ التي رآها وأعطاها من عمره سنوات. وأظنّ أنّه في حاسبه جاهز للطباعة، فلنتعاون لإنجاز حلمه.

ديوان الأطفال

ما من صديق كان يحضر إلى المكتب إلّا وسمع قصيدة من قصائد الطّفولة يلقيها علينا شفيق في صباحاتنا اليوميّة، وعندما عرضت إحدى الجهات العربيّة مسابقة من أجل مجموعة شعريّة للأطفال قام شفيق بجمع هذه المجموعة ورسم الرّسوم لها، واستعان بموهبة ابنته في الرسم، جمع وحقَّق ودقَّق وطبع نسخًا من أجل إرسالها، ومنذ أكثر من عام لم تصدر نتيجة المسابقة إيجابًا أو سلبًا، وكان متلهّفًا لصدور هذا الديوان، والديوان من الأهمية بمكان، إذ يجمع فيه شفيق موهبته الشّعريّة ورؤيته بأدب الأطفال على لسان الأطفال والحيوانات على أشكال فنّيّة فيها التّعليم، وفي الديوان مجمل الأشعار التي كتبها في مسلسلات الأطفال في شركة سبيستون، حيث كان يعمل ويشرف ويكتب الأشعار تُلحن ويحفظها الأطفال، وهذا الديوان بحاجة إلى نشر، ولكن شركة الأطفال التي أعطاها عمره هي التي تشرف على نشره، وهو موجود على حاسبه أيضًا وقد رأيته بتمامه.

ديوانه الشّعريّ

لقد كان شاعرًا من السّنة الأولى، وأذكر أن حالة وجدانيّة عاشها جعلته يكتب ديوانًا، وكان في سهراتنا ـ في بيته أو في بيتي ـ يكتب القصيدة ويضبطها ويخطّطها في دفاتره، لتكون مؤرشَفة ومؤرشِفة لهذه الحالة الوجدانيّة، وديوان كامل لديه في الغزل والوجدان، كلّما سألته يقول: أريد أن أنشرها لكن الوقت لم يحن، وهذا الدّيوان أمانة بين يدي أولاده وأسرته ليتمّ العمل على نشره.

غربة وعودة:

سيرة علمية تخلَّلتها أنشطة وإعارة إلى المملكة العربيّة السّعوديّة ومشاركات في ندوات ومسابقات.

سيرة علميّة هي اختصار لواحد وأربعين عامًا، لم يشأ القدر أن أبتعد عن شفيق إلّا بمقدار إعارته وعقدي مع جامعة الإمارات، وعندما انتهت رحلتي في الغربة كان شفيق أوّل شخص ألتقي به ونعود معًا، وكتب الله أن أنضمَّ إلى قسم اللغة العربيّة في حوالي ٩ سنوات متتالية وأن أكون على مقربة من شفيق صديقه في مكتبه أيضًا، نجلس معًا نحتسي قهوتنا ونتبادل الأحاديث، لا أقول هذا من باب الذّكريات وإنّما من باب السّيرة العلميّة، ففي كلّ صباح كنت أطّلع على نقش محفور على حجر، ليقوم شفيق بتحليله حتى يفكّه، وأهمّ ما في هذه الجلسات الصباحيّة عبر سنوات تسع أن شفيقًا كان عالمًا بحقّ، يأتيه الطّالب أو الطّالبة حاملًا أوراقه إن كان من طلّابه الذين يشرف عليهم أو من طلبة الآخرين، كان يحاورهم ويناقشهم، ويرتب مخطّطاتهم ويقرأ أعمالهم ويعطيهم ملاحظاته حتى يستقيم الأمر، كان يقرأ لهم حرفًا حرفًا، وعندما يأتي موعد المناقشة كان يقول لطالبه، أنا لا أتدخّل بدرجة، أنت وعملك؛ لأنه كان واثقًا بأنّ الخطوات التي مشاها مع هذا الطّالب كفيلة بأن تفعل فعلها.

قبل قطع تذكرة سفر شفيق بثلاثة أيام جاءني إلى الصحيفة، جلسنا معًا، وحدّثني عن كتاب لأحّدهم توسط لدى جهات كثيرة لطباعته، وقام بإنجاز مراحل كثيرة منه، فنضد وراجع، بل وطلب من أحد طلبته أن يساعده في المراجعة والعمل عليه، وقال شفيق: اشترطت على نفسي واشترطت عليه ألا نأخذ أجرًا لنضيفه فوق المكافأة ليعود إلى أسرة صديقنا ليعينها في الحياة.

يوم السبت قطع تذكرة السفر ليغادر يوم الثلاثاء في عربة وحيدة كللت بالحروف والجهود والمسيرة العلمية التي أمضاها شفيق، واحد وأربعون عامًا مضت لم يكن فيها شفيق إلا عالمًا أو متعلّمًا، لم يكن إلا محبًّا، لم يكن إلا جديرًا بالثناء.

(٣)

اللقاء

حياة ومواقف شهدتها

كان ذلك الشابُّ هادئًا مبتسمًا طيّبًا يمشي بهدوء، لا ينظر يمينًا أو يسارًا، يمضي وقد لبس ثيابه الجامعيّة ووضع لفحة من الصوف طويلة حول رقبته، يمضي إلى أن يجلس هادئًا على مقعده في المقاعد الأماميّة، من أوّل يوم في الدوام ولم يغيّر هذا المجلس، شاءت الظروف أن نجلس جنبًا إلى جنب، أن نخرج في الحدائق بعض الوقت في الاستراحات، ثمَّ ما لبثنا أن تباسطنا، وكنت قد أطلقت على نفسي كنية وطلبت منه أن يعطيني كنيته حتى لا أناديه شفيق دومًا، فقال: نادِ بما شئت. شفيق خلال سنوات الجامعة حمل ثلاثة ألقاب؛ كان أبا عمرو، وكان أبا العبد، وكان أبا بلال، وبقي يسمع هذه النداءات ويردّ عليها جميعًا، لم يعترض على واحد منها، أشهر ألقابه أبو العبد أو أبو عبدو، وقد أطلق على اثنين من أولاده اسم عبد؛ عبد العزيز وعبد الرحمن، أمّا لقبه الأحبّ إلى نفسه فأبو بلال، وكان كثيرًا ما يوقّع بأبي بلال الفيحائيّ، واللّقب الثّالث أبو عمرو، وقد أطلق شفيق اسم عمرو على ولده الأخير، وحتّى الأيّام الأخيرة كنت أمازحه وأقول يا أبا بلال لم تنجب صبيًّا تطلق عليه اللّقب لتكون كل الأسماء التي كنت تُنادى بها من الأسماء التي تحبّها وتطلقها على أولادك.

أسرته وتواضعه

بعد مدّة من الدّراسة في السّنة الأولى دعانا شفيق إلى بيته في ضواحي دمشق في حيّ الطّبالة، ذهبت إلى هناك وكانت الفرحة الأولى حين رأيت والده ووالدته رحمهما الله، كان أبو محمّد وأم محمّد شخصيّتين ريفيّتين قلمونيّتين فيهما من الوداعة والمحبّة والترحيب ما لا يمكن أن يشعره المرء إلا مع أهله، على درج صعدنا إلى غرفة فوق الطّابق الأوّل، هي غرف فوق غرف لم تكن بمفهوم الطّوابق، نجلس على النافذة وطاولتنا ندرس عليها، وتأتينا وجبات الطّعام التي تعدّها

الخالة أمّ محمّد، وكان والده رحمه الله قلما يدخل إلينا، فيها أريكتان كرسيّان، كان شفيق يأخذ واحدة وأنا أخرى، ندرس وحين يأتينا النّعاس نبقى حتّى صلاة الفجر، وكذلك ذهب معي إلى معربا، وهناك التقى بوالدي ووالدتي وإخوتي، وصرت صديقًا للجميع، كانت الحياة متشابهة إلى درجة بعيدة من حيث الأسرة والتكوين، ومن حيث التّربية والعادات والتقاليد، وحتى من حيث أنواع الطّعام والشّراب.

من خلال حياتنا الجامعيّة أذكر لشفيق أنّني عندما كنت أزوره في بيته كان يصحبني إلى مسجد هناك، كان يرتاده ويتعلّم على يدي شيخه، وكذلك أنا صحبته في معربا إلى المسجد الذي كنت أتعلّم فيه على يدي الشّيخ أحمد لوظا بعد أن غادر شيخنا المسجد، أذكر له أمرًا قد لا يعني شيئًا، لكنّني أذكر أنّني قرأت فيه شخصيّة مميّزة من حيث العفّة، فما إن ظهرت نتائج الدّورة الأولى وكان شفيق الأوّل حتّى صار مثار الحديث وصار محطَّ اهتمام كثيرين وكثيرات، خاصة أن شفيق يبدو عليه سيما الهدوء والالتزام، لكن ـ وحتى أيامه الأخيرة ـ كان لا ينظر، يتحدث دون النّظر يتميز بصفة مختلفة عن باقي زملائه وأنا منهم، لذلك كان صديقًا للجميع، ولكنّه لم يكن يقبل أن يكون مقرَّبًا من أيّ زميلة كانت.

ومن جملة القضايا أننا بعد الامتحان الأول تعودنا أن نسهر سهرة أسبوعيّة وغالبًا ما كانت عنده أو عندي، نجتمع فيها شفيق وخير الله الشريف وحسن عمورة وحسان المصري وأنا، وكان خير الله الشريف يصحب معه المزهر وفي نهاية الدراسة والبحث لنا ساعات مع الإنشاد الديني:

أحمد يا حبيبي سلام عليك يا عون الغريب سلام عليك

ولم نكن نكترث إن كانت أصواتنا جميلة أم لا، لكن كل الذي كان يعنينا أنّنا نمضي وقتًا مع الرّوح في أناشيد روحية دينيّة جميلة، من كتاب أناشيد اقتناه صديقنا خير الله من مكتبة الغزالي جانب جامع زيد، وكلها أناشيد منشد معروف هو أبو الجود.

هواياته البارعة

شفيق يتميّز عنا بأنه دخل قسم اللّغة العربية بجدارة، ربّما كثيرون منا لم يتهيّأ لهم سواه، لكن شفيقًا كان صاحب مجموع عالٍ بالاختصاص العلمي، لكنّه اختار اللّغة العربيّة، وكان شفيق يمتلك مواهب كثيرة:

أولًا: الصبر والقدرة على البحث والدراسة، فكان جَلدًا صبورًا، فكنّا إذا جلسنا للدّراسة فبسبب صبره نُضطر للبقاء والدراسة فنستفيد كما يستفيد هو.

ثانيًا: الرسم: شفيق صاحب خطّ جميل جدًا، لم يتعلّمها على أيّ خطّاط محترف، ولكنّه من خلال الكتب والتقليد ومدارس الخطّ استطاع أن يكون صاحب خطٍّ مميز، وقد كتب لوحات عديدة، وأذكر أنه أهداني لوحة كتب عليها:

(روى الحسن عن أبي الحسن عن جدِّ الحسن أنَّ أحسن الحسن الخلق الحسن)

وقد كتب لوحات كثيرة، ويشاركه في جمال الخط صديقه الأستاذ خير الله الشريف الذي درس الخط في مركز أدهم إسماعيل على يدي الخطاط والفنان محمد غنوم، أمّا أنا فكان خطي حسنًا، ولكنه لم يكن خطًّا فنيًا كما هما.

وقفت عند الخط لأنّ الخط أفاد شفيقًا فوائد لا تحصى، خاصة عندما دخل في ميدان التحقيق، فهذه المعرفة بصناعة الخطّ وتاريخه وكتابته أفادته في قراءة المخطوطات مهما كان نوع الخطّ ومهما كان تاريخه، حتى إنّه استطاع أن يكون مجليًا في قراءة الخطوط المغربيّة بكل خصائصها، وأزعم أنّه لولا الخطُّ لكان الأمر صعبًا بعض الشيء عليه، ومعرفته بالخطوط هذه قدمت له فائدة أخرى، إذ كان هاجسه بالخطِّ وتاريخه وقراءته دافعًا له لقراءة كثير من الخطوط والعبارات والنقوش، ليتحوّل فيما بعد إلى واحد من أهمِّ خبراء النقوش في الوطن العربي، إذ كانت كبرى الدّوريات المعنيّة بالنّقوش القديمة، وأكبر الباحثين في النقوش القديمة يرسلون إلى شفيق ليقرأ لهم هذا النقش وليقوّمه، وأذكر أن نقشًا من النقوش بقي شفيق في قراءته أكثر

من شهر كامل، وكم كانت فرحته كبيرة عندما قرأه فدخلت المكتب ليخبرني بكل ما في هذا النّقش من جماليات ويشير لي على الحاسب بأن أقرأ.. هنا كذا وهنا كذلك وهنا كذا...إضافة إلى موهبة الرّسم، ولشفيق لوحات عديدة، منها ما سأثبته من رسمه لأولاده، وهو بارع في نقل التعابير.

ثالثًا: الشعر: الشعر عند شفيق كان مبكّرًا، فقد عرفته منذ السنة الأولى شاعرًا

تـريـديـن قـبـل الـفـراق فـؤادي
خـذيـه كـأخـذك روحـي خـذيـه

وكان الوحيد الشّاعر بيننا، ولكنه كان ذلك الشاعر الذي يكتب الشعر الموزون والمقفَّى، ويقدم قصائد كاملة يعرف وزنها، بينما كنَّا نلهو بكتابة شعر قد يكون مكسور الوزن وقد يكون دون وزن ونلجأ إلى التفعيلة أو الشعر الحديث، بينما شفيق كان شعره موزونًا وبروح العصر رقيقًا، وكان بسيطًا لا تقعُّر فيه، وقد تنوعت أغراضه الشعرية، فكان الغزل وهو الجزء غير المعروف من شعره، لأنّه لم يطبعه، لكنه أكثر الموضوعات بالنسبة إليه، ثم جاء شعر الأطفال من خلال عمله في شركة سبيستون والزُّهرة من قبل، فكان يضع شارات أعمال الأطفال التربويّة التوجيهيّة المعبّرة عن القصّة أو المسلسل، واستمرَّت معه قضيّة الأطفال فكتب شعرًا كثيرًا في قصص الأطفال والحكايا، وكلها كانت تجنح إلى التربية والتعليم والأخلاق.

ولشفيق جانب من الشّعر النّاقد السّياسيّ، وقد ألقى مرّة قصيدة سبّبت له مشكلة وتمَّ استدعاؤه من أكثر من جهة لسؤاله عن القصيدة، لأنَّ صديقنا الذي كان داعيًا للأمسية كان مخبرًا فأرسل تقريرًا عن القصيدة إلى الجهات التي يرتبط بها.

وله قصائد عديدة ليست موجودة إلا معه، وله قصائد في أصدقائه ومنها قصيدة شرّفني بها عند إصداري روايتي "لأنه كان" وألقاها في الاحتفال، وهي موجودة بخطّه وشعره

وسأثبتها في ملحقات الكتاب، وهناك نوع من الشّعر الإخوانيّ الهزليّ فقد كنا نجلس معًا أحيانًا نتحدّث عن شخص ما فأقول شطرًا يُتمّه ويكمل قصيدة كاملة في ذلك، خاصة عن الأساتذة الذين ننتقدهم، وهذه القصائد ليست موجودة لدى شفيق وإنّما احتفظت بها في صورتها الأولى ولم يحصل عليها شفيق، كان يريدها ليتخلص منها لما فيها من روح الشباب.

وهناك شعر طريف حسب الظرف، فأذكر أننا في عام ١٩٨٥م ذهبنا إلى دار الفكر، فاشتريت كتاب (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) وثمنه ٦٠ ل.س، ولم يكن معنا ثمن نسخة أخرى لشفيق، في اليوم الثاني ذهبنا معًا لشراء نسخة له، فقالوا إن ثمنها صار ١٠٠ ل.س، فتعجبت ونظرت إلى شفيق وقلت له: (مئة من الليرات نطت). فأتم البيت: (وبجيب دار الفكر حُطّت). فكان شعره بديهة حتى إنّني أذكر يومًا كنا نشتري الكتب معًا فأكرهته بدالّتي أن يشتري لي نسخة من كتاب الشابّيّ للدكتور عمر فرّوخ، فنفض جيوبه ولم يبق معه غير الثمن، ولكنّه اشتراه وكتب لي عليه إهداء من شعره:

رب مستهدٍ كتابًا
كان ما استهداه لطشة
فإذا ما عدت ثان
نلت من معطيك دفشة

ووقعه يومها باسم أبي عمر الفيحائي.

شفيق شاعر مطبوع صاحب شعر سلس وسهل، لو تهيّأ لشعره أن يصل إلى الناس ولو تهيّأ له أن يتفرغ له.

مواقفه

كانت مواقف الدكتور شفيق راسخة، تتميز بالصلابة ولكن دون شدّة، فقد كان ملتزمًا، حتى في أيامه الأخيرة كان حين يمرُّ بيّ في الصحيفة كان يقول: الحمد لله على صلاة الفجر أقرأ جزءًا من

القرآن الكريم، وأقرأ مجموعة من الأحاديث في رياض الصالحين، في جانب علاقته مع الله كان شفيق دائم التواصل، لا يعتني بالآخرين وآرائهم، وكلّما كنا في المكتب كان يذهب إلى المغاسل ليعود وقد جدَّد وضوءه لأنّه يريد أن يكون على وضوء دومًا، ولكن دفعًا لأيّ لبس لا أذكر يومًا من الأيام أشار لواحد من زملائه وأنا منهم أنّه حان موعد الصلاة، كان يذهب ويصلّي وحده دون أن يطلب من أحد ودون أن يحرج واحدًا، وكثيرًا ما كنت أتّبعه مؤتمًّا به على كرسي؛ لأنني لا أتمكن من السجود، هذا من الناحية العقيدية، من الناحية السياسية، كان دومًا صاحب رأي حرّ، وكان ضدَّ الاستبداد، وقد ذاقت أسرته الممتدة عددًا من النكبات من عام ٢٠١١م حتى رحيله وفقدت عددًا من شبابها ظلمًا في السجون، فكان موقفه واضحًا بأنّه ضدُّ الظلم وضدُّ الاستبداد وضدُّ ما تتمُّ ممارسته على الناس، وبيته الذي دفع عمره من أجله تعرَّض للأذى ودخلت فيه القذائف وبقي سنوات طويلة حتى عاد ورممه، ولكم أن تتخيلوا مقدار ورع شفيق فقد أوكل إلى أحدهم أن يقوم بمهمَّة التّرميم ودفع كلَّ ما يترتب وتأخر ذاك وتضاعفت الأسعار تضاعفت مرات وفي كل مرّة يزيد له ويزيد له، وعندما أناقشه يقول علاقته مع الله، ولكنّه قبل رحيله بمدّة انتقل إلى بيته مرة أخرى، وقد جهّزه كما ينبغي، وعندما أسأله: لم تأخرت؟ اذهب إليه كما هو. يضحك ويقول: أمُّ الأولاد تريد شيئًا لائقًا، وأنا لا أريد أن أكسر بخاطرها، البيت لها تفعل ما تريد.

احترامه وإجلاله لأساتذته

وقعت خلافات كثيرة في وجهات النظر بينه وبين أساتذته لكن شفيقًا لم يقبل يومًا أن يقول كلمة في حقِّ واحد منهم، وغاية ما يقول، كان يقول جزاه الله خيرًا لأنه علّمني. وكان كلما يقع خلاف بين واحد وطالب من طلابه كان ينحاز إلى الأستاذ ويقول: إن من وقف أمامي أستاذًا لا يحقُّ لي أن أرفع عيني في عينيه، وبقي على هذا الإجلال مع كلِّ الأساتذة حتى الذين يخالفهم الرأي، وأذكر خلافنا مع الدكتور طيب تيزيني عندما درسنا ولكن شفيقًا بكى من أجله عندما اجتمعنا مرّة، وكان الدكتور طيب في أزمة في أثناء الأزمة السّورية الأخيرة، لذلك من حقّ

شفيق على أساتذته أن يجلّوا روح العالم التي لم تتغير فيه، أمّا أصدقاؤه فلا أذكر له كلمة على واحد، كان يذكرهم بالخير والفضل، وإن كان يعرف شيئًا لا يحبّه، كان ينكر معرفته له، ونُكب أكثر من مرة مع أصدقائه، لكنّه لم يكن إلا متسامحًا، ليس من حقّي أن أذكر الأسماء والحوادث مع أنه استودعني هذه الحكايا، لكنّه لو أراد لقالها بنفسه، عندما صرت مدرّسًا في كلّية الآداب في قسم اللغة العربيّة في جامعة دمشق، جلست في مكتب إلى جوار مكتبه، مكتب صغير من الألمنيوم يشبه أكشاك السجائر، فكان كلما مرّ يمد رأسه يقول تعال نجلس عندي، شاركنا المكتب، إلى أن جاء يوم وجدته قد خلع اسمي وشارته عن الباب وألصقه على باب مكتبه وقال: صديقي حمود يونس في الصّين والصّديق حسن الأحمد في معهد اللغات وهما قليلًا ما يكونان، يجب أن تكون هنا، وترافقنا سنوات، همس ذات يوم وقال لي: أريدك في مكتبي لأنّني غالبًا أكون وحدي وتكون وحدك حتى لا يظنّ واحد بك السوء بدخول الطالبات، وفي الوقت نفسه حتى لا يظنّ بي أحد السوء عندما تدخل طالبات، وأظنّ أنه حرص عليّ أنا؛ لأن شفيقًا كان متحصّنًا بما عرف عنه من التزام.

حميّته

صادف أثناء وجودنا معًا في قسم اللغة العربية أن مرض عدد من أصدقائنا أو وقعوا تحت حاجة، فكان شفيق يحادث الجميع ويطلب من الجميع ويجمع ويرسل مع أحد الزملاء، وغالبًا ما كان يتنازل عن مكافآته للآخرين، وكان صديقنا حمود يونس في الصين عندما تأتيه تعويضات كان يستشيره فيطلب منه حمود أن يتصرّف لمن يحتاج، فكان شفيق معطاء مندفعًا وأكثر من مرة كان في مكتب الصحيفة معي يشرح لي التفاصيل ليتمَّ الجمع، ومن مواقفه معي أنه كان وراء ترشيحي لعضويّة مجمع اللغة العربية، وكان حادًّا وقال: أنا لا أريدك لمعرفة بك، وليس لأنك صديقي.

مواقفه العلمية

كان طلاب الدّكتور شفيق من أسعد الطّلبة؛ لأنّه كان يقرأ لهم حرفًا حرفًا، وكم من طالب لم يكن مشرفًا عليه كان يأتي ويقرأ له حرفًا حرفًا وكم من رسالة في الأدب المملوكيّ أو الأمويّ أو الحديث أو النّقد يجلس الدّكتور شفيق ليختار الموضوع مع الطالب، وشاركته في كثير من المرات لاختيار الموضوعات ومناقشة المخطّطات، ويقول: هؤلاء أولادنا. كان حريصًا على الطلبة يرفض تأخير مناقشاتهم، يرفض ظلمهم يتدخل لدى الأساتذة الآخرين ليحصل الطالب على حقّه، وفي مناقشاته لم يكن شديدًا، بل كان علميًّا لا يأتي للمناقشة وهو يرى في الطّالب خصمًا، ولكنّه لا يتنازل عن آرائه العلميّة أمّا الدرجة فلها شأن آخر، وفي رئاسته لتحرير مجلّة جامعة دمشق كان عونًا للطلبة والأساتذة، ولكنّه كان شديدًا في قضايا سرقة النّصوص والأبحاث، أهمّ صفة في مجلسه أنه كان يبتعد عن القيل والقال، لا يحبّ الأحاديث التي تأتي على سيرة الناس، بل كان يستثيرني جدًّا عندما يرى الحقد واللؤم ويقول: التمس له عذرًا، ويقسم أحيانًا بأنّ هذا الرّجل طيّب ولكن ظرفه هكذا؛ لذلك كان مكتبه مزارًا لجميع الأساتذة.

ربُّ الأسرة

شفيق ربُّ أسرة، يلتزم بأسرته ويعطي حياته حقَّها في العلم وبعض الدلال بالرغائب المقبولة، ومن حسن الحظِّ أنني عرفت إخوته جميعًا وأولاده وبناته وكلّ ما يدور من أمور ومشكلات، كان شفيق دومًا كريمًا ومتنازلًا عن أشيائه إكرامًا لعلاقات الأسرة والأخوة، وقد شهدت تعامله الليّن واللّطيف مع أولاده الشباب والبنات، وكنت شاهدًا على تعليم بناته الثّلاث في كلّية الصيدلة، وعلى حبّه وكيف كان في الصّباح الباكر يتصل بي ليقول: نشرب القهوة معًا بعد أن أوصل البنات إلى الجامعة، وبعد الظّهيرة في المساء كان ينتظرهنَّ وأحيانًا يقرأ جزءًا من القرآن في السّيّارة أو يقوم بإنجاز أمر ما، وأحيانًا أشاركه الوقفة بينما ينتهي عمل ابنتيه في صيدلية الزّعيم في ساحة عرنوس، وبعد ذلك ابنته الأخرى صفاء استمر

معها في الجامعة وتأمين طلباتها وكتبها ومراجعها، وأحيانًا كان من يطلب منّي تأمين المرجع لها بثمنه طبعًا، وفي السّنة الأخيرة كان ملتزمًا مع عمرو في إيصاله وإعادته وكثيرًا ما كان يأتي إلى الجامعة فيقول: السيارة ليست معي أخذها الشباب.

شفيق كان صاحب ودٍّ واحترام لأسرته، ويبدأ ذلك من زوجته التي أشهد أنه قال لي فيها كلامًا طيّبًا ليس فيه غير الحبّ والحرص، وكثيرًا ما كان يقول: شكرًا لها لأنها تتحمّل تعبي وعملي وانشغالي، وكان يشكر لها ذوقها وتربيتها وحرصها، لذلك عندما وقفت في مشفى المواساة وضعت يدي على رأسه، خاطبت العقل فيه.. كيف غادرتني يا صديقي، لمست جسده حاولت أن أتعرّف كمّية الطّهر فيه، لم أكن أصدّق أنّ بين آخر لقاء وسفر شفيق عشرة أيام.. أيّها الصّديق القادم من عصر الصّحابة السامي بعلمٍ قلَّ نظيره وبحبٍّ حتّى للخصم لا يمكن أن يكون سواك.. أذكرك بكلّ نبل بكل الحبّ الذي كنت فيه وأنت الورع حتى في تقاضي أجرك، عندما ودّعتك وداعي الأخير تذكّرت كم جاءتك من عقود ومقابلات وكان الذين يقابلونك يبهَرون، وعند المقابلة تقول: ما يريده الله وتعلم وأعلم وتحديدًا بأنه في كل مرّة يأتي بعض من أصدقائك وأحبابك ليضع مطعنًا ما ليمنع سفرك، فتضحك وتقول: الأسرة تريدني أن أسافر والله لا يريدني، يبدو أنّني لن أسافر، كذلك قلت لي مرّة: لن أسافر يجب أن أكون هنا في فجر سوريا وخلاصها من الاستبداد. عندما سألتك قرأت لي حديثًا وفسرته، وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره، وكان تفسيرك أنه لن ينتهي عام ٢٠٢٤م دون أن تكون سورية في مكان آخر، سافرت يا صديقي وسوريا صارت في مكان آخر، فاهنأ مع كل الألم بأنها صارت في مكان آخر وأنت في ملكوتك، كم آذوك وصبرت! كم أساء إليك أصدقاؤك وغفرت! كم جابهتك بحقيقتهم فصُدِمت وحَلمت! ابتسامتك الساخرة من كل شيء كانت تقول: ما شاء الله كائن وما لم يشأ لم يكن.

نماذج من أشعاره

النصّ الأوّل

أكـاد بـما في فـمـي أخـنـقُ غصـصـــت بـه وهـو يـدَّفَّـقُ
ففي كـلّ عـرشٍ أرى الخـائنين وعـبّـادهـم حـولهـم أحـدقـوا
إذا خـائـنٌ قـام خـرّوا لـه وإن قـال كـذبًـا فقـد صـــدّقوا
فما أكثر المســتحِقّ البُصـــاق! عـلى أيّ كـلـب تُـرى أبصـــق؟

النصّ الثّاني

أَحْلُمُ بِغَدٍ
أَحْلُمُ أَبْني شَكْلًا لِغَدي
أَنّي رَجُل أَنْفَعُ بَلَدي
أَنْ أَصْبِحَ أَنْشَطَ فَلاّحْ
أَوْ أَرْسُمَ فَوْقَ الأَلْواحْ
أَوْ أُنْشِئَ دُورًا وَصُروحا
أَوْ أَمْسَحَ أَلَمًا وَجُروحا
أَوْ أَنْ أَقْضِيَ بَيْنَ النّاسْ
حُكْمًا فيهِ العَدْلُ أَساسْ
لأَرَى بَلَدي كُل أَوانْ

يَمْلَؤُهُ خَيْرٌ وَأَمانْ

وَتَعُمُّ بِلادي الأَفْراحْ

حُلُمي بِغَدي

أَبْني بَلَدي

فيهِ بيَدي

١٣/ ١١/ ٢٠٠٠م

النصّ الثالث: قِصص الأنبياء

(محمّد صلّى الله عليه وسلّم)

كَمْ كان يُنْصَبُ مِنْ صَنَمْ

في أَرْضِ مَكَّة وَالحَرَمْ

نَذَرُوا لَها وتَقَرَّبُوا

مَعَ أَنَّها حَجَرٌ أَصَمْ

فأَرادَ رَبُّكَ خَيْرَهُمْ

بالبُعْدِ عَنْ تِلْكَ الظُّلَمْ

فاخْتارَ خَيْرَ قَبيلَةٍ

في العُرْب كانَتْ والعَجَمْ

واخْتارَ مِنْها خَيْرَها

الْمُصْطَفى هادي الأُمَمْ

../١/ ٢٠٠١

النصّ الرابع: قصص الأنبياء

(عيسى عليه السّلام)

بِنْتُ عِمْران النَّقِيَّهْ
مَرْيَمٌ كانَتْ رَضِيَّهْ
أَخْلَصَتْ للهِ دِينًا
بِنْتُ عِمْران التَّقِيَّهْ

**

أنتِ ما بَيْنَ النِّساء
رَمْزُ طُهْرٍ وَنَقَاء
لكِ بُشْرَى أُمَّ عِيسَى
شاءهَا رَبُّ السَّماء

**

دُون زَوْجٍ تُنْجِبينا
آيَةً لِلعالَمينا
قالَ رَبُّ النّاسِ: (كُنْ عِيْ
سَى نَبِيًّا) لِيَكُونا

١/٢٠٠١م

النصّ الخامس

نحنُ الصّغار

نحنُ الصِّغارْ

غَدًا كِبارْ

نحنُ الحُماة لِلدّيارْ

نحنُ الْبُناة لِلْوَطَنْ

**

الْعِلْمُ لِلْإِنْسانِ نُورْ

الْعِلْمُ لِلْأَوْطانِ سُورْ

نَسْمو بِهِ مَدَى الزَّمَنْ

نحنُ الْبُناة لِلْوَطَنْ

**

نَخْطو مَعًا خَطْوَ الْجُنودْ

وَعَزْمُنا بِلا حُدودْ

نَفْدي الْوَطَنْ.. بِلا ثَمَنْ

نحنُ الْبُناة لِلْوَطَنْ

**

في مَوْطِني يَحْلو الْعَمَلْ

غَدًا نُحَقِّقُ الْأَمَلْ

نُعيدُ مَجْدَنا الْحَسَنْ

نحنُ الْبُناة لِلْوَطَنْ

٢٠٠١/٦/٥م

النصّ السّادس

نحن (المساكينُ) لا مَن مات ... يا مَن تَبيتُ على الأمواتِ نَوّاحا
إمّا تَقِيٌّ نَقيٌّ طِيبُ سِيرتِهِ ... مِن طِيبِ جنّتِه تلقاهُ فوّاحا
إمّا شَقِيٌّ أدامَ النّاسُ لَعْنَتَهُ ... مُذْ أنْ غَدا بَيْنَهم بالشّرِّ أو راحا
فارتاح مِن لَعْنِهِمْ حيًّا، وأكثرُهم ... ينسى، ولو كانَ ذَبّاحًا وسَفّاحا
نحن (المساكين) لا هُم، ليسَ ... لَعْنٌ، ونَقْرَعُ بابَ الشّرِّ فَضّاحا
مِنّا ذِئابٌ، ومَنْ فَوْقَ الذِّئابِ، ومَن ... دُونَ الكِلابِ، ومَن كالكَلْبِ نَبّاحا
منّا ظِباءٌ، ومَن مثلُ الخَروفِ، ومَن ... مثلُ الحمامةِ والعُصْفُورِ صدّاحا
نحن (المساكينُ) مَن كانَ اللّطيفَ ... نابٍ، ومَن كانَ ذا نابَيْنِ جَرّاحا
هذا يُريدُ سلامَ العَيْشِ في دَعَةٍ ... وذاكَ يَرْصُدُهُ للصَّيْدِ إنْ لاحا
فالصَّيْدُ في فَزَعٍ، والوَحْشُ في جَزَعٍ ... كِلا الفَريقَيْنِ لا تلقاهُ مُرْتاحا

٢٠٢١/٣/٤م

النصّ السّابع

عَزُّوا نفوسًا نَرى موتًا يُزَعْزِعُها ... جلَّ الّذي هو بالآجالِ يَنْزِعُها
كم مِن عزيزٍ طواهُ الموتُ قالَ: أنا ... لو مَدَّ (عِزْرِيلُ) كفًّا سوف أقطَعُها!
وكمْ مَنيعٍ بأبراجٍ يُشَيِّدُها ... صُبَّتْ عليهِ شِدادٌ ليس يَمْنَعُها
وكم تمنّى خُلودًا في مَعاقِلِهِ ... نُمرودُ عَصْرٍ مَنايا الصَّرْعِ تَقْلَعُها
وكَمْ وكَمْ كَمْ، وما هُمْ لَو هُمُو ... إلّا حَصائدُ موتٍ كان يَزْرَعُها

***

هل نحن إلّا كحَبّاتٍ مُبَعْثَرَةٍ والموتُ جَمْعَ حريصٍ راح يَجْمَعُها
سِيّانِ في كفِّهِ ما راح يَجْمَعُهُ أَرْقى النُّفوسِ ووُسْطَاها وأَوْضَعُها
دُرٌّ، وبَعْرٌ، وياقوتٌ، حَصًى، خَزَفٌ وَالكَهْرَمانُ، وأَخْباها وأَنْصَعُها
لا شكَّ عندي بأنَّ الجمْعَ ليسَ لا بُدَّ مِن ناقِدٍ عَدْلٍ يُوَزِّعُها
ما كانَ منها ثَمينًا صانَ جَوْهَرَهُ أمَّا الرَّخيصةُ فالنِّيرانُ تَسْفَعُها
فاشْكُكْ إذا شِئْتَ أو أَيْقِنْ، فإنَّ غدًا تَمْتَدُّ كفٌّ يَقينٍ لَسْتَ تَدْفَعُها
لا يَنْفَعُ النّفسَ بعدَ الموتِ ما عَلِمَتْ مِن بعدِ شَكٍّ، يَقينُ النَّفْسِ يَنْفَعُها
نَدعو ونَرجو ونَسعى سَعْيَ مَن لكنَّ رحمَتَهُ أَرْجى وأَوْسَعُها

٣٠/ ١٢/ ٢٠٢٠م

النص الثامن: إلى عَيْنَيْها!

إلى مَـن أقـدّم قـلـبًـا حِمَـى حَـرامًـا على رائِعـاتِ الـدُّمى؟
لِـعَـيْـنَـيْنِ نَضَّـــاخَـتَـيْنِ، هُمـا تَفيضــانِ بالحُبِّ، يا حُسْــنَ ما!
تَـفيضـــانِ مُـنـذُ اجتـمَـعْـنـا فَـما أُحِـسُّ لِـمـا فـاضَـــتـا بِـالـظَّـمـا
هُما مَوْرِدِي العَـذْبُ بَيْنَ العُيُونِ ظَـمِـئْـتُ إلى الحُسْـــنِ لَـولا هُمـا
يُـرَفْـرِفُ قَـلْـبِـي إذا رَفَّـتـا وإنْ نـامَـتـا بـاتَ يَحْـمِـيـهِـما
يُصَـــلِّي عـلى كُـحْـل هُـدْبَـيْـهِـما فـإنْ يَصْـحُ صُـبْـحُـهُـما سَـلَّـما
ولـكـنْ تَـغـارانِ مِـن غَـيْرِ بـأسٍ ومَـنْ غـارَ لا بُـدَّ أنْ يـظْـلِـما
تَـغـارانِ إنْ مَـسَّ ظِـلِّـيَ ظِـلٌّ ولَوْ ظِـلُّ عُصْـفورةٍ في السَّـمـا!
وكَـيْـفَ أَطيرُ وجِـنْـحي كَسِـيرٌ وقـلـبـي أســيرٌ؟ ألَا فـارْحَـمـا!

٢٠٢٠/٦/٢٣م

النصّ التّاسع: في رثاء الأستاذ الدّكتور محمّد أحمد الدّالي رحمه الله

جَبَـــــلٌ آخَـــــرُ يَنْهَـــــدُّ ... مِـــن جبـــالِ العلْـــمِ مُمْتَـــدُّ

شـــامخٌ صَـــلْدٌ يُـــلاذُ بـــهِ ... كيـفَ مـالَ الشّـامخُ الصَّـلْدُ؟

كـــان دَوْحًـــا يُسْـــتَظَلُّ بـــهِ ... عنـــدَهُ الرَّيْحـــانُ والـــوَرْدُ

عنـــدَهُ مـــا شـــئْتَ مِـــن كـــرَمٍ ... عنـــدَهُ الإخـــلاصُ والجِـــدُّ

ولَـــهُ وَجْـــدٌ بكـــلِّ عُـــلا ... ولَـــدى العَلْيـــا بـــهِ وَجْـــدُ

ســـيّدٌ والعلْـــمُ قِبْلَتُـــهُ ... فَهْـــوَ في محرابِـــهِ عَبْـــدُ

ناسِـــكٌ للهِ مجتهِـــدٌ ... ســـاكنٌ في خَلْـــوَةٍ فَـــرْدُ

أُنْسُـــهُ في مَعْشـــرٍ سَـــبَقُوا ... شَرْعُهُـــمْ في اللَّـــذَّةِ الزُّهْـــدُ

والْتِـــذاذٌ بِاجْتِنـــاءِ هُـــدًى ... واجْتِنـــابٍ لِلْهَـــوى بَعْـــدُ

أَخْلَصُـــوا للهِ واحْتَسَـــبُوا ... والرِّضـــا المَطْلـــوبُ والقَصْـــدُ

فَهْـــوَ يَجْـــزيهِمْ جَـــزاءَهُمُ ... والـــدَّليلُ الحُـــبُّ والـــوُدُّ

حُـــبُّهُمْ والـــوُدُّ يَغْرِسُـــهُ ... والثَّنـــاءُ الحَـــقُّ والحَمْـــدُ

ربَّنـــا فاقْبَـــلْ تَنَسُّـــكَهُ ... مـــا لِمـــا قَدَّرْتَـــهُ رَدُّ

وعَـلى (مِصـيافَ) صَـوْبُ حَيًـا ... لِفَقيـــدٍ فَقْـــدُهُ الفَقْـــدُ

٢٢/ ١١/ ٢٠٢١م

النصّ العاشر

أَلا مَن عَذيري في لِئامٍ خَسائسِ ... نِعالٍ لَعِيناتٍ لَدى كلِّ سائِسِ؟
يَقولونَ: (قالَ اللهُ) (قالَ رسولُه) ... فإنْ فعلوا جاؤُوا بفعلِ الأَبالِسِ!
لِباس التُّقى قد مَزَّقُوهُ، وإنّهُ ... لَخَيْرُ كِساءٍ لِلتّقاةِ الأَكايِسِ
وزَرُّوا على الأجسادِ أَردِيةَ الرَّدى ... بِتزويرِ أحكامٍ ونَشْرِ وَساوِسِ
وخاسُوا وخانُوا اللهَ والنّاسَ بأَحْضانِ باغٍ مستبدٍّ وخائسِ
أَباحوا لَهُمْ ما حَرّمَ اللهُ مِنْ دَمٍ ... ومالٍ وعِرْضٍ، فَهْيَ حِلٌّ لِخالِسِ
لقد تَرَكوا نورَ الكتابِ وضَوءَه ... وقد بَرَكوا واستَورَكوا في الحَنادِسِ

***

تَبَصّرْ خَليلي! كَمْ تَرى مِن مُنافِقٍ ... تَزَيَّا بأزياءِ المَشايِخِ خانِسِ
حَريصٍ على الدّنيا يُهارِشُ أهلَها ... سَبُوحٍ بقَالُوطِ المَلَذَّاتِ غاطِسِ
يُلازِمُ أبوابَ الطّواغِيتِ باسِطٍ ... ذِراعَيْهِ في الأعتابِ كالكَلْبِ حارِسِ
فلَوْ قالَ طاغُوتٌ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ ... لَقالوا: وهل في ذاكَ شَكٌّ لِآنِسِ؟!
ولو قال: أَفْتُوني بِأَمْرِ مُحمّدٍ ... لَوَ ادْرَكْتُهُ يومًا وكانَ مُشاكِسي
لَقالوا لهُ: (تبَّتْ يَدَا) فيهِ أُنْزِلَتْ ... فحَرَّفَها _ يا سيِّدي _ في القَراطِسِ
فقاتِلْهُ لو في الحِجْرِ كانَ وكانَ في ... شَفاعَتِهِ أهلُ الدُّهورِ الأقادِسِ
أَبو الأَنْبيا فيهِمْ وآدمُ قَبْلَهُ ... ومُوسى وعِيسى فارْمِهِمْ في المَحابِسِ
ودَمِّرْ علَيْهِ البَيْتَ وامْسَحْ دِماءَهُ ... بِأحجارِ ذاكَ الحِجْرِ فِعْلَ الأشاوِسِ
وأَبْشِرْ برِضوانٍ وأَكْرَمِ مَنْزِلٍ ... وحُورٍ وخَمْرٍ لَذَّةٍ في الفَرادِسِ
أَصاحِ! تَرى بَرْقًا يَلُوحُ كَما أَرى ... وإنْ كانَ يُخْفِيهِ ظَلامُ الحَنادِسِ؟
أتَسْمَعُ تَهدارًا كما قد سَمِعْتُهُ ... يُجَلْجِلُ في جُنحٍ مِن اللَّيْلِ دامِسِ؟

وسُـحْبًا أَرى مِن صَـوْبِها السّـيْلَ يُهـدِّمُ مـا يَجْـتـاحُـهُ مِـنْ أَسَـائِـسِ؟
يَكُـبُّ على الأذقـانِ كـلَّ مُنـافِقٍ ويُـلْـقِـي بـهِ في بـائِسـاتِ المَـرامِـسِ
ويَسْـقِي كِرامًا قد تَناءَوْا صـيانةً لِـدِيـنٍ قَـويـمٍ عـن وَبِيءِ المَـغـارِسِ
فَسُـحقًا لِقَوْمٍ لَمْ يكونُوا مِن الأُلَى بِـعِـزَّتِـهـم ظَـلُّـوا مَـنـارًا لِـقـابِـسِ
لَهُـمْ عِـزّةٌ تَـأْبى النّـزولَ بِـمَـنْـزِلٍ يُـغَشّـيـهِـمُ فـيـهِ غُـبَـارُ المَـكـانِـسِ
فَشـتّـانَ مـا بَيْنَ الفَرِيقَينِ: رافعٍ بِـعِـزّتِـهِ رأسًـا، وآخَـرَ نـاكِـسِ
فهـذا مع الأيّـام يَسـقطُ هـاوِيًـا وهـذا عـلى رَغْـم الأسـى غـيرُ آيِـسِ

٢٥/ ١١/ ٢٠٢١م

النص الحادي عشر: (لأنه كان) في صديقه إسماعيل مروة

كـان مـا كـان يـا سـهادُ فخـلّي صـاحبَ الوجـدِ كـي يبـوحَ وولّي
كـان مـا كـان إن سـألتِ فـإنّي قـد دهـاني مـع القصـائدِ خِـلّي
كُـنَّ ديـوان عاشـقٍ لـيس يـدري كيـفَ يُهديـهِ للحبيـب المُـدلِّ
صَـبَّني صـاحبي فألفيـتُ نفسـي بـين أحضـانِ بيلسـانٍ وفـلِّ
فجـأة صرتُ بـين روضِ يـديها حـائرَ الطـرفِ بـين عـزٍّ وذلِّ
كـان مـا كـان يـا صـديقي فقـلْ لي هـل دهتـك الخطـوبُ مـثلي قـلْ لي
مـروة أنـت لا يُقِلـك خطـبٌ وصـفاة أنـا إذا رام فَـلِّي
يـا خلـيلِي كـم قـد مررنـا بمـرٍّ أو بحلـوٍ مسـتعذَب للـتحلّي
كـم فقـدنا مـن صـاحب أو عزيـزٍ أو حمـيمٍ هُـم في المحـلِّ الأجـلِّ
ثـم جـادت لنـا الحيـاة فجـاءت بأنـاسٍ حلّـوا بـذات المحـلِّ
كـم أرِقنـا والليـل قـد طـال حتّـى كلّنـا قـال لـيس بالمُضـمحِلِّ

ثـــم ولّى لمـــا رأى نـــورَ فجـــرٍ إن للفجـــرِ موعـــدًا للـــتجلّي
يـا صـفيّي عشـنا خلـيلَيْ صـفاء لســتُ ظــلًا لــه ولا هــو ظــلّي
يـا أُخيّـي شـهدت أنـك شـهدٌ للمصـــافي مـــا فيـــك ذرّة غـــلِّ
وإذا مـا ألفـت في الألـف مـا لا ترتضـــيه فأنـــت جرعـــة خـــلِّ
لا تُـداري وعـلَّ ذلـك خـيرٌ حـين تـأبى نصـحي بهـا ولعـلّي
لـيس بِـدعًا مـن مبـدعٍ مـا عنـادٌ عنـــده أنّ فنّـــه أن يجـــلّي
فـارِ مـا شئتَ كيفما شئتَ واركبْ ســابقًا ظهــرَ فنّــك المســتقلِّ
كـان مـا كـان والروايـة فـنٌّ يعـتلي متنـه المِفَـنُّ المجـلّي
رُمـتَ منـي قصـيدة ليـت شـعري هـل سـيروي الصـديقَ جُهـدُ المقـلِّ

النصّ الثّاني عشر: قصيدة للأطفال

أطفالُنـــا أزهارُنـــا شُموسُـــنا أقمارُنـــا
هُـــمْ في غَـــدٍ ثِمارُنـــا هُـــمْ في غَـــدٍ مَنارُنـــا
هُـــمْ في غَـــدٍ نَهارُنـــا تحيـــا بهـــم دِيارُنـــا

***

رَغْـــمَ الـــحُطامِ والرُّكـــامْ رغـــمَ الغُبـــارِ والسُّـــخام
رغـــمَ الـــدُّخانِ والظَّـــلامْ والعَـــيْشِ في بـــؤس الخِيـــامْ
في قلبِنـــا إصرارُنـــا في كَفِّنـــا بِـــذارُنا

***

في روحِنـــا وَهْـــجُ الضّـــياء والنُّـــورُ مِـــن رَبِّ السّـــماء
نَمْضـــي بِـــهِ صُـــبْحًا مَســـاء نَمْحـــو بـــه هـــذا الـــبَلاء
تَصْـــحـــو بِـــهِ أبصـــارُنـــا تَشْـــدو بِـــهِ أطـــيـــارُنـــا

***

بـــالـــتّـــينِ والـــزَّيْـــتـــونْ والـــــخَـــوْخِ والـــلّـــيْـــمـــونْ
ورِيـــحِ زَيْـــزفـــونِـــنـــا وعِـــطْـــرِ يـــاسَـــمـــيـــنِـــنـــا
ســـتَـــمْـــتَـــلي دِيـــارُنـــا ويَـــنْـــتَشـــــي صـــغـــارُنـــا

٢٤/ ٦/ ٢٠٢٤م

رحلته في سبيستون

إعداد: فريق العمل في الشّركة

لا يخلو عمل في سبيستون من اللّمسات المميَّزة التي كان يضعها الدّكتور شفيق البيطار. لم تكن لمساته إضافيّة أو تجميليّة وحسب، بل كانت تخصّصية في صلب الأمور وجوهرها، لا يتهاون بها يمسُّ اللغة العربيّة، ولا يقبل أن يتخلَّلها أي اعوجاج أو تمييع، كان قلمه مميزًا، يريده دائمًا من نوعٍ محددٍّ رفيع الخطّ، لكي ينقش فيه ملاحظاته على نصوص الإعداد بدقّة وخفّة، فيصحّح لفظ الكلمات الخطأ والمعلومات المغرضة، ويشدّ بقلمه بخطوط داكنة فوق كل ما يُعَدُّ مرفوضًا لغويًا أو رقابيًّا.

كنا نرى تقطيبة جبينه عاقد الحاجبين في كلّ مرة يرى فيها ما لا يسُرّ، مما كتبه أحد المعدّين؛ ويرافق انزعاجه هذا عبارة "ما بصير هيك، قلولهم ما بصير"، ثمّ كان يهدأ من فوره ويأخذ نفسًا وتعود ابتسامته اللّطيفة لتعلو على محيّاه؛ ويكتب ملاحظة مفيدة يتعلّم منها المعدّ أصول الكتابة والإنشاء والإعداد.

وبدورنا، لم نكن نقبل أيّ نصّ أو فكرة أو رواية، إلا بعد أن يخطّ فوقها بقلمه في رأس الصّفحة الأولى كلمة "تُعتَمَد"؛ الكلمة التي كانت تجعل من كل ما نراه موثوقًا ومهيّأً للاستعمال في نظرنا.

آلافٌ من النّصوص والصّفحات مرّت عليه، كان يعطيها وقته وجهده كلّه، ولا يهمل صغيرة أو كبيرة فيها، ولطالما كان ملجأ المعدّين والمشرفين الأوّل، لمعرفة صحّة عبارة محدّدة، ولطالما دار جدال يملؤه الحبّ والمزاح والجدّ بينه وبين المعدّين والمشرفين؛ لمحاولة إقناعه بكلمة وصحّتها أو التّجاوز عن أمر ما؛ والغلبة كانت دائمًا لطيبته ومعلوماته الواسعة، التي كانت تنتصر في الموقف وتفرض حضورها على الجميع ليتوصّلوا إلى حلّ منطقيّ مختلف وجديد يرضي الأطراف جميعها.

قلمه ويده صديقان مخلصان؛ مرتبطان لا يتفرّقان، يبدعان معًا في كلّ المجالات، فللرّسم والفنّ حصّة كبيرة منه ومن قلمه، رسوم صغيرة تلفت انتباه كلّ من زار مكتبه في لحظة صفاء، ومخطوطات شعريّة وأدبيّة رسم أحرفها رسمًا، وآيات قرآنيّة، ولطالما كنّا نتحايل عليه لأخذها وتعليقها على جدران مكاتبنا لتزيينها، فنشعر أنّ جزءًا منه يعيش معنا في كلّ لحظة.

أمّا الأشعار والقصائد والأغاني، فكان لها النّصيب الأكبر من فكره وقلمه، عشرات أو مئات من شارات الأعمال التي تميّزت بكلماتها الرنّانة القويّة المؤثرّة، أو التّصويرية الملهمة.

شارة أمل البطل؛ التي وصف فيها قريته التي نشأ فيها وعاش؛ وطبيعة أهلها ومناخها وتضاريسها؛ بألطف صورة هادئة عندما كتب:

في قرية مملوءة بالجدّ والأمل

تغفو على الجبل

قلوبنا تطير

كأنّها طيور

بالودّ والسّرور

كلماتٌ لطيفةٌ قريبةٌ من فهم الأطفال، وأقرب إلى قلوبهم من عقولهم، تغنّى فيها بقريته الجبليّة الهادئة، التي يملؤها جدّ أهلها ورفوف الطّيور في سمائها.

وشارة صنديد مثلها، التي تتحدّث عن والد بسيط يسعى لتلبية احتياجات عائلته.

أمّا الشّارات التي ضجّت بالبطولات والشجاعة وحبّ الوطن، فقد كانت كثيرة ومتنوعة، وكان قادرًا في كل مرّة أن يضع فيها تعبيرًا ولمسات مختلفة من غير تكرار. تلك الشارات التي كانت تتّقد وتتردّد على ألسنة النّاس من مختلف الأجيال.

من منّا لا يحبّ شارة: (أبناء الوطن، والسّيف القاطع، ومازنجر، وبالديوس ودايس):

حملوا أملًا لا يخبو

سلّوا سيفًا لا ينبو

إن نادى أحدٌ هبّوا

ليعينوه ويلبّوا

و(شعلة ريكا) التي تصف أخلاق الأبطال، والشّارات الرياضيّة التي تجعل المرء يقفز كلّما سمعها، مثل: (أوف سايد، وبي باتل) التي كانت نقلة نوعية بمسار الأغاني الرياضيّة البطوليّة، و(كراش جير وإيداتن جمب، وغورميتي).

أمّا الفكاهة والضّحك والبراءة فكانت بشارة (فوزان) ذاك الحمار الصغير، وشارة (بي بي تونز وفيروزة)؛ ومن منّا لا يذكر شارات وأغاني (الفيل بابار)، وأكثرها طرافة كانت شارة (أنا وأخواتي).

وكثيرٌ من الشّارات التي تغنَّينا بها ونتغنَّى، وشاراتٌ أخرى كان قد كتبها الدّكتور شفيق قبل رحيله عنا بمدّة وجيزة؛ ستظهر إلى النّور قريبًا لتخلّد ذكراه وتجدّدها وتبقيها متقدّة في قلوبنا.

ولا يسعنا إلّا أن نذكر نظرته الثّاقبة الدّقيقة، ومعلوماته الواسعة الثقافيّة المتنوّعة، التي كانت تساعده كي لا تفوته فائتة في أثناء مشاهدته لحلقات الأعمال المتنوعة ليبتّ في صلاحيتها والمشكلات التي تتخلّلها، وفي كلّ مرّة يفاجئنا بمعلومة جديدة عن ثقافة معيّنة، أو حضارة غريبة منفيّة، أو رمز قد مرّ مرور الكرام بأقلّ من طرفة عين، ولكنّه استطاع أن يلتقطها.

زميل وصديق وأخ وأب ومعلّم، رزانة وهدوء وموسوعة علميّة متنقّلة، لم يبخل يومًا في تقديم معلومة لأيٍّ كان، متواضعٌ جدًا ويقدّم النصيحة بوجه بشوش، وثغر مبتسم، وصوت منخفض هادئ، لم يمرّ بموقف أو مكان أو حديث إلا وضع فيه أثره.

جزاه الله كلّ خير عن كل ما قدّمه ووهبه من علم نافع وأدب خلوق وقيّم.

رحلته مع النّقوش

صديقي الذي رحل قبل أن أراه!

د. عبد الله السعيد/ فريق الصحراء

صداقتي أنا وزملائي في فريق الصحراء للأستاذ محمّد شفيق بن خالد البيطار بدأت حين نشرنا في موقع فريق الصحراء نقوش جبل السفينة في حسمى ولكنّها توطّدت منذ عام ١٤٣٢هـ (٢٠١١م) فقد كان ينشر تعليقاته القيمة في قسم التعليقات، ثم في عام ٢٠١٢م (١٤٣٣هـ) نشرنا نقوش شواهد قبور من قرية السرّين في تهامة وهي نقوش مزخرفة صعبة القراءة فكان متحمّسًا لفكّ ألغازها ومن أقواله:

هذه قراءتي للنقوش الواردة في هذه الرحلة تلبية لطلب الإخوة في فريق الصحراء، بارك الله في من شارك فيها.

وفي رسالة أخرى أعجبني أنّه استعان ببعض أصدقائه ممّا يدلّ على استمتاعه بمثل هذه النشاطات فقال:

"وقد أتعبتني قراءة هذا النّقش، ثمّ منّ الله تعالى عليّ بأن أعانني على قراءة عدد من الكلمات المشكلة كلّ من الإخوة: د. أحمد نتوف، وحذيفة الخطيب، ورمضان أيوب؛ جزاهم الله خيرًا".

ومع مرور الوقت لم يكتف البيطار بالنقوش بل أزعم أنّه انضمَّ لفريقنا وصار عضوًا فيه ولو بالخيال فصار يتتبع رحلاتنا ويكتب لنا أحيانًا تعليقاتٍ مشجّعة، فمثلًا علّق على رحلة برية لتفقد درب الحج في منطقة غمرة ووجرة، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء في هذه الرّحلة ذِكْرُ (الكُراع)، وهي بحسب تعريف القدماء حَرّةٌ، وهذا واضحٌ من الصورة، وقد ذكرها مهلهل في بعض شعره، فقال:

لمّا تَوَغَّرَ في الكُراعِ هَجينُهم هلهَلتُ أثأرُ جابرًا أو صِنْبِلا

توغَّرَ: دخل مكانًا وَعْرًا. والهجينُ: من كانت أمّه غيرَ عربيّة، يعني به امرأَ القيس بن حُمامٍ الكلبيّ. وهلهلْتُ: كِدْتُ. وجابر وصِنبِل: اسما رجُلَين....

أشكر الإخوة فريق الصحراء فقد نقعوا غلّتي بتصوير الموضع، وأفادوني جديدًا يتعلّق بشعر بني كلب بن وبرة الّذي كان موضوعًا لرسالتي للدّكتوراه، وهو مبذول على الشابكة لمن شاء، والله الموفّق.

بل صار يوصينا بالحرص على توثيق كلّ شيء ومن نصائحه:

بارك الله فيكم وفي جهودكم

وأرجو من الإخوة الرّحّالة ألاّ يُغفِلُوا أيّ نقشٍ ممّا يقفون عليه في رِحَلِهم؛ فإنّ في ذلك خيرًا كثيرًا وأجرًا كبيرًا إن شاء الله.

وبدأت أراسله على بريده الخاصّ إذا استصعب عليَّ نقش أو أردت أن أستأنس برأي رجل ممارس، والنقوش القديمة لا يعبّرها إلا من اجتمع عنده الشغف بها وملكة اللغة وممارسة طويلة، وكثيرًا ما يفيدني، وأحيانا يعتذر، مثل نقش منطقة كلوة، فهو حقيقة صعب، فقال لي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أشكركم على ثقتكم الغالية، وأرجو لكم التوفيق والنيّة الخالصة لوجه الله في أعمالكم كلّها؛ وبعد:

يؤسفني أنّ الصّورة لم تُسعفني في قراءة النّقش كما ينبغي، والظاهر من الصليب في أوّله أنّه نقشٌ على باب معبد نصرانيّ، والله أعلم، وإنّما تبيّنت لي بعض الألفاظ على صُعوبةٍ في ذلك، وهي:

بسم الله .... أوّل (؟) ... من ا.. عـ...

لذا أرجو تزويدي صورة أكبر، وحبّذا لو أنّكم استعنتم بالطبشور وتمريره على ما هو يقينيّ أنّه من النّقش، فإن ذلك ممّا يُعين أكثر على قراءة المكتوب، وهو لا يؤثّر في النّقش ولا يُفسِدُه.

والله الموفّق.

دمشق في ١٠/ ١١/ ٢٠١٢ م.

ومن تواضعه قوله:

بارك الله فيكم

أحبُّ أن يعلم الإخوة المتابعون للموضوع أنّ الخطأ وقع بسبب منّي، إذ كانت قراءتي للنقوش وإرسال ذلك إليكم كان على دُفعات، فوقع ما وقع، وجزاكم الله خيرًا.

٢٠١٢م و ٢٠١٣م كانت الأحوال على أسوأ ما يكون في سوريا، وكنا قلقين على صديقنا...حيث لا يرسل لنا إلّا القليل، وكنا لا نحب أن نضايقه بالرسائل، ثمَّ وصلتنا منه رسالة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وأدامكم الله ذُخرًا للأمّة ما حييتُم، وجعل أعمالكم خالصة لوجهه الكريم

وبعد:

هل من جديد بشأن النقش وقراءته، فإنّه لا يزال يشغل بالي، وإن كانت ظروفنا تسدّ على العاقل كلّ طريق.

مارس ٢٠١٣م

أرسلت له هذا الرد:

"فرحنا والله برسالتك، فقد كنّا مشغولين عليك، لا جديد على النّقش وقد نشرنا الموضوع، ونقوشًا أخرى، اللهَ نسأل أن يعجّل بالفرج في الشام وأن يحفظك ومن تحب أيّها الأستاذ الكريم."

فردَّ عليّ:

"بارك الله فيكم، وسدّد خُطاكم، وألهمكم الرُّشد.

اللّهمّ مالك الملك تؤتي المُلكَ مَن تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء بيدك الخير، اللّهمّ أبرم لأمّة الإسلام أمرَ رُشد يُعَزُّ به أولياؤك ويُذَلُّ به أعداؤك، وتُفرّج به عن أهل دينك اللّهم فرجَك".

ولما بدأنا بنشر نقوش حسمى الكثيرة عام ٢٠١٤م (١٤٣٥هـ) زادت المراسلات المتبادلة، وكان يعلّق أحيانًا على ما كتبه الآخرون، ويعطي كلَّ ذي حق حقه، مثل قوله:

بارك الله في الأخ (محمد بن عبد الله السريِّع)، فقد أعان على أمرٍ غايةٍ في الأهمية، وهو متابعة ما بعد اكتشاف النقوش وقراءتها، ومن فوائد ذلك تصحيح الأغلاط التي تقع في القراءة، كما في اسم (يسار) الذي قرأته (بشار)، وملحوظته في ندرة اسم (بشار) في القرون الأولى صحيحةٌ تدلّ على خبرة في علم الرّجال؛ جزاه الله خيرًا.

وحتى في رحلاتنا غير المهتمّة بالنقوش كان يفاجئنا بكلمة لطيفة تنبئ عن أنّه يرحل معنا عبر (الشابكة) كما يحبّ أن يسمّي الإنترنت، ولعلَّ هذه المتابعة تخفّف عنه واقعه الأليم ذلك الوقت... لما نشرنا زيارتنا لسدِّ معاوية رضي الله عنه قرب المدينة، وكان فيه وصفٌ ممتعٌ لجلسة الفطور وخرير الماء، أرسل قائلًا:

ما شاء الله

يا سَعْدَكم!

كانت سوريا وقتها تمرُّ بمحنة عظيمة، أثّرت ولا شكَّ في نفسية محمد شفيق... لكم تمنيت

أن تتسهّل أمور أستاذنا الفاضل، وأن يزور المملكة لآخذه معنا في مثل تلك الرحلات...

ثم قمنا بنشر نقوش مهمّة من شمال حسمى، زوّدنا بها الأستاذ عبد الله عيد، وكانت خبرتي وزملائي ذلك الوقت متوسّطة في قراءة النقوش العربيّة المبكّرة فاستعنت بالأستاذ البيطار الذي استجاب، وخصّها بمقال متكامل، فشكرناه شكرًا جزيلًا، وكتب لنا:

بارك الله فيك أخي م. عبد الله عيد، وفي بقيّة الإخوة، وهذا بفضل الله تعالى ثمّ بفضل الجهود المشتَرَكة بين الإخوة؛ ألهَمنا الله أن نعمل مُخلِصين لوجهه الكريم، وأن ينفع النّاس بما علَّمنا من فضلِه.

وأرسلت له مذكّرًا ببعض النقوش، ودعوت لأهل سوريا بالفرج، فوضَّح لي ما هو فيه من تراكم أعمال:

وجزاك الله خيرًا على رسالتك، فقد شرحت صدرًا ضاق بما حوله لولا أن الأمل بتفريج الكروب من واجبِ المؤمنين، وأرجو أنّني منهم.

أخي العزيز، تعلم أنّ هذه الأيام أيّام امتحانات الجامعة، وقد تسلّمت أوراق الطلاب، وهي تزيد في الفصل الأول وحده على ألف وثمانمئة ورقة امتحانيّة، وامتحان الفصل الثاني لحَمَلةِ المقرّر بعد يومين، والله المُعِين. وقد صرفني ذلك عن متابعةِ نسخ مخطوط كتاب البسوس المنسوب لابن إسحاق.

فأرجو أن أنتهي من تصحيح أوراق الامتحانات لأجد وقتًا أعيد فيه قراءة ما غمض من النقوش، وهي في صحائف أعمالكم إن شاء الله.

ثم في عام ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م توالى نشر نقوش حسمى من رحلتنا الثانية، هنا بدأت العلاقة تتوثّق أكثر، فقد تأكّد لي أنّي أنا والأستاذ البيطار قد وقعنا تحت تأثير سحر هذه الأرض الفاتنة الجميلة المسماة (حِسمى)، وليس هناك غَيرة في مثل هذا العشق المشترك، بل كنت أتمنّى أن يشاركني الآخرون عشقها المضني، لكنّهم للأسف كانوا أقلَّ من القليل،

خاصة الإخوة الأكاديميّين الذي يطلّون من بعيد، وكأنّ المشاركة مع الهواة جريمة، بينما هو وقتها رئيسُ قسم اللغة العربيّة بجامعة دمشق، لكنّ البيطار عالِم متواضع، وفرق بين العالم الحقيقي الذي يبحث عن العلم أينما كان، وبين المتصنّع الذي يريده أن يأتيه في مكتبه الفاخر.

بعد أن نشرنا أحد تقاريرنا الدسمة بالنقوش المبكّرة كتب رحمه الله:

"بارك الله فيكم وفي أوقاتكم التي تنفقونها في هذه الأعمال الخيّرة إن شاء الله. لقد صرفني هذا التقرير الشائق عن عملٍ يحتاج إلى وقتٍ طويل، وعسى أن يكون ذلك لخير؛ فقد قرأت وأحسست بالأسى الذي أحسستم به لِما أصاب بعض النقوش، ونظرت في النقش الذي ورد في الصّورة فإذا هو بعد التّدقيق لِرَجُلٍ مِن الصَّدْرِ الأوّل في الإسلام، وهو (سفيان بن وُهَيْبٍ)، وقد قالَ في نَقْشِه: (أنا سفيا[ا]ن بن وُهَيْبٍ أُوصِي.....

وأسأل الله أن أجد قريبًا وقتًا للنّظر بتروٍّ في هذه النقوش وكتابة ملحوظاتي عليها؛ ورحم الله امرأً قالَ آمين."

في أكتوبر ٢٠١٤م حيث عيد الأضحى لعام ١٤٣٥هـ انقطعت المراسلة من قبله، وأحسست بالقلق، خاصة مع ظروف سوريا الصعبة، فأرسلت له أن يطمئننا، ففعل فقلت: "كم أسعدنا أن نسمع منك بعد هذا الانقطاع، ووالله إن عودتك لموقع فريق الصحراء وعِلمُنا أنّك بصحة لهو أسعد خبر لهذا العيد. نسأل الله أن ينشر عليكم الأمن والسعادة. إن نقوش حسمى الثمينة لازالت تنتظر التفاتةً من خبير مثلك زادك الله علمًا."

فكتب لنا:

"لأنا أشدّ سعادةً برسالتكم النّبيلة هذه من لقاءِ أخٍ أخًا غاب عنه طويلًا، ولم تذكّروا ناسيًا بنقوشِ حِسْمَى، وأرجو أن أجد لها الوقت الكافي لإعطائها حقَّها بإذن الله".

وقام رحمه الله بإنشاء مقال كامل عن بعض النقوش فنشرناه كاملًا باسمه:

"أشكر الإخوة الكرام في فريق الصحراء على اهتمامهم بالموضوع، وعلى ما بذلوا من جهد لإخراجه على أكمل وجه ممكن؛ وأشكر كلّ من سبق أن شارك في الموضوع الأصل وأبدى رأيه في قراءة النقوش وفي تعريف أصحابها، وأدعو الجميع لتسديد ما أخطأت في قراءته، وفي تعريف بقيّة أصحاب النقوش؛ وجزى الله الجميع خيرًا."

ثمّ حصل انقطاع من قبله عن زيارة الموقع والمراسلة، فخشيت عليه مرّة أخرى، وأرسلت له للاطمئنان، فكتب إليّ:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

وبارك الله فيكم أخي الكريم عبد الله السعيد، وأنالكَ مِن اسمك أوفى نَصيب.

نحمد الله على ضرَّاء اليوم كما حَمِدْناه على سرَّاء الأمس، وإنَّما هو الابتلاء، {وبَشِّرِ الصَّابِرين الّذينَ إذا أصابتهم مُصِيبَةٌ قالُوا إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجِعُون}، وعسى أن ننقلِبَ بِصَلَواتِ رَبِّنا ورحمتِهِ وبِنِعْمَةِ الفَرَج بما يَسُرُّ الصّالحين مِن عِبادِه، وعسى أن يكون قريبًا.

كان القلب يتألّم ممّا يواجهه إخواننا في سوريا من خوف وظلم وجوع وألم نفسي وبدني، لكن لم نملك إلا الدّعاء، وكانت هذه المراسلات نوعًا من التعاطف المتبادل، وكان يشكو لي من كثرة انقطاع الكهرباء، وانقطاع الشابكة كما يسمّيها رحمه الله.

لكنه عاد للمباحثة والتعليق، ومن جميل أخلاقه أنّه يعتذر بسرعة حين يخطئ:

أسأل الله أن تكونوا بخير وعافية

قبل أيّام دخلت موقع (فريق الصحراء) ووجدت تقريركم حول (رحلة وادي القرى ٢) فقدَّمت مشاركة شكرتكم فيها وبيّنت فيها بعضَ ما عنَّ لي، ومنه قراءتي للنقش المرافق للنقش المكتوب بخطّ منمّق تحت الرقم ٣٥، وهو (إسماعيل بن علي بن الحسن الزّبيريّ، بربّه يثق)، وأنكم ذكرتم أن اسم (عريض) كثير في عدد من النقوش، وهذا صحيح، غير أنّ الصواب في

الاسم هو (غَرِيض) بالغين المعجمة، وأشياء أخرى؛ ولكنّني دخلت اليوم على الموقع فلم أجد المشاركة، فما أدري السّبَب، مع أنّني حين وضعت المشاركة ظهرَت بين المشاركات، لعلّ المشكلة في طريقة دخولي ومشاركتي. وقد سبق أن حدث مثل هذا من قبل.

أرجو إفادتي بالطريقة السليمة للمشاركة. وجزاكم الله خيرًا.

لكنّه وجد أن المشاركة قد نشرت، فكتب فورًا:

سبحان الله

ربّ عجلة تهب رَيثًا

وجدت قبل قليل مشاركتي وتعليقكم عليها، فاستدركت بهذه الرسالة اعتذارًا إليكم.

ومن جميل ما قاله عنّا، ونفخر به، قوله:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إنّ ممّا يزيد من احترامي وتقديري لما يقدّمه فريق الصحراء أنّهم ينسبون أدنى جهدٍ يقدّمه غيرهم إلى صاحبه، مثلما فعلوا في هذا الموضوع، مع أنّني إنّما أُبدِي رأيي فيما يراسلونني به غيرَ راغبٍ ولا طالبٍ أن ينسبه إليّ، ولكنّ أمانتهم تأبى إلّا نسبة الآراء والمشاركات إلى أصحابها؛ وهذا من نبل نفوسهم وأخلاقهم ومن إخلاصهم؛ فجزاهم الله خيرًا. والمشاركة الثانية المكتوبة بالإنكليزيّة جديرةٌ بالاحترام والقَبُول.".

وشكرناه مرّة على تعليقاته المفيدة فقال:

"حيّاكم الله بالسلام، وبعد:

إنّما الشكرُ لكم، فكم هيّجتم من شوق، وحرّكتم من ساكن، بارتحالكم وتعبكم، وإنّما نعلّق بما يعِنّ ونحنُ من وراء المكاتب!".

في صيف ٢٠١٦م راسلته حول فكرة نشر نقوش حسمى في كتاب، وأخبرته بظروفي

الصعبة من قلة الوقت وضعف البضاعة في التحرير العربيّ، وقلّة الخبرة في عالم الكتب والطباعة، وحصل منه تشجيع عظيم ومساعدة كبيرة، خاصة في الصّفّ والتحرير والصياغة، كلُّ هذا رغم مشاغله الكثيرة، وقد شرح لي مرّة هذه المشاغل، فقال:

"وجزاكم الله خيرًا، فقد حمّلت الملفّ ونظرتُ فيه، وقرأت بعض صفحاته قراءةَ تدقيق، والأمر يحتاج إلى وقتٍ أرجو ألّا يطول، ولكنّ كثرة مشاغلي (رئاسة قسم اللغة العربيّة في جامعة دمشق وفيه فوق السبعين مدرّسًا وثلاثة عشر ألف طالب ولهم مشكلاتهم ومعاملاتهم التي لا يحقّ لي إهمالها، ورئاسة تحرير مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة، وهذه تحتاج إلى استقبال البحوث العلميّة وإرسالها إلى المحكّمين وقراءة آرائهم في البحوث وغيرَ ذلك من واجبات رئيس التحرير، وهموم الأبناء والعمل بعملٍ إضافيّ هو الاستشارة في شؤون الرسوم المتحرّكة لشركة الزهرة ومحطّة سبيس تون، والتدريس في الجامعة وفي معهد الفتح الإسلامي) تجعلني أقول إنَّ الأمر يحتاج إلى وقت؛ فأرجو الدّعاء بالبركة في الوقت عسى أن أنجز قراءة البحث في أقرب وقت وأقصره بإذن الله".

وبالفعل بعد جهد كبير، ودعم كبير من الأستاذ محمد السيف خرج كتاب (نقوش حسمى) خريف ٢٠١٧م.

وعلى ذكر محطة (سبيس تون)؛ فقد ذكر لي بعض المهتمين بشارات أفلامها أن محمد شفيق البيطار مشهور بجودة شاراته، وجمال كلماتها، وقوّة لغتها، وهو يرى أن مثل هذه الأناشيد تقوّي اللغة العربيّة لدى الأطفال، وبعض الشارات التي كتبها عجيبة في كلماتها، وكأنها تشير إلى حالة بلاد الشام، مثل هذه الشارة:

من لا يرضى يوما قانون الغاب

قلنا لا للعدوان

قلنا لا للطغيان

قلنا لا يا مظلوم

قلنا الظّلم لن يدوم

وامشِ لا تقبل بالهوان

لا أشكُّ أبدًا أن البيطار وهو يكتب هذه الأناشيد للأطفال كانت أوضاع بلده تتمثّل له، والحقيقة أن الكلمات شجاعة جدًّا، قوية اللغة والمعنى، وكأنه يرى مستقبلًا مشرقًا لهؤلاء الفتية ينهي العدوان، وهذا مثال آخر:

سأحمي بجسمي ولحمي وعظمي

ويعلو لواء النضال

بهاءٌ ضياءٌ طيورٌ ونور

وغيمٌ بديعُ الجمال

في وجه العادي والباغي نحن جبال

في وجه الطاغي نحن جبالٌ جبال

والعدوان مهما كان...

سوف يهان

مهما جارا، أشعل نارا، بثّ دمارا

نحن جبال

مهما حطّم، هدّم

سنزيل العدوان

ونشرت له عبير ظاظا هذه الكلمات ذلك العام:

(واثقٌ بأنّ الغد سيكونُ جميلًا؛ لأنّ وجهَ العالمِ لن يستطيعَ أن يكونَ أقبحَ):

يا غَدَنا

يا طفلنا الّذي طال انتظارُه سِنِينْ

وأُمُّنَا تُجَرَّعُ الآلامَ والأنينْ

أَقبِلْ نقبِّلْ وجهَكَ الجميلَ مثلَ الياسمينْ

بِعِطْرِهِ وقَطْرِهِ يَبُوحْ

غداةَ مزَّق الدُّجى وَأَصْبَحْ

أَقْبِلْ فإني واثقٌ بحُسْنِ وجهكَ الصَّبُوحْ

لأَنَّ وجْهَ العالمِ القبيحْ

لن يستطيعَ أن يكونَ أَقْبَحْ

عام ٢٠١٨م استمرت المراسلات على الخفيف، ومنها تعليقه على تحقيقنا لحومانة الدّرّاج:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا نحن -المتابعين- من وراء الحواسيب فقد أفدنا علمًا عزيزًا، واستمتعنا بتخيّل الرّحلة، فجزاكم الله خيرًا، وأمّا أنتم فقد تجشّمتم عناء (الرّحلة في طلب العلم) فأكرمكم الله بما وصلتم إليه من علم بذلتموه ليكون عامًّا لكلّ طالبِ علم؛ فجزاكم الله خيرًا مرَّةً بعدَ مَرَّة وجعله في صحائف أعمالكم خالصًا لوجهه الكريم.

ثمّة أمرٌ أرجو استدراكه، وهو أنّكم قلتم في أوائل التقرير:

" قول النابغة في معلقته

أمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدّرّاجِ فالْمُتَثَلَّمِ

وَدَارٌ لَهَا بالرَّقْمَتَينِ كأنّها ... مراجيعُ وشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ"

وبيّنتم بعد الأبيات أنّها لِزُهَيْرٍ من مُعَلَّقَتِه، وهو الصَّواب.

مع الزّمن تطورت ملكة القراءة لديَّ بالخبرة والممارسة، ودراسة مصاحف القرن الأوّل، فكنا أحيانًا نختلف في القراءة، ويتمسك كلٌّ منّا برأيه، ولم يغضبه هذا إطلاقًا، فكنت أكتب قراءتي، ثم أضيف قراءة د. البيطار، ونترك الحكم للقارئ، على أنّي أملك شيئًا مفيدًا لا يملكه، وهو أن الصّور عندي موجودة بكامل جودتها وبكل زواياها.

أرسلت له مرّة مجموعة نقوش لنتدارسها، وليعلّق على قراءتي فقال:

في شهر ٩ من عام ٢٠١٨م

أخي الدّكتور عبد الله، السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

وعدتُكم -وأنا عند وعدي إن شاء الله- بأن أقرأ نقوش الصُّوَر الّتي أرسلتموها إليّ، ولكنّ ظروفًا صعبةً أمرُّ بها حالت بيني وبين قراءة الجميع، وكنت بدأت بالقراءة ثمّ دهمتني أعمالٌ كثيرة وهمومٌ وكُرَبٌ أسأل الله أن يُفَرِّجَها، ولذلك سأرسِلُ إليكم ما قرأتُه، وعسى أن أُتابِع قريبًا بعَوْن الله.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكان الردُّ مني:

[وعليكم السلام أستاذي الكريم

لا داعي للاعتذار، فأنت صاحب الفضل، جزاك الله خيرًا، وكلّ ما يأتي منك فهو غنيمة وإن قل.

أسأل الله أن يفرج عنكم، ويسعدكم، ويفرج الهم لك ولمن تحب]

فقال:

"بارك الله فيكم، فقد جعلتموني بحُسْنِ ظنّكم أشعر بأنّني واحدٌ من أسرة الفريق، على البُعدِ بيننا، ولذلك أشعر بالتّقصير، وما باليد حيلة."

هل قرأتم هذه الكلمة: (من أسرة الفريق)؟ فهو بالفعل صار عضوًا في فريق الصحراء، وكلُّ الزّملاء يسألون عنه ما بين فترة وأخرى، ويهتمّون بآرائه وتعليقاته، حتى إنَّ الزَّميل أحمد الدّامغ يقول: البيطار عضو أساسيّ من أعضاء فريق الصحراء.

وبعض النقوش الصعبة كنّا نتراسل حولها ربّما عشرين مرّة أو أكثر، مثل نقش (بنت حب رسول الله)، ونقش (ابنة أمير المؤمنين) وهكذا.

كانت ظروف سوريا تؤثّر عليه رحمه الله، وأعرف أنَّ كربهم يشتدّ إذا انقطع عن المراسلة، لكنّي كنت أعلم أنه يستأنس بالنقوش، فكنت أرسل له بعض النقوش التي لم تنشر في الموقع، وهذه رسالة مني إليه في رمضان من ذلك العام:

[السلام عليكم ورحمة الله

أستاذي الكريم، تقبّل الله صيامكم وعملكم وآجركم على ما تعانون. أسأل الله أن يفرّج ضائقتكم ومن تحب. قمت بمسح ما جمعه فريقنا من نقوش حسمى مسحًا نهائيًا، فخرجت بحوالي ٤٠ نقش لم نتنبّه لها، أو صعبت عليَّ قراءتها، فلم ننشرها من قبل. ولما تمعنت بها وجدتها تستحقّ النشر وبعضها مهمّ.

لكنّي محتار في طريقة نشرها... وأميل الآن إلى أن أضع صفحة خاصة لها نسميها (الفوائت) أو (البقية)، لكن سننشر نقشًا أو نقشين كلما حانت الفرصة، وننبّه له في حسابنا على تويتر، وهذا ممّا يزيد تفاعل المهتمّين بدل نشرها مرّة واحدة].

فكتب إلي:

"أرجو أن تكون أخي الدّكتور عبد الله بألف خير، وأكرّر اعتذاري من تأخّري في قراءة النّقوش للأسباب التي ذكرتُها من قبل، وقد وجدت اليوم فسحة من الوقت ورغبةً في الرّاحة، فكانت راحتي في قراءة نقوش عدد من الصُّوَر" .

أرسلت له:

"وصلت، وصلك الله بكل خير

وأرجوك أن لا تخاطبني بكلمة دكتور، بل أحب أن تقول لي: أخي عبد الله"

فقال:

"الحمد لله أخي عبدَ الله، وهو كذلك، فإنّ الإخاء في الله خيرٌ من أيّ لقب."

ثم بعدها في العام التالي ٢٠١٩م (١٤٤٠هـ) قررت أن أنشر كتاب درب الحجّ الشاميّ، الذي عملت عليه مع زملائي منذ خمسة عشر عامًا بحثًا وسفرًا وتحقيقًا، ورغم أنَّ الكتاب ليس من ضمن اهتمامات محمد شفيق إلا أنّي كنت بحاجة إليه ليساعدني في المراجعة التحريرية واللغوية، فلم يقصّر رغم مشاغله، وكان الكتاب ضخمًا، فاقترح أن يستعين ببعض طلبة الدراسات العليا بقسم اللغة العربيّة، وناسبني هذا جدًا، فالموضوع يحتاج فقط إلى ترتيب ومراجعة من قبل متخصّص لغويّ.

وهذا نموذج لبعض رسائله حول الكتاب من ابريل ٢٠١٩م:

"-أقترح تأخير اعتماد عنوان الكتاب إلى ما بعد الانتهاء من تحريره.

-ضبط (العلا) وغيرها من الأعلام الجغرافيّة أنتم أعلم به، وأرجو أن تضبطوها جميعًا حينما أرسل إليكم بقيّة الأجزاء، فإنّ كتابًا جغرافيًّا لا ضبطَ لأعلامه يكون فيه عيبٌ كبير.

-أرى أن يُصنَع بأرجوزة بدر الدين الحلبي ما يُصنَع بغيرها، أي أن يوضع في كلّ مرحلةٍ بعضُها لا أن توضَع جميعًا في المقدّمة.

-الصّور قيّمة جميعًا، غير أنّ الكتابَ لا يحتملُها كما ذكرتم، ولذلك سأنتقي ما يكون مناسبًا ولا غنى عنه، إن شاء الله.

وأخيرًا، أرجو ألّا تنسوا الدّعاء لي بالبركة في الوقت، لأنّ الأعمال كثيرة.

والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

وقد رجوته ألا يكثر من ضبط الكلمات بالإشارات والحركات، ولكنه لا يتهاون في هذا الأمر، مع أنه أوقعني في مشكلة مع الناشر، استغرق هذا العمل والمراسلات أشهرًا كثيرة، وكانت ظروفه الحياتية تزداد سوءًا فيما ظهر لي: من رسالة شهر ١٠ عام ٢٠١٩م

"وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته

وصل الملف وسأراعي ما ورد في رسالتكم هذه حين أفرّغ له من وقتي ما أستطيع؛ ولا تنسوا الدعاء لنا بتفريج الهمّ والكرب وعافاكم الله".

وبعدها بشهر قال لي:

وبعدُ، فقد قصَّرْتُ تقصيرَ غير متعمّد، لكثرة ما أُلَزَّ به من أعمال لا أستطيع التملُّسَ منها، فضْلًا عن أعمالي الخاصّة؛ وقد يسّر لله لي وقتًا راجعت فيه الملفّ، ووضعت لما سمّيتموه (من قصص الحجّ) وما يشبهها خلفيّةً سماويّةَ اللّون، وجعلت خطَّها مائلًا بلون مختلف عن اللون الأسود، وراعيت أن يكون بالخطّ نفسه (ماي لوتس) لسببين: الأوّل أنّه من أجمل الخطوط، والثاني أن يبقى الخطّ منسجمًا مع خطّ الكتاب، وبقي موضع واحد في الصفحة (١٢٦) حبّذا لو تذكرون

فيه المصدر وقد لوّنته بالبنفسجيّ. وسأرسل نسختين (وورد) و(بي دي إف).

أرجو منكم أن تنتبهوا عند الإخراج النهائي على ألا يندمج ما كُتِبَ بالحرف اللاتينيّ بعضه ببعض إذا غُيِّر التنسيق ونوع الحرف.

كما أرجو أن ترسلوا إليّ ما راجعتموه لأستثمر أيّ وقتٍ يُتاح لي لمراجعته.

وفقكم الله إلى كلّ خير".

وهذا ردي:

[وعليكم السلام أستاذي الكريم

لم تقصّر أبدًا حفظك الله. لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

وصل الملف وهو في أجمل حُلّة بفضل الله ثم بفضلك.

سأرسل ثلاثة ملفات أخرى عن طريق برنامج (درب بوكس) إن شاء الله ولا نريد أن نشقَّ عليك.

أسال الله ان يديم صحتك ونشاطك ويفرّج عنك وعمن تحب.

عبد الله].

وقد فضفض لي عن قصّة سرقة أحد كتبه وما يواجهه من صعوبة النشر فقال:

"سبق لي أن حقّقتُ عام ١٩٩٣ ميلاديّ ديوان أبي بكرٍ الصّدّيق رضي الله عنه عن نسخةٍ في المكتبة الظّاهريّة بدمشق، ثمّ سرقه بعض تجّار التحقيق، ولهذا قصّةٌ لا أشغلُكم بها، فلمّا سرقه اللّصّ قرّرت إعادة التّحقيق مع جمع خطَبِ أبي بكرٍ ووصاياه وكُتُبِه (رسائله)، وتحقيقها، وقد انتهيت قبل مدّة من العمل وفهرسته، وعرضتُه للنّشر على بعضِ دور النّشر، واقترح بعضُهم فصل كلّ فنٍّ على حِدَةٍ، ففعلتُ وأعدتُ فهرسة كلّ فنٍّ على حدة، ثمّ نكص على عقبيه واعتذر من ترك النّشر لأسباب اقتصاديّة؛ وقد أرسلتُ الكتب الأربعة إلى أحد الإخوة المقيمين في

بعض لبلدان العربيّة لعرضِه على إحدى المؤسّسات ولم يردّ عليّ حتّى الآن؛ والسُّؤال: هل أجد دارًا للنّشر عندكم تنشر الكتب الأربعة إذا أخبرني بأنهم لم يوافقوا على النّشْر؟ وفّقكم الله."

ولما بيّنت له صعوبة النشر حتى عندنا، قال:

"والحمد لله، وأسأل الله أن ييسّر لكم نشره لدى إحدى الجهات؛ أمّا عملي فإنّني أنتظر ردّ الأخ الّذي حدّثتكم عنه، وعندما أجد الطّريق مسدودةً فسأنشر الكتب على الشّابكة مجّانًا، ولكن يقول المرء لنفسه: على الأقلّ يأخذ القشرة (ما يقابل الوقت والتّعب والطعام والشّراب الّذي أنفقه)، غير أنّ أصحاب دور النّشْر لا يُرضيهم إلّا (أن يأكلوا البيضة وقشرها معًا!)؛ والله المعين".

ومحمد شفيق البيطار رحمه الله رجل كريم وقنوع، فرغم كل الجهد الذي عمله في مراجعة كتابنا (درب الحج الشامي) لم يطلب أجرًا، ولما أصررت عليه، قال:

"وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته

وبعد:

قد كنت أعمل في تحرير مادّة الكتاب لوجْهِ الله تعالى غيرَ منتظرٍ أجرًا، ولا سيّما أنّك أخبرتني أنّكم قد لا تجدون دارًا لنشرِه؛ وأعلم من أريحيّتكم ما أعلمُ فيما سلف من أمرِ كتاب نقوش حِسمى؛ ورأيي أن تدعُوا أمرَ المكافأة إلى أن يُطبَع الكتاب".

ونُشِر الكتاب بحُلَّة زاهية من قبل دار المجلة العربيّة، بدعم من رئيسها الكريم الأستاذ محمد السيف، وأرسلت مجموعة نسخ للأستاذ البيطار.

واستمرت المراسلات خاصّة عندما ننشر نقوشًا جديدة، ولما نشرنا نقوش الأقرع ومن

ضمنها نقوش لبعض الشاميين استفدنا من ملاحظاته الجغرافية ومنها قوله: ***"وورد ذِكْرُ (البلاط) في بعض النّقوش، وهي قريةٌ قديمةٌ قريبةٌ من دمشقَ شرقيَّها في غوطتها الشّرقيّة، والطّريقُ إليها مقابلٌ للبابِ الشّرقيّ لدمشق، وهي قبلَ (الملَيحة)، نُسِبَ إليها بعض العلماء، وقد اتّصلت القريتانِ وصارتا بلدًا واحدًا كبيرًا هذه الأيّام وغلب اسمُ المليحة عليها، غير أنّ اسمَ (البلاط) لا يزال، وأذكرُ أنّني حين درستُ في المرحلة الإعداديّة وسنتين من الثّانويّة في المليحة كانَ جابي الحافلة يُنادي عند الوصول إلى موقفِ البلاط: (البلاط) أو (بلاط)؛ سقى الله تلكَ الأيّام صَوْبَ الغوادي!"***.

واستمرت هذه الصداقة الأثيرية بيننا بل تعمّقت، الغريب أني لم أرَ له صورة فوتوغرافية إطلاقًا، ولم أبحث، فكانت له صورة جميلة في مخيّلتي، واكتشفت لاحقًا بعد وفاته أنه أصغر عمرًا ممّا تخيَّلت.

في ذلك العام؛ تمّ انتخابه عضوًا عاملًا بمجمع اللغة العربية بدمشق، وأُقيم له حفل كبير، ومن مروءته أنّه في خطابه للقبول تكلّم عمّن سبقه من الأعضاء.

ولم تمنعه هذه الأعمال الإضافية من التّواصل معنا ومناقشة النّقوش، وكان في بعض الأحيان يعود إلى نقوش صعبة قديمة ويعيد النظر فيها، من ذلك هذه الرسالة:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لم يعد لديّ شكّ في أن ما جاء في الصورة ٣٥ فيه بيت من الشّعر هو:

أستحفِظُ الله في أهلي وفي سفري ... وفي المجـ[ـا]ـسرِ فيهـ[ـا] الـ[ـلّـ]ـهوُ واللّمَمُ

وهو شبيهٌ بقول عُمر بن أبي ربيعة:

وأنْتِ هَمِّيَ فِي أهْلِي، وفِي سَفَرِي . . وفِي الجُلُوسِ، وفِي الرُّكبَانِ إنْ رَكِبُوا

وأرجو أن يكون في هذا ما يُفيد".

ومنها هذه الرسالة:

"بارك الله فيكم،

كنت قبل ساعات وقفتُ على (تُحَفَةٍ) وأنا أراجع هذه النّقوش البديعة المهمّة، وكتبتُ شيئًا، وأردتُ إرسالَه فانقطعت الكهرباء ومعها الشّابكة، نسأل الله الفَرَج، وهذه هي التُّحْفَة...."

ومنها قوله:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا أستطيع أن أخفي سروري كلّما استطعت قراءة كلمة غامضة في نقشٍ من النّقوش، وكنت اليوم أراجع نقش أم سلمة بنت هشام، فلفت نظري في أسفل النّقش بين الكلمات التي لم نستطع قراءتها آخر كلمة وهي اسم جدّ أبيها (مرون)...."

وكنت مثله كلما عنّ لي فكرة أو فتحٌ في القراءة أرسلت له، فنحن عاشقان لا يشبعان من هذه النقوش العربية المبكرة، نستقطع من أوقاتنا لها كمية من الزمن نراها أحلى الأوقات.

ومن مميّزات الرّاحل رحمه الله أنه يحبُّ إتقان العمل إلى درجة البحث عن الكمال، وكان هذا يحرجني، فإذا أرسلت له مقالًا أريده أن يعلّق عليه، لا يرتاح حتى يقوّمه من ناحية اللغة والنصّ والحركات، وأنا بطبعي ضعيف في هذه الناحية.

مرة أرسلت له:

[أستاذي الكريم السلام عليكم ورحمة الله

عفا الله عنك لقد أجهدت نفسك! ولم يكن قصدي ذلك، فقط كنت أريد أن أتأكد أني لم أسهُ عن شيء مهم. أبقاك الله ذخرًا لنا وزادك من كل خير.

عبد الله]

فرد عليَّ:

"بارك الله فيكم، أحبّ أن أتقن العمل قدر استطاعتي، لِما أمرنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله (إنّ الله يحبّ إذا عمل أحدُكم عمَلًا أن يُتْقِنَه).

وبارك الله لكم ولنا في أيّامِ رمضان وبلّغكم غايته رحمةً ومغفرةً وعتقًا من النّار".

في شهر ٩ من ٢٠٢٠م باح لي المرحوم بشيء من ظروفه لم أكن أعلم عنها، منها أن بيته في المعضمية تدمَّرَ من الحرب وأنه **"اضطررتُ إلى الإقامة مع أبنائي مع بعض إخوتي في منزل الأهل في دمشق" وأنه كلّما ادّخرت مبلغًا جاء ما هو أهمّ فأنفقه (إجراء جراحتَيْنِ ضروريّتين لابنتي، وجراحة أخرى لابني، وتصليح خلل السّيّارة بين وقتٍ وآخر، ومساعدة صديق أُصيب بسرطانِ الرّئة مؤخَّرًا، وغير ذلك، فضلًا عن ارتفاع أسعار كلّ شيء إلّا الإنسان".**

لكنه في نفس الوقت يتفاءل بكل جميل فقال:

"وأبشّركم بأنّي على رغم هذه الظّروف قد أنجزت صَنعة (ديوان أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله) وصدر بصيغة pdf عن موقع (مجمع العربيّة السّعيدة)، ولم يصدر ورقيًّا بعدُ، وقد أتاحه الدّكتور مقبل التّامّ الأحمديّ صاحب الموقع وصاحب حقوق النّشر للتّحميل مجّانًا على موقع المجمع"

ثم جاء (زمن كورونا) وقلّت رحلاتنا، ولما عاودنا النشاط ونشرنا رحلة جبل العاه، علّق الأستاذ شفيق البيطار وكأنه معاتب أننا لم نُشِر إلى كتابه (شعراء كلب)، وهو خطأ استدركته لاحقًا:

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وحيّا الله عبد الله السّعيد وأسعدَه؛ وأذكّر هنا بأنّني ترجمت لِحُمَيْد بن حُرَيت بن بحدل وعدد من أفراد أسرته، وأوردت أخبارَهم وأشعارَهم في كتابي (ديوان بني كلب بن وبرة) وهو في مجلّدَين، مبذولٌ مُتاحٌ على مواقع عدّة في الشّابكة؛ وقد جاء حديثي مُجْمَلًا عن حروب قيس

وكلبٍ في قسم الدّراسة (الصّفحات: ٩١- ٩٥)، وجاءت ترجمتي لحُمَيْدٍ وشعره في قسم الدّيوان (٦٤٩- ٦٥٥).

وأرجو أن تكون في مراجعته فائدة.

فانتبهت لهذا العتب فورًا:

[أستاذي الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو أن تكون بخير ومن تحبّ وأن يحفظكم الله ويفرّج لكم.

شكرًا على التعليق على موضوع يوم العاه، ولا أدري كيف فاتني الرجوع إلى كتابكم، بالتأكيد سأستعين به ان شاء الله].

فكتب لي مرة أخرى:

"وصبّحكم الله بالخيرات

لا بأسَ عليكم فيما يخصّ حديثكم عن يوم العاه، وقد أفدتُ من قراءته معرفة المواضع الّتي وقعت فيها الفتنة المحزنة، والأشعار الّتي قالها فيها الشّعراء؛ فجزاكم الله خيرًا".

ومن محبته للنقوش أنه نشر بعضًا منها في أول عدد لمجلة المخطوط العربي، وكتب إليّ:

"وثمّة أمرٌ ثالث، وهو أنّني كتبت بحثًا بعنوان (نقوش النّبلاء وأبنائهم ومواليهم) نُشِر في العدد الأوّل من مجلّة (المخطوط العربيّ) الّتي أنشِئَت حديثًا في وزارة الثّقافة في دمشق -فرّج الله عن أهلها وأراحَهم ممّا هم فيه- وأخبرني رئيس التّحرير أنّهم يتريّثون في وضع العدد على موقع المجلّة إلى أن يُباع ما نُشِرَ على الورق، وقد اعتمدتُ في مقالي على بعض النّقوش المنشورة في موقعكم ووثّقتها منه وذكرتُكم، واعتمدتُ على بعض ما أرسله إليّ أخٌ اسمُه (عيد ساعد الدّبور) وفّقكم الله ونفع بكم".

قبل سنة بالضبط تقريبًا في شهر ١٢ من سنة ٢٠٢٣م أرسلت له هذه الرسالة لأستشيره في أمر مهمّ:

[تراودني فكرة أن أجمع كل النقوش التي لم تنشَر من قبل، وأجمعها في كتاب لأني أظنّه أصبح واجبًا عليّ، وأخاف أن يحصل شيء لي أو لموقعنا فيذهب هذا الكنز، وأقدر عددها بحوالي أربعمئة نقش، وقد وضعناها في الموقع سنوات عديدة وأتحنا التعليق والتصحيح للكلّ، فلم يتجاوب للأسف إلا القلّة، وكانت تصحيحاتك وتعليقاتك من أهم ما نشرناه. وأظنّ أنه بعد نشرها سيستفيد منها غيرنا، وربما يتوصلون إلى قراءات أصح من قراءتنا، ولا ضير في هذا، بل هو مما يسعدنا لخدمة تراثنا الإسلامي.

عبد الله].

كنت مهتمًّا برأي محمد شفيق البيطار لأنه أعرف الناس بما نشرناه وبقيمته العلمية، فكان ردّه مشجعًا جدًا:

"حيّاكم الله، وليتكم تفعلون، فإن فائدة ذلك تعمّ اختصاصات عدة، منها معرفة الرجال وتصحيح التصحيف والتحريف في أسماء بعضهم، ومنها تتبّع تطور الخط العربي، ومنها أنها تكون مادة لمن يترجمون للعلماء، ولو أنها كانت بين يدي الزركلي رحمه الله لجعلها في تراجمه في كتاب الأعلام، ولأمدّته بأسماء جديدة، فإنه وضع في كتابه خطوط عدد من العلماء، وغير ذلك من وجوه الفوائد، فضلًا عن الأجر في نشر العلم. وجزاكم الله خيرًا".

من هنا بدأت مراسلات مكثفة طوال هذا العام ٢٠٢٤م-١٤٤٦هـ فكنت أرسل له الكتاب فصلًا فصلًا، ولكن هذه المرة اشترطت عليه ألا يتعمّق في التحرير ووضع العلامات والحركات؛ لأنّ في هذا جهدًا عليه، وليس من مطالبي، فالكتاب موجّه للقارئ غير المختص، ولكن طلبت منه أن يرشدني للأخطاء الواضحة فقط، أو التعليقات التي لا يُرى

لها وجاهة، وقد حصل هذا، وأرسل لي تعليقاته على كل فصل، وكنت آخذ ببعضها وأتصرف في البعض، إلى أن وصلنا إلى آخر فصل.

لقد كشفت لي تعليقاته على بعض الأعلام من التابعين عن حبٍ شديد يحمله المرحوم لجيل الصحابة والتابعين أهل القرن الأول أيام الحكم الأمويّ الذي ظلمه المؤرخون والباحثون، فهو جيل علم وتعلم وجهاد وفتوح وأمن مستتب، كنت أتّفق معه وأقول: هذا هو الجيل الذهبي، هذا هو عصر عزّ الإسلام، ونقوشنا هذه كنز لا يقدّر بثمن، نقوشٌ تنقل لنا حقيقة غير ما يريد البعض طرحه، فكانت الركبان لا تنقطع بين الشام ومصر والحجاز إخوة متحابين متآلفين، أنصارًا ومهاجرين، آلاف النقوش تدلّ على عصرٍ مجيدٍ، ليس كله فتنًا وحروبًا كما يعتقد البعض، وهذا يتطابق مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني ثمّ الذين يلونهم".

كان كلانا مستمتعًا جدًّا بهذه المراسلات حين ندرس النقوش وقتًا نهرب فيه من أعمالنا الرسمية وأشغالنا العائلية، لنعيش في عالم مختلف، وكأنّ آلة الزمن تنقلنا إلى جيل التابعين، وفي ذلك يقول البيطار:

" بارك الله فيكم وفي وقتكم وعمركم وعملكم؛ هي متعةٌ لو عرفها ذوو الجاه لَانتزعوها منّا؛ نسأل الله العافية".

هل عرفتم الآن سر هوانا المشترك؟ واستمر التحرير وتبادل الفصول، وفي أكتوبر ٢٠٢٤م وقفت على نصٍّ محرَّف في كتاب فتوح الشام للأزديّ البصريّ فسألته عنه، ومن ضمن كلام البيطار هذه الطّرفة:

" أمّا (جبل السّمّاق) ففي بلاد الشّام في مدينة إدلب، وينبت فيه شجر السُّمّاق الّذي يُتّخَذ تابلًا مع التّوابل لحموضته الشّديدة (امتلأ فمي رِيقًا على سيرته، فقد كنت في صِغري آخذ عناقيده

من أشجاره في مزرعةٍ لنا أو من مزارع أقاربي وآكلُها وهي تكاد تكون أشدّ حموضة من الليمون، ولا أزال إلى اليوم كذلك حين تسنح لي الفرصة)" .

وأرسل لي نسخة إلكترونية مصحّحة من الكتاب، فشكرته فكان هذا ردّه:

"حياكم الله وبارك فيكم، ونسأل الله حسن الختام"

في ٤ نوفمبر أرسل لي الملف الأخير من الكتاب، وقال:

"هذا الجزء الرابع، وشعرت بأنّني تأخّرت فيه، ولذلك لم أنسّق ما جاء فيه من أبيات الشّعر، وهي ملوّنة بلون البنفسج؛ فإن كنتم تحبّون أن أنسّقها كما فعلت ببقيّة الأجزاء فحبًّا وكرامة، وأرجو إخباري بوصول الملفّين وبذلك" .

هذه أول مرة يرسل لي المرحوم شيئًا لم يكتمل، وأنا أواجه صعوبة شديدة في تنسيق الشعر، فإذا حرّكت كلمة انقلب التنسيق رأسًا على عقب، لكن توقعت أنّه مشغول فلم أطلب منه أن ينسّقها.

كنّا قد مسحنا المناطق بين العلا وتبوك عدّة مرات مؤخرًا، وصرنا مطمئنين إلى أنه لم يفتنا كثيرٌ من النقوش، لكن بقيت منطقة حِسْمى تحتاج إلى زيارة إضافية من المؤكد أننا سنجمع منها نقوشًا يجب إلحاقها بالكتاب، فأرسلت لمحمد شفيق هذا البريد:

"٢- سنقوم بعد أسبوعين إن شاء الله برحلة إضافية لحسمى نتحسّس الأماكن التي قد تكون فاتتنا قبل أن نقدَّم الكتاب للطبع.

٣- برأيك حفظك الله كيف سيكون حجم الكتاب؟ وما حجم الخط المناسب قبل أن أعرضه على الناشر؟ وما نصيحتك بالنسبة لأبعاد ونوع الورق في الكتاب؟".

٧ نوفمبر ٢٠٢٤م ردَّ علي ردًّا مفصّلًا بخصوص رأيه في طباعة الكتاب، ثم أردف برسالة

ثانية قال فيها:

" وإذا كان لديكم رقم يعمل عليه الواتس أب فأرجو إرساله إليّ ليكون التّواصل بيننا أسهل" .

في ٩ نوفمبر أرسلت رقمي، وقلت ممازحًا إني أفضّل المراسلة على البريد أكثر من الواتس، وأنا صادق في هذا.

كانت رحلتنا إلى حسمى ستبدأ في ٢٣ نوفمبر، وستدوم حوالي الأسبوع، فانشغلت بالإعدادات، واستغربت قبل الرحلة أنه لم يرد عليّ، لكن قدّرت أنه يعلم أننا راحلون إلى البرية، ولا يريد إزعاجنا.

انطلقت أنا وأحمد صباح يوم السبت ٢٣ نوفمبر إلى تبوك، ومن عادتنا أننا نهمل كل وسائل التواصل ونستمتع بالرحلة.

حسب موقع ويكيبيديا في نفس ذلك اليوم حصل مرض صديقنا محمد شفيق البيطار:
"في صباح يوم السبت ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٤، وبينما كان يتهيّأ للذهاب إلى عمله في الجامعة فقدَ وعيَه ووقع أرضًا، فجأةً دون عوارضَ مرَضية سابقة، ونُقل إلى مستشفى المواساة بدمشق، وتبيَّن إصابته بنَزْف دماغي، وأُدخل وحدة العناية المشدَّدة".

عدت إلى الرياض في ٢٩ نوفمبر بحمد الله، بعد رحلة موفّقة جدًّا من حيث الجوّ والنقوش المكتشفة، ولم يكن لدينا علمٌ بما حصل لصاحبنا الغالي.
"وفي صباح يوم الجمعة ٢٩ نوفمبر ٢٠٢٤ أُجريت له جِراحة دقيقة (عملية أم الدم الدِّماغية) في مشفى دار الشفاء، ولم يلبث أن دخل في غيبوبة في إثرها متعرِّضًا لموت دماغي، مع بقاء القلب ينبض، وفي يوم الأحد أول ديسمبر ٢٠٢٤، أُدخل غرفة الإنعاش في مستشفى المواساة مرَّة أُخرى.

وبقي في غيبوبته حتى توفي يوم الثلاثاء ٢ جُمادى الآخرة ١٤٤٦هـ الموافق ٣ ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٢٤م، في مستشفى المواساة بدمشق. وفي اليوم التالي الأربعاء ٤ ديسمبر ٢٠٢٤ نُقل جثمانه إلى مسقط رأسه بلدة رأس المعرَّة، وصُلِّي عليه في جامع البلدة، ودُفن في مقبرتها".

كل هذا حصل ونحن لا نعلم أيَّ شيء عنه. بعد العودة لم أتلقَّ أيّ ردّ، فأصابني شيءٌ من القلق، لكن عزوت الأمر إلى ما حصل في سوريا، من هرب الطّاغية وفتح دمشق، فلعلَّ النت كان مقطوعًا... ثمّ قدّر الله، وتعب كل أعضاء الفريق بعد الرجوع من تبوك، فأحدنا أصيب بعارض مرضيّ أدخله المستشفى عدة أيام، وأنا أصبت بإنفلونزا قوية لم أصب بمثلها من قبل، مع حرارة وتعب، وكذلك ثالثنا، وكأن أجسامنا تخزن على شيء لم تعرفه نفوسنا بعد...

لما تعافيت قليلًا بعد أسبوع، أرسلت بريدًا آخر أهنّئه بالفتح، وأسأل عن أحواله

"السلام عليكم ورحمة الله

أستاذي الفاضل أرجو من الله أن تكون بصحة وعافية، وأرجو أن تطمئننا على صحّتك.

ونبارك لكم زوال المجرمين، جعله الله بداية خير وتوفيق لك ولمن تحب".

ثمّ راجعت حساب تويتر، وتصفّحت كل الأيام الماضية، لأجد تغريدة موجّهة لنا من شخص مجهول، هي قصيرةٌ جدًا، لكنّها أصابتني بطعنةٍ وجدانيةٍ ووجع نفسي أليم:

قلت ربما خطأ، فآل بيطار كثيرون، لكن دخلت موقع مجمع اللغة، لأجد التفاصيل المحزنة... ليتني علمت بمرضه مبكرا ليخف وقع الموت علي... وجدتني تلك الليلة لا

أدري ما أفعل، فلا أستطيع زيارة قبره، ولا أن أقابل أهله..

لا أدري ماذا أفعل لأطلق هذا الحزن الكامن في صدري ...

يا ليت البريد الإلكتروني يصل إلى المتوفى....

فقلت لا بد أن أكتب.. لست بشاعر ولا أديب لكن سأكتب أي شيء

سأكتب ... سأراجع كل رسائلنا المتبادلة عبر السنين وأسرد هذه القصة....

رحمك الله يا محمد شفيق وغفر لك..

من سيشاركني حبَّ حسمى بعد اليوم يا بيطار؟!

من سيناقش معي النقوش بشغف ومحبّة بعدك يا بيطار؟!

من سيقوّم أخطائي؟!

من سيشجعني على النشر؟!

كنت لما سمعت بهروب طاغية الشام أخطّط لما سأفعل إذا قدم صديقي البيطار إلى السعودية..

سأدعوه إلى بيتي... سنسهر على شاشة الحاسوب، نراجع النقوش ونشرب الشاي بالزنجبيل..

سآخذه في رحلة إلى العلا أو تبوك أو محبوبتنا حسمى... ربما لا يتحمل المبيت في البر؟ سنستأجر فندقًا فاخرًا ونذهب منه وإليه!

كانت علاقتنا عجيبة... خمسة عشر عامًا من الصّداقة بلا صوت ولا صورة! فلم أسمع صوته قط! خمسة عشـــر عامًا دون أن أرى صورته! فلم أبحث عنها قط.. كنت أتخيله في رأسي -وأنا أراسله- أكبرَ من عمره الحقيقيّ، ثم اكتشفت بعد وفاته أنه يكبرني ببضع سنين فقط!

رحمك الله يا محمد شفيق بن خالد البيطار..

متَّ قبل أيام فقط من تحرير بلدك ورفع الظلم عنكم!!

كنتَ تطلب منّا الدعاء لكم إذا اعتمرنا، وقد حقق الله أملك..

رحمك الله يا أخي..

رحمك الله يا صديقي..

اللّهم إنّي أحبّه فيك..

اللّهم اجعلنا صديقين متحابّين في جناتك

وأذكر هنا نقشًا قرأته أنا والبيطار، وأظنّ أنه يمثّلنا، وهذا نصّه:

"غفر (الله) لحارث وبكار ذنوبهما ويسل الله لهما صداقته في الجنة".

قالوا فيه:

(١) أساتذته

د. مازن المبارك

الدكتور شفيق البيطار في ذمّة الله، رحمة الله عليه، فقد عرفته منذ سنين عديدة، وعرفت فيه خلقًا قلّ نظيره؛ فهو هادئٌ دمثٌ، يُحبّ الأناة والهدوء، حلو المعشر، خافت الصّوت، وهو كفؤٌ في العربيّة ومصادرها، حاضر الحجّة، سريع البديهة، لقد فقدناه أستاذًا جامعيًا محبوبًا، وخسرناه زميلًا مَجمعيًّا ينجدنا بالحجّة والبرهان، وذكر المصادر بالاسم والعنوان!

لقد غاب عنّا أخٌ صادق الودّ، تميّز بالوفاء والألفة وسعة المعرفة.

رحمه الله وغفر له كفاء ما قدّم للعربيّة وأهلها وأجيالها من جهود في التّدريس والتّأليف والتّحقيق.

ونسأل الله أن يعوّضه خيرًا ممّا ترك، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وقال في حفل تأبين الأستاذ الدّكتور محمد شفيق البيطار في مجمع اللغة العربية بدمشق يوم الأربعاء ٢٠٢٥/١/٢٢م:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

أيّها السّادة الحضور، اسمحوا لي أن أتحدَّث إليكم عن الدكتور شفيق البيطار، وقد عرفته في جامعة دمشق طالبًا لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا ويسألني عنها، ثمّ لا يكتفي بذلك، بل يلاحقني في البيت شهريًا بزيارةٍ ليسألني ما لم يتّسع به الوقت في الجامعة، وكنت أسرُّ بزيارته لأنَّني كنتُ أفيد منه دون أن يشعر أكثر ممَّا يفيد منّي، فلقد كان مكتبةً سيَّارةً بأسماء الكتب وعناوينها، فكنتُ أسأله عمّا صدر منها، وأوفِّر على نفسي التَّطواف في الأسواق لمعرفة أخبار

الكتب، رحمه الله وغفر له وأحسن إليه، فأنا لن أرثيه وقد كنت أوثر أن يقول رثائي.. لقد ذكَّرتني وفاته بقول رسولنا عليه الصلاة والسَّلام: (سيأتي زمانٌ على أمَّتي يمرُّ الرَّجل فيه بقبر صاحبه فيقول ليتني كنت مكانك)، لست أدري أيقولها أحدنا لفساد العصر الذي يعيش فيه، أو يقولها لفساد أهل العصر الذي يعيش فيه، أو إيثارًا لحياة صديقه، لقد كنت أتمنّى له طول العمر وامتداد الحياة وتحقيق الآمال.

رحمه الله، قد عرفته منذ أكثر من نصف قرن وعرفت فيه خلقًا قلَّ نظيره، هادئٌ دمثٌ، يحبُّ الأناة في كلّ شيءٍ، يحبُّ الهدوء، حلو المعشر، خافت الصوت، ولكنّه كان كنزًا في العربيّة وعلومها ومصادرها، كان حاضر الحجّة، سريع البديهة، فقدناه اليوم أستاذًا جامعيًّا محبوبًا، وخسرناه زميلًا مجمعيًّا يسعفنا بالحجّة والبرهان، ويذكّرنا بالمصادر بالاسم والعنوان، لقد غاب بفقد الأخ الدكتور شفيق أخٌ صادق الودّ، تميَّزَ بالألفة والعطاء وسعة المعرفة وكثرة الاطلاع، لست أنسى زيارته لي وتردّده عليّ وهو طالبٌ في الجامعة، كان يزورني ومعه في كلّ مرّة زميلٌ يتّكئ عليه، ويتعلّل أنّ لزميله أسئلة في اللّغة، ثمّ أكتشف الحقيقة، وأستغلّ حضوره فأفيد منه دون أن يشعر أكثر ممّا أفادني وأكثر ممّا أفدته بأسئلته العلميّة، وذلك أنّه كان كَلِفًا بأخبار المكتبات وفهارسها وآخر ما صدر عنها، كان رحمه الله خزانة من الفهارس السّيّارة، يعطيك ما تريد بديهةً كلّ ما تحبُّ أن تعرفه عن الكتب العربيّة وطبعاتها والمكتبة التي أصدرتها، كنت أسمّيه ابن النديم، وابن النديم كما تعرفون عاش في منتصف القرن الرابع عشر، وكان سندًا لكلِّ ما صدر في الأمة العربيّة من كتبٍ وموضوعات، فكنت أفيد من الدكتور شفيق عليه رحمة الله هذه المعلومات وكنت أسمّيه ابن النّديم، فإذا كانت كتب ابن النديم تعرّفنا بالدرجة التي وصل إليها العرب والمسلمون من التّقدّم والحضارة فيما جاء عنده من أسماء للكتب وعرض للموضوعات، فقد كان الدكتور شفيق يحدّثنا عما ضمّت تلك الكتب، وعن قيمة ما جاء فيها، لقد كان على علمٍ واسعٍ واطّلاع كثيرٍ ومعرفةٍ بالمكتبة العربية

قديمها وحديثها، وكان على درجةٍ عاليةٍ من الأخلاق الكريمة، لم أسمع منه كلمة أساء فيها إلى أحدٍ في حياته، بل كان إذا ذَكَر الكتب يتجنّب ذكرَ الأسماء والأشخاص من مؤلّفين ومن محقّقين، كان يذكر الكتب أمامي ويحكم عليها بعيدًا عن أسماء أصحابها ومحققيها، وتلك عفَّةٌ نادرةٌ، كنت أسأله في كلِّ زيارةٍ من زياراته عمَّا صدر من الكتب، وعن قيمة الطّبعة التي صَدَرت، فكان عفيف اللّسان، لا يحبُّ أن يتورَّطَ بالحكم على الأشخاص، فكان يعطيني اسم الكتاب وعنوانه، ثمَّ يقول: أعتقد أنّك لست بحاجةٍ إليه، فأفهم منه الإشارة، وأحيانًا يقول: الكتاب الفلانيّ أرجو أن تطّلع عليه، وأحيانًا يأتيني بالكتاب الذي يرى أنّني أحتاج إليه دون أن أسأله عنه!

رحمة الله عليه، كان ذا عفَّةٍ نادرةٍ، والعفّة عنده شاملةٌ للّسان والليد، فقد عرفت أنّه عُرِضت عليه أعمالٌ كان أمثالنا يتهافتون عليها لما تدرُّ من مال، فكان حين يزورني – ولم يكن يقطعني أبدًا مدَّة خمسين سنة –كنتُ أسأله: لم أعرضت عن العمل الفلانيّ أو الهيئة الفلانيّة أو العرض الفلاني، وهو مغرٍ؟! فكان ينظر إليَّ بابتسامةٍ رقيقةٍ، وكأنّي أحدّثه من قرنٍ آخر أو عن عصرٍ آخر، فيقول لي: أنا مكفيٌّ بنفسي، عُرِضت عليه بعض الأعمال، فعاتبته لاعتذاره فقال: أنا ما اعتذرتُ لأتخلَّى عن العمل بل اعتذرت لأنّ الذين يعملون في هذه الهيئة لا يصلح لهم مثلي، ففهمت ما يريد.

رحمة الله عليه، كان يكره التّفاخر وحبّ الظهور، لم يقل يومًا إنّه شاعر، مع أنّه كان ينظم الشّعر الجميل، ويرثي ويمدح وينظم شعرًا كثيرًا للأطفال تعرفه كلّ البلاد العربية إلا نحن في دمشق! كان الدكتور شفيق كالنَّحلة، يصنع العسل ويؤثر العيش في شرنقته التي صنعها لنفسه، ويصدّره إلى البعيد، فيرتوي به إخواننا في بعض البلاد العربيّة، ونحن إلى جانبه لا نعلم أنّه ينظم مئات الأشعار للأطفال، تنتشر في كلّ البلاد العربيّة!

كنت في شارع من شوارع تونس، مع أستاذ لغة عربية تونسيّ، فذكر أبياتًا، وقال: لا شكَّ

أنَّك تعرفها، وأنا لم أسمع بها، فقلت له: من أين أعرفها؟ لعلّها لشاعرٍ تونسيّ، فتبسَّم وقال: ألا تعرف صاحبها؟! إنّه الدكتور شفيق، ثمّ حدّثني عن أشعارٍ كثيرةٍ كانت تُرسَل إليه من شرنقة أخي الدكتور شفيق رحمه الله، ونحن إلى جانبه لا نعلم أنّه يصدِّر العسل من شرنقته وبكثرةٍ، يعرفونها ويحفظونها ونحن ساهون، وهو إلى جانبك ولا يحدثك عن نفسه رحمه الله عليه.

هؤلاء الرّجال الكبار الذين تنبئك أحوالهم ولا يتحدّثون بأقوالهم، لقد كان يُعرَف بكلِّ ما قدّم للعربيّة وأهلها وأجيالها من جهود في التَّدريس والتَّأليف والتّحقيق، ونسأل الله أن يحسن إليه برحمته، وأن يعوّضه خيرًا ممَّا ترك في جنّته، وأرجو من الأخ رئيس المجمع أن يكلّف اللّجنة الثقافيّة في دمشق بالمجمع بوضع كتاب يحيي ذكراه، فقد كان الشّيخ طاهر الجزائريّ – رحمه الله – يوصي دائمًا ألَّا نترك علماءنا تضيع أسماؤهم، وأن يكون لكلٍّ منهم كتابٌ يذكر ما يعتقده من قيمٍ أخلاقيَّة نفسية واجتماعيّة، وأن يصوّره ليكون قدوةً للأجيال القادمة، رحمة الله على الدكتور شفيق، وأسأل الله أن يجعله من أهل جنته، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

سحائب أمطرت، وروت، ثمّ غابت

د. محمّد رضوان الدّاية

عرفت الدكتور محمد شفيق البيطار، مع بدايات دخوله قسم اللغة العربية في جامعة دمشق طالبًا دارسًا، ولم يكن – لسكونه، وطبيعته الهادئة الخجولة – ممَّن يلفت النّظر، وكان حضور الطّلبة في محاضراتي كبيرًا، ثمّ ينتبه المحاضر إلى بعض الحاضرين بعد سؤال ذكيّ أو مداخلةٍ تنمّ عن فهم واستيعاب... ولفت نظري بعض هذه الملاحظات... وسرعان ما كان من الطّلبة الذين يزورون مكتبتي، ويتابعون معي قضايا في الأدب والنّقد والعروض والقافية، وفي تحقيق المخطوطات وغير ذلك ممّا يريدون الإفادة منه والاستزادة.

وكان الدكتور علي أبو زيد هو الذي شجّع الطّالب محمد شفيق البيطار على ارتياد مكتبتي ومجلسي فيها، وكان شريكه في هذه المتابعة زميله الصديق مثله، الدكتور إسماعيل مروة (الأستاذ الجامعي والإعلامي)، وامتدّت هذه العلاقة العلميّة منذ تلك المدة المبكّرة ولم تنقطع.

يجمع الدكتور شفيق صفات الأستاذ الجامعيّ، على أحسن ما ينبغي أن يكون عليه، فإنّ مهمّته لا تقتصر على التّدريس وتصحيح الكراريس، فهو – وكما يليق بالأستاذ الجامعي –:

- مدرّس ناجح: يُحسن إلقاء محاضراته، ويتابعه طلابه ويفهمون عنه ويقتبسون.
- وهو محاضر بارع.
- ومؤلّف: في مؤلفاته ملامح شخصيّته.
- وصاحب خبرة: يقدّمها إلى الجهات التي تطلبها منه بمعرفة واقتدار.
- وهو يؤدّي واجبه في جانب المجتمع من خلال تخصُّصه وثقافته العامّة المتعدّدة الجوانب.
- وهو ناقد: نافذ الرّأي متقن لفنّ الحوار.

• ومشاركٌ في الإعلام (ولنقل الإعلام الأدبّي واللغويّ خاصّة).

• ودخل مجمع اللّغة العربيّة، وكان من المقتدرين الذين دخلوه (ولم يكن مجرّد رقم من الأرقام)، ولكن لم تطل مدّة عمله في المجمع.

والمجمع في حاله هذه في حاجة إلى مثل الدكتور محمد شفيق البيطار، فاللّغة العربيّة وكلّ ما يتصل بها اليوم في حاجة ماسّة إلى إحياء أثر المجمع، يقولون دوره في الحياة العامّة، وفي جوانب الفكر والثّقافة والعلم.

• الحوار والقدرة على الحوار الهادئ، وإن كانت القضيّة خافية أو مشكلة، وقد كان قادرًا على بسط مساحات الحوار مع محاوره من دون عصبيّة ولا حدّة، وإذا كان المحاور كذلك كان أقدر على الإقناع أو التفوّق على محاوره من أن يسلّم بما يرى.

• الودّ، لم يكن يعرف إزعاج الآخرين، وإن كان فيهم المتعنّت والمخالف لمجرّد المخالفة، والودّ عنده للأهل والأصحاب والأحبّة من جهة، وهو أيضًا معروض لمخالفيه في الرّأي أو الموقف، وصحّت فيه العبارة التي نقولها ولا نعمل بها: الاختلاف في الرّأي لا يفسد للودّ قضيّة.

• تداخلت عناصر الدكتور شفيق البيطار تداخلًا "إيجابيًّا" فقد جمع خدمة التّراث والأدب القديم كما يلقّبونه وبين المعاصرة والحداثة، والوصل بين هذين العنصرين باعتدالٍ وائتلافٍ صفة من صفات الأستاذ الجامعيّ الباحث المؤلف والمحاور، وقد استفاد من قراءاته الكثير، ومن جلوسه إلى العلماء والأساتذة ذوي الشّأن في الفكر والثّقافة والأدب وشؤون الحياة، وانظر في ثبت مؤلفاته وتحريراته من المقالات والبحوث والمحاورات والتعقيبات والتعليقات تجد هذه المساحة الواسعة الجامعة بين القديم والحديث.

• ومن مزايا الدكتور البيطار التي يقلّ المتميّزون بها، إتقانه علمَي العروض والقافية وقد قلّ العارفون بهذين العلمين إلى درجة تقترب من القحط، ولم يكتفِ بهذه المعرفة العظيمة في ما يُسمّى أحيانًا موسيقى الشعر، بل طبّق معلوماته في العلمين على نصوص مشهورة معروفة

في التراث، وكان له بهذا مشاركة قلّ نظيرها، ومعلوم أنَّ ظهور ما سمّي بشعر التفعيلة، ومن بعد ذلك قصيدة النثر قد أسهم في صرف جمهرة من الأجيال عن العروض والقافية مغترّين بما سمّوه حداثة وتجديدًا (ولم يكونا من قبل بارزين أصلًا، وأستثني قلّةً مبدعة ارتادتها من باب التفكّر ثمّ انقضى الأمر) وشملت معرفته بالعروض والقافية وفنون النّظم الأخرى التي ظهرت في المشرق والأندلس أن ينظم الشّعر ويقدّم فيه قصائد علمت أنّها لم تُطبع بعد، وإن كانت حاضرة وجاهزة، ومتابعات الدكتور البيطار وقراءاته الكثيرة المنوّعة مع دراساته الجادة المُطوّلة أكسبته معرفة فذّة في معرفة خصائص الشّعراء والكتّاب المشهورين قديمًا وحديثًا، فإنّه لا يفوته أن يعرف هذا النصّ النثريّ إن كان لطه حسين أو أحمد أمين أو مصطفى صادق الرافعي أو مصطفى لطفي المنفلوطي، وقُل في الشعر ما يشبه هذا الكلام في النّثر من المشهورين البارزين من الشعراء.

لقد انتقل من حال الدرس والطّلب سريعًا وبإتقان إلى حال البحث والطّلبة والتّدريس، وكان شفيق إذا تكلّم أوصل الفكرة فأقنع، وإذا حاور لزم آداب الحوار وساعدته منه سكينة وهدوء، وإذا ناقض قدّم الحجة بعد الحجة، فإن كان لخصمه الظّهور لزم الحقّ والرّأي العالي، وإذا باسط محاوره أو محاوريه كان الهدف الإقناع ملزمًا بتقديم الدّليل، وكان له من ثقافته الواسعة ما ساعده على دخول محاورات المحافل ولفت الانتباه إليه فيها.

لأستاذ الجامعة مهامّ أخرى غير القيام بالتّدريس وإلقاء المهام الجامعيّة، تنتظره مهامّ أخرى، فهو مطلوب منهم التّأليف والتّصنيف في مجال دراساته الجامعيّة، وتقديم الخدمات المجتمعيّة ذات الصّلة من النّدوات العلميّة والفكريّة، ويقدّم المشورات في مجال اختصاصه، ويسهم في الكتابة في وسائل الإعلام أو المشاركة، ويقدّم إضافات من مجال تخصُّصه تغني ذلك التخصُّص وتمضي به قدمًا للمتابعة والتّجديد، ومطلوب منه رعاية الجيل الجديد ليتمّ تواصل بينهم، ومن هذا المفهوم العام انطلق الدكتور محمد شفيق البيطار في أعماله داخل

الجامعة وخارجها، وترك علامة واضحة في كلِّ ما سلك من أعماله ومتابعاته، وهكذا فإنّه على الأستاذ الجامعي الحقّ أن:

١. يتقن عمله أو أعماله تامة.

٢. وأن يسلك سبيل الإبداع.

٣. وأن يرعى الجيل الثاني (ومن أسف أنّ نظام المعيديّة ألغي أو أبطل مفعوله منذ نصف قرن تقريبًا).

وكان عمل الدكتور محمد شفيق البيطار العلميّ والتعليميّ ونشاطه في الوجوه الأخرى متابعة وتجديدًا لبعض من سبقه من أساتذته، وأذكر هنا منهجه في تدريس النّصوص الأدبيّة، وهو منهجٌ مستوفىً مُعلَّمٌ دالٌّ مؤثرٌ في الدّارسين تأثيرًا عظيمًا، وهو منهج تلقّيته أنا من أستاذي الدكتور شكري الفيصل، وأخذه عن أستاذه طه حسين، وأخذه عميد الأدب عن المرصفيّ صاحب الوسيلة الأدبية، ومنهجه في العناية بالعروض والقافية وتدريسهما، وقد أخذت ذلك في المرحلة الثانوية عن الدكتور أمجد الطّرابلسي وكان شاعرًا أيضًا، وعنايته بالنقد وقد أخذنا عن ابن رشيق في كتابه العمدة، وهي نصيحة آخذ فيها عن أستاذي الدكتور عمر فرّوخ رحمه الله، وعنايته الفائقة في أصولها وفروعها وتطبيقاتها، وقد كنت أوّل من قدّم اللّغة للقارئ العاديّ في حلقات يوميّة مسموعة متابعة، وصلتُ بين العاميّة والفصيحة على منهجٍ أخذته عن كتب أحمد تيمور باشا من مصر والشيخ أحمد رضا صاحب متن اللّغة والعاميّ والفصيح، ألّفت في ذلك وكان الدكتور محمد شفيق معي في هذه الجوانب، ثمّ كان له أثرٌ بالغٌ في ضبط النّصوص المتلفزة ذات الصّلة باللّغة، وله مجال آخر في متابعة الدكتور إسماعيل مروة، وعالج الدكتور محمّد شفيق بيطار تحقيق المخطوطات التراثيّة على منهجٍ لاحظه عندي وتابعه معي، وكنت أشاوره في قراءة بعض المفردات والقراءات من المخطوطة التي أعالجها، وكان على مستوى المشاورة والمشاركة في الرّأي، وكان من المنهج المختار لديه تقديم النّصّ المخطوط،

ومثال ذلك الحماسة المغربيّة التي استعصت على المحققين، ثم أنجزتها بجهدي بحمد الله تعالى، وكان للدّكتور شفيق متابعات ذات أهمية لبعض النصوص التراثيّة المنشورة في نقد يدلّ على علمٍ وفهم، كما يدلّ على الإنصاف والحيدة.

نعم غاب الدكتور محمد شفيق البيطار عن الجامعة وعن المجمع وعن مناشطه الأخرى، وأقول كما يقول المصريّون في دارجتهم السلسلة: على الله العوض، ومنه العوض، والحمد لله ربِّ العالمين.

غاب شفيق كما يغيب نجمٌ ساطعٌ فجأة، ويبقى مكانه فارغًا لا يملؤه نجمٌ آخر، ولا يشبهه نجم آخر، غاب شفيق وهو ملء السّاحة العلميّة والتعليميّة والثقافيّة والحضاريّة، كأنّه كتابٌ بنسخةٍ وحيدةٍ ذهبت به الريح، وقد اقتبس النّاس ما فيه من ثروةٍ إنسانيّة، تفتقده منابر الدّرس، ورفوف المكتبة العربيّة، وأفواج الطّلبة المتعلقين بعلمه وأدبه ودماثته، وغاب عن عارفي علمه وفهمه وأثره في الأدب واللّغة والإبداع الذي لا حدود له، وغاب عن حقول الكرز في ضيعته رأس المعرة، حتّى أرضه وبيئته تفتقده.

رحم الله محمد شفيق البيطار وأدخله فسيح جنّاته.

من شعر محمّد رضوان الدّاية في رثائه

يـــؤرّخ بحســـاب الجُمّـــل تاريخـــه ... ودعـــــواتُ ثُلَّـــــةِ الصَّـــــالحين

مـــضى عـــلى سُـــنّة أهـــل التُّقـــى ... وأنعـــش القلـــب بـــثلج اليقـــينْ

ونصـــرَ الحـــقَّ ومـــا صَـــدَّه ... يومًـــا عـــن الحـــقّ شـــقيٌّ لعـــينْ

وعـــرَف الـــدُّنيا ومـــا غـــرَّه ... بهرجهـــا السّـــاحرُ لحـــظَ العيـــونْ

وحـــازَ مـــن دنيـــاه مـــا يكتفـــي ... بـــه قنـــوعُ: مســـلكِ الزاهـــدينْ

ونـــال بـــالعلم مراقـــي العُـــلا ... وكـــان في الأعـــلامِ والخالـــدينْ

يـــا رحمـــة الله احفظـــي قـــبره ... ثـــمَّ اجعـــلي (شـــفيق) في الفـــائزينْ

أرّخْتُـــهُ: مِـــنْ عابـــدٍ جاهـــدٍ (أزلفـــت الجنّـــة للمتقـــين)

تاريخـــهُ: مـــن عابـــدٍ واجـــدٍ أزلفت الجنّة للمتقـــين

٩٠ ٧٧ ١٤ ٥١٨ ٨٦ ٦٦١

٩٠+ ٧٧+١٣+٥١٨+٨٦+٦٦١= ١٤٤٦هـ

بيني وبين محمد شفيق البيطار

د. عبد النبي اصطيف

العلاقة بين الأستاذ والتلميذ في التقاليد الجامعية العربية، وبخاصة في مرحلة الدراسات العليا، علاقة تُداخلها العديد من الأعراض والتأثيرات الجانبية التي تُفسدها، وتحول بين طرفيها وبين التواصل الإيجابيّ الذي يغني العلم والمعرفة عامة، ويطوِّرهما، ويدفع بهما قدُمًا إلى آفاق جديدة.

وكما بتنا نلاحظ مؤخرًا، في جلسات الحكم على الرسائل الجامعيّة، أنّ الطّالب في كثيرٍ من الأحيان يُضمر في نفسه، بعد سماع حكم اللّجنة على الرّسالة، بأنّ هذا اللّقاء بأستاذه سيكون اللّقاء الأخير، ولن يكون ثمّة من لقاء بعده، إذ يرى في أستاذه عقبة في طريق ارتقائه الوظيفيّ، لأنّ عليه أن يتجاوزه معرفيًّا، وذلك أمر بحاجة إلى جدٍّ وعمل كبيرين لا يطيقهما، وربما لا يرغب فيهما، خاصّة وأنه قد نال، فيما يبدو له، الدرجة العليا في نظره، وختم العلم. بل ربما تُغريه النفس في الرّدّ على بعض وجوه النّقد التي لاحظها أعضاء اللّجنة في الرّسالة، وأعلنوها في جلسة الحكم، وبدت له تشهيرًا به، وربما بأستاذه. ولربما يزعم لنفسه وللآخرين أيضًا أن الرسالة كانت حصيلة جهده الخالص، وأنه لم يُفد من أستاذه البتّة، لأنّه أغزر علمًا، وأوسع معرفة منه. ولذلك فإنّه لا يشكر أستاذه في مقدّمة رسالته، إذا ما نشرها في كتاب، بل لا يذكر أن كتابه إنّما كان في الأصل رسالة جامعيّة أُعِدت بإشراف فلان من أساتذته.

وحسب المرء أن يقارن بين مقدمات الكتب العربية التي تكاد تخلو تمامًا من كلمة شكر أو تقدير لأستاذ، أو صديق، أو قارئ، وبين مقدّمات الكتب الأجنبيّة التي تسرف أحيانًا في شكر كلّ من أسهم على نحو أو آخر في إخراج هذا العمل وطباعته ونشره.

والواقع أنّه كان لا بدّ من الحديث عن هذه العلاقة السّائدة في تقاليدنا الجامعيّة لنتبين تميّز، بل فرادة، موقع فقيدنا العالم الجليل محمد شفيق البيطار (١٩٦٥-٢٠٢٤) في هذه العلاقة، من خلال إشارة مقتضبة إلى العلاقة التي جمعت بيني وبينه: أستاذًا وتلميذًا، وكانت علاقة إيجابيّة ومنتِجة ومفيدة لكلينا، على الرّغم من اختلاف اهتماماتنا، وتنوّع مشاريعنا البحثيّة، وأقلّها اختصاص كلّ منّا الذي كان سيبعده عن الآخر، بسبب البون الكبير القائم بين الاختصاصين.

وربما كان من المفيد بداية التذكير بما كانت تنطوي علاقتي بشفيق البيطار من مفارقات، أولها اتجاه الاعتزاز والفخر؛ ذلك أنّ الغالب أن يعتزّ المتأخِّر بالمتقدِّم، وعندما يأتي الأمر إلى علاقتنا أرى نفسي، أنا المتقدّم، تعتز بالمتأخِّر، مُنكِرة ما شاع من قول "**كم ترك الأول للآخر**"، ومؤكّدة أنّه قد ترك الكثير مما يمكن إنجازه.

وثانيهما اتجاه الاعتزاز والفخر الذي يمضي عادة من التلميذ باتجاه الأستاذ، وأجدني، أنا الأستاذ، أعتز بتلمذة شفيق عليّ، ربما أكثر مما يعتزّ به شفيق من تلمذته عليّ.

وثالثها أنّ المألوف هو أن يلجأ التّلميذ إلى أستاذه يستعين بخبرته وأبوّته على ما يُواجه من صعوبات في عمله العلميّ، وثانية، أجدني، وأنا الأستاذ، أطلب من تلميذي العون في صقل عملي العلميّ في التّرجمة من جانب، وفي التّوثيق من جانب آخر، وفي الاطمئنان إلى صواب اجتهادي في بعض أبحاثي في الشّعر الجاهليّ.

والحقيقة أنّه فضلًا على تعاوننا المثمر في أكثر من مجال (تنظيم المؤتمرات العلميّة عندما كان الفقيد أمينًا **للمجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية**؛ وتحرير **مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية** عندما كان رئيس تحريرها، وكنت أنا نائبه، مع أنّه سبق لي

رئاسة تحريرها لفترة قصيرة قبل إيفادي إلى **مدرسة المترجمين الدوليين** في **جامعة مونص** في بلجيكا؛ ومشاركته القيّمة في الكتابة بفصل موسع في كتاب **الأدب في بلاد الشام**، الذي قمت، وثلة من أعلام الدرس الأدبي في سورية، بالتخطيط له وتحريره ونشره، عندما كنت مديرًا عامًا **للهيئة العامة السورية للكتاب** بوصف الكتاب، ذي المجلدين (اللذين تجاوزت صفحاتها ألفي صفحة، خصص الأول منهما لتاريخ في هذا الأدب منذ اختراع الكتابة وحتى نهاية القرن العشرين، في حين خصص الثاني منهما لنصوصه الممتدة ما يقرب من خمسة آلاف سنة) إسهامَ الهيئة في **احتفالية دمشق عاصمة للثقافة العربية** (عام٢٠٠٧)؛ وعملنا معًا رئيس قسم وزميل عندما كنت رئيس **قسم اللغة العربية وآدابها** (ثم عملنا معًا رئيس قسم وزميل عندما تبادلنا الأدوار في تاريخ لاحق)، فقد لجأت إليه في مراجعة ما ترجمته من قصائد الشّعر الأمريكيّ العربيّ التي بلغت المئة قصيدة، مستندًا في ذلك إلى نَفَسه الشعريّ من جانب وحسّه اللغويّ من جانب آخر، لأنّي كنت حريصًا على الاطمئنان إلى انسراب الرّوح العربيّة في نسيج القصائد المترجمة، وكم كانت فرحتي عظيمة عندما وجدته يشاركني هذه الرّوح، ويطري ترجمتي وقربها من الحساسية العربيّة الفنيّة والنفسيّة. كما لجأت إليه عندما أعددت بحثًا مطوَّلًا عن قصيدة المثقّب العبديّ التي مطلعها:

أفاطم قبل بينك متعيني ومنعك ما سألت كأن تبيني

وناقشت فيه طبيعة علاقته بناقته التي أسرف وأجاد في وصفها خِلقة وخُلقًا، وخصها في قصيدته بأبيات رائعة تجاوز عددها عدد الأبيات التي انصرف فيها إلى الحديث عن فاطم وموكب ظعنها. وعلى الرغم من أنّه لم يتفق مع ما ذهبت إليه من إشارة إلى علاقة قد تبدو للبعض مريبة بينه وبين الناقة، فقد فوجئت بعض المفاجأة بتدقيقه لكل حرفٍ من الدّراسة، حتى إنّه أضاف الشّكل لبعض كلماتي حرصًا منه على ضرورة صحّة قراءتها.

وأخيرًا فإنّني أحسّ الآن بفقدٍ كبيرٍ لمصدرٍ حيّ من مصادر الشّعر العربيّ القديم كنت أنهل منه وأعلّ كلّما أردت توثيقًا لبيت أو لقطعة من هذا الشعر، فقد كنت أتواصل معه أطراف النهار، وآناء الليل، لأسأله عما كان يشاغلني من شكوك في رواية بعض نصوص الشعر العربيّ كان يبدّدها بالقول الفصل مستعينًا على ذلك بحافظة نادرة، وحسّ نقديّ كم بتنا نفتقده في باحثي هذه الأيام.

وعلى الرغم من إيجابيّة تواصلنا شبه اليوميّ في مسائل تتّصل بالأدب العربيّ قديمه وحديثه، تدريسًا وبحثًا، وباللغة العربيّة انشغالًا حميميًّا من خلال عمله في **مجمع اللّغة العربية بدمشق** عضوًا عاملًا، ومن خلال عملي البحثيّ في التّرجمة والعلاقات الثقافيّة والفكريّة والأدبيّة والنقديّة بين العرب والغرب، فإنّي أرى أن علاقتنا العلميّة هذه **قد تجاوزت العلاقة بين التّلميذ والأستاذ**، لتغدو **شراكة في إنتاج المعرفة المتّصلة بأدبنا ولغتنا وثقافتنا عامة**، أساسها حب العلم الذي فُطِرنا عليه وأودعه الله في قلبينا، والثقة المتبادلة بصدق مسعانا معًا في طلبه وتنميته ومحاولة الإضافة إلى ما قدمه آباؤنا وأجدادنا من معرفة، بوصف هذا المسعى عروجًا نحو خالقنا العالِم العليم، وهو الذي أكرم طلاب العلم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عندما أكد أنّ "**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله طريقه إلى الجنة**".

وهكذا ينبغي أن تكون عليه العلاقة العلميّة بين الأجيال المتعاقبة والأستاذ والتلميذ أيضًا، وكلاهما طالب علم، علاقة شراكة معرفيّة. صحيحٌ أنّ المتقدِّم قد يمتلك الحكمة والخبرة والمران المكتسب بطول الممارسة، ولكنّ المتأخّر يمتلك الاجتهاد وحب المغامرة وارتياد الآفاق الجديدة.

المحقّق الحصيف، والباحث الجادّ

الدكتور الرّاحل وهب رومية [1]

يرجِعُ بي الزَّمانُ القَهقَرى إلى أوائل التسعينيَّات من القرن المُنصرِم، حين عرَفتُ **محمد شفيق البَيطار** عن قُربٍ في مناقشة رسالة الماجستير، ثم تصرَّفَت بي الأسبابُ إلى مطالع هذا القرن، حين جمعَتنا الزَّمالةُ في قسم اللغة العربيّة بدمشق، ولم تلبَث أن انعقدَت بيننا أواصرُ شتَّى اختلطَ فيها الذاتيُّ بالموضوعيِّ، وشؤونُ العلم بشؤون الحياة، أو قُل: جمعَتنا أسبابٌ شتَّى، ودنيا "كظلِّ الكَرْمِ كنَّا نخُوضُها" بتعبير الشاعر الأمويِّ الكبير ذي الرُّمَّة، فتوثَّقَت بيننا عُرى الصَّداقة والإخاء.

ولذا أستطيعُ أن أتحدَّثَ عنه بثقةٍ واطمئنان دون أن يُخامِرَني رَسِيسٌ من الشكِّ فيما أقول، ودون أن تنحرفَ بي إلى مَعادِل الطريق عن قصدِه عينُ الرِّضا، أو وَساوِسُ النفس وغَوايات الهَوى.

وأحبُّ في هذا الموقف أن أَجريَ على اجتزاء الكلام وطيِّه، فأضُمَّ تفاريقَ القول بعضَها إلى بعض، وأنصرفَ عن التفاصيل إلى الاعتدال في القول والإشارة الدالَّة، وحَسْبي من القِلادة ما يُحيط بالعُنُق.

فإذا عاسَرَتني اللغةُ، أو عاصاني القولُ – وأُعِيذُ نفسي منهما – ردَّدتُّ قولَ أبي العلاء:

وقد يُخطِئُ الرَّأيَ الفتى وهوَ حازِمٌ كما اختَلَّ في وَزنِ القَريضِ عَبيدُ

ما أجملَ أن يَلوذَ المرءُ بجَوهرة الصَّمت! ولكن أنَّى السَّبيلُ إلى ذلك؟ وليس للصَّمت ألسنةٌ يحدِّث بها نيابةً عنِّي، وليس له جناحان يخفِقُ بهما فوق العقول، فينشرَ شذا الحديث الذي أودُّ أن أتلوَه على مَسامعِكم.

لا خَيلَ عِندكَ تُهدِيها ولا مالُ فَليُسعِدِ النُّطقُ إن لم تُسعِدِ الحالُ

لقد نفضَ الدكتور شفيق مِن على مَنكِبَيه غُبارَ سبعةٍ وخمسين عامًا قضاها في مدارسة الكتُب،

---

[1] كلمة ألقاها في حفل استقبال الدكتور شفيق البَيطار عضوًا عاملًا في مَجمَع اللغة العربية بدمشق، يوم الأربعاء ٢٢/ ٦/ ٢٠٢٢م.

وزانها بالعطاء وحبِّ الناس، وحَسبُك أن تُراقبَه وهو مع طلَّابه الذين يُشرف عليهم، فتراه يحلُّ لهم ما اعتاصَ عليهم، ويقوِّم ما انآدَ من آرائهم وأقوالهم، وينشُر فوقهم جناحَ الثقة والمحبَّة، فيغمُرهم ببساطته الآسرة، وتواضُعه الجمِّ الذي يَفيضُ عذوبةً ومحبَّة، وحَسبُك أن ترى كلَّ ذلك منه لتُدركَ أنَّ الله قد وهبَه الصَّبرَ والعلم والمحبَّة.

فإذا آنستَ منه ما يُرضيك، وآنسَ منك ما يُرضيه كشفَ لك عن أسرار قلبه وعقله، فرأيتَ فيه الصّديقَ الودود، والإنسان المخلِص، والمرء الغَيور على ما يؤمن به من القِيَم إيمانًا غيرَ مَدخول، فكنتَ أمام إنسان وهَبَه الله من الصِّفات الأخلاقيّة ما يُثير الغَيرة في النفوس.

فإذا أنكرتَ منه شيئًا أو أشياءَ قلتُ لك: كفى المرءَ نُبلًا أن تُعَدَّ مَعايبُه.

وهو باحثٌ جادٌّ مدقِّق، ومحقِّق حَصيفٌ رزقه الله الصَّبرَ على مَكارِه البحث ومَضايقِه، وراضَ نفسَه في حُزون التُّراث حتى ذلَّلها ووطَّأ أكنافها، فجرى فيها طَلَقًا تُسعِفُه معرفةٌ واسعة بعلوم الآلة كالنَّحو والصَّرف والعَروض، ومعرفةٌ واسعة بكثير من حقول التُّراث وأنساقه المعرفيّة، ورغبةٌ جارفةٌ في الاستزادة من المعرفة، وإيمانٌ جليل بخدمة اللّغة العربيّة وتُراثها الخالد، وحِرصٌ مُفعَمٌ بالأمل على استمرار مسيرةِ العرب الحضاريَّة دونَ التنكُّر للماضي أو الانقطاع عنه.

لقد جمع نفسَه وساقها في سبيل قضيَّة واحدة هي قضيَّةُ "التُّراث"، وراح يصطفي تُراثه الخاصَّ من هذا التُّراث الضَّخم، شأنُه في ذلك شأنُ الباحثين في التُّراث عامَّة.

وقد نذرَ الدكتور شفيق لهذه المرحلة التأسيسيَّة جهودًا جديرةً بالإعجاب والتقدير، ويكفي أن نُلقيَ نظرةً عَجْلى على هذه الجهود، وعلى ما يتَّصلُ بالكتب المحقَّقة اتِّصالًا وثيقًا لنظفرَ بالجواب، فمِن هذه الجهود تحقيقُ ما يلي:

ديوان حُمَيد بن ثور الهِلالي، وديوان كَلْب بن وَبْرة في الجاهلية والإسلام (في ثلاثة أجزاءٍ)، وديوان زهير بن جَناب الكَلْبي، وديوان أبي بكر الصدِّيق، وديوان الإمام أبي بكر الصدِّيق وجَمهَرة خُطَبه ووَصاياه ورسائله، واختيارات ابن مُسافِر من شُروح أشعار العرب، ومن أبحاثه المتَّصلة

بالتحقيق: ابن حُمام: الشاعر الذي بكى الدِّيار قبل امرِئ القيس، وثلاثة أبحاث حولَ مخالفة القياس اللغويّ، والقياس النحويّ، والقياس العَروضيّ في شعر الأعشى، وبحث عُروة بن أُذَينة دراسة في حياته وشعره، ومن مُراجعاته العلميّة: مراجعة الحماسة الشَّجَريّة لابن الشَّجَريّ، ومراجعة طَوْق الحمامة لابن حَزْم، ومراجعة نتائج الفِطْنة في نَظْم كليلة ودِمْنة، ومراجعة ديوان الفجر الأوَّل لخليل شَيبوب، ومراجعة دواوين كلٍّ من: خليل مَردَم بك، وعمر النصِّ، ومحمد الفُراتي، وكتابة مقدِّمة لكلٍّ منها.

فإذا ضمَمنا إلى ذلك كلِّه أبحاثَه الأُخرى كـ: وَحدة القصيدة الجاهليّة في حديث الأربعاء، وصورة الطّبيعة في شعر الشّابّي، وأحاديث الشِّعر لعبد الغني المَقدِسيّ، وكتابة عددٍ من الموادِّ في الموسوعة العربيّة، وسِواها تجمَّع لدينا محصولٌ علميٌّ غَزير.

ولا يفوتُني أن أذكرَ أنه قد أشرفَ على ما يقرُب من عشرين رسالةً علمية أُعِدَّت لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراه، وأنّه شارك في الحُكم على عددٍ كبير من الرّسائل، وشارك في ندَوات علمية متعدِّدة، وأشرف على عددٍ من المؤتمرات العلميّة حين كان أمينَ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب.

وعلى الرَّغم من الجَفْوة بين الدّكتور شفيق والأعمال الإداريّة، وهي جَفْوةٌ يعرِفُها المقرَّبون منه، فقد كان أمينَ المجلس الأعلى للفنون والآداب، وقدَّم استقالتَه منه، وكان رئيسًا لقسم اللّغة العربيّة وآدابها مرَّتين، ورئيسًا لتحرير مجلَّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الاجتماعية مرَّتين، وهو عضوٌ في هيئة تحرير مجلَّة التُّراث العربي، وعضوٌ في هيئة تحرير مجلَّة المخطوط العربيّ.

لقد غلبَ طابَعُ البحث والتحقيق على شخصيَّة الدكتور شفيق، فكاد يُغيِّبُ جانبًا من هذه الشخصيَّة قلَّما نلتفِتُ إليه، هو الجانبُ الإبداعي، لقد رزقه الله موهبةً أدبيَّة، فكتب مسرحيةً مُستمَدَّة من التُّراث عنوانها: لبن الناقة، وكتب ما يزيدُ على خمسين أغنيَّةً لبرنامج "بيتنا العربيّ"، وكتب مثلَها لبرنامج الأطفال التابع لمؤسسة الإنتاج البرامجي المشترَك لدول مجلس التّعاون

الخليجيّ، وكتب نشيدَ الجامعة السورية الدَّولية، وله ديوانُ شعرٍ مُنضَّدٌ لم يُطبَع بعدُ، عنوانه: أطلال روح، وديوان شعر للأطفال، وله أعمالٌ إبداعيَّة أُخرى.

هذا هو الدكتور محمد شفيق البَيطار، فإذا أخذتَ نفسَك بالإنصاف، وأردتَ التحدُّثَ عنه لم تجِد فرصةً لجَمْجَمة الكلام. فكأنَّ أبا فراسٍ عَناه بقوله:

ولستُ بتارِكٍ فتَياتِ قَومي إذا حَدَّثنَ جَمْجَمْنَ الكَلامَ

فهل أُسرِفُ على الحقِّ بعد هذا كلِّه إذا قلت: إننا أمامَ شخصيَّة علمية متميِّزة تستحقُّ بجَدارةٍ أن تكونَ عضوًا عاملًا في مَجمَع اللغة العربية؟ فأهلًا بكَ أخًا وصديقًا عزيزًا وعضوًا عاملًا في مَجمَعنا العَريق، وشكرًا لحُضوركم الجميل، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٢) أصدقاؤه [١]

رجلٌ كلّه مَحاسنُ

د. أحمد نتوف

حين أستعرض شريط حياتي، وأبحث عن الأشخاص الذين أَسروني بِصفاتهم الشّخصية وسَجاياهم الخُلُقية، وإنتاجهم الفكريّ والأدبيّ؛ يبرز أخي وصديقي الدّكتور محمّد شفيق البيطار بشخصيته الفريدة، وطباعه الجميلة، واجتهاده ودأبه ليسكن العقول والقلوب؛ رجل أحببت طيب معشره، وحُسن تعامله، ووثقت بالبوح له، كما وثق بالبوح لي، أفنى عمرَه في إدخال السرور على قلوب إخوانه، يتعهّدهم بالسّؤال عن أحوالهم، ويبادرهم بالحديث الهادئ الذي يفيض أدبًا وعِلمًا وطمأنينة؛ رجلٌ كلّه مَحاسنُ لا تستطيعُ إحصاءَها، وفيٌّ لأساتذته، مساعدٌ لإخوانه، مُحبٌّ للعربية وآدابها، حريصٌ على تعليمها ونشرها.

عملت معه في الجامعة، وفي قناة الأطفال التلفزيونية (سبيستون)، وقد كانت بيننا علاقات اجتماعيّة خاصّة، حتّى إنّ الأنظار تتّجه إليّ حين يذكرُه أحد في مجلس أكونُ فيه؛ لما ذاع من أخبار صداقتنا وأُخوّتنا، فأيّ حزن تملّكني حين علمت بخبر مرضِه، وأيّ فَقْدٍ عانيته به حين نعاه الناعي، وأعلنَ رحيله.

في الجامعة كنّا في مكتب واحد، أراقبُه وهو يستقبل الطلبة ويرشدُهم، ويغدقُ عليهم بالمعلومات الوفيرة، ويعينهم بالكتب والأبحاث الورقيّة والإلكترونيّة، ويتفرّس فيهم، فيدفعهم إلى المثابرة على العلم والمصابرة على العمل حتى بلوغ الآمال والغايات؛ وكم تخرّج على يديه من طلبة صاروا أساتذة حصلوا منه على معارف صافية، وخبرات فريدة؛ وقد اشتهر بالتمكّن في تخصُّصه الأساسيّ: (الأدب الجاهلي)، وتخصّصات أخرى إضافيّة: (العروض،

[١] الترتيب وفق حروف الهجاء.

والتاريخ القديم، وفقه اللغة، وتحقيق النصوص المخطوطة، والأدب القديم عمومًا، والشعر تحليلًا وتأليفًا، واللغات الشرقية كالفارسية التي ترجم رباعيات أحد شعرائها شعرًا، وغير ذلك كثير)، يضاف إلى هذه التّخصّصات آراؤه الفكريّة المتميّزة؛ فقد كان يقلّب المسائل والآراء في حقول العلم المختلفة، وكان يناقشها بما أوتي من ثقافة واسعة؛ وكانت قدرته على الإقناع وحشد الحجج ممّا يميّز إنتاجه البحثي والأكاديمي، ويُذكرُ له أنه كان خطّاطًا ماهرًا.

في الجامعة شهدت على مواقف كثيرة له في مناقشات الرسائل العلمية تشهد له بطول الباع، وسعة التحصيل وصواب الرأي، وفصاحة المنطق، وامتلاكٍ لناصية اللغة، والوصول بمحاوريه إلى القناعة بما يذهب إليه، ويدخل في ذلك إشرافه على رسائل الماجستير والدكتوراه؛ فكم من الطلاب الذين تتلمذوا له وصاروا في ميدان العربية أعلامًا يُشار إليهم بالبنان، وشهدته أيضًا يقرأ الدراسات الحديثة الخارجة عن تخصّصه، يريد أن يصل إلى تكوين معرفة شموليّة تحيط بالقديم والحديث.

وشهدته يفكُّ النّقوش القديمة التي اكتشفت في الجزيرة العربيّة وانتشرت صورها في وسائل الاتصال المختلفة، وقد صبر في هذا العمل حتى وصل إلى تعرّف نظام الأبجدية القديمة التي كتبت بها تلك النقوش، وكم كانت فرحتُه غامرة حين كان يعرض عليّ قراءة نقش منها، معلنًا عن محتواه وتاريخ كتابته، ونقل كلماته وتراكيبه إلى اللغة العربية التي نتداولها.

وفي قناة (سبيس تون) كان يعمل منطلقًا من أن أطفال العرب والمسلمين أمانة، وعلينا أن نصونهم، فنسبر ما يقدم لهم وندرسه ونحلله ونعدّله بما يوافق قِيَمنا السّاميةَ الأصيلةَ، ولذلك كان يجلس الساعات الطوالَ يقرأ ما يكتبه المعدّون والمؤلّفون، ويُشاهد المسلسلات والأفلام، منتبهًا إلى سُمّ ظاهرٍ - فكريٍّ أو أخلاقيٍّ - فيها، وإلى سُمٍّ خفي مدسوس من أولئك الماكرين الذين لا همَّ لهم سوى انحراف الأطفال عن جادّة الصواب

في الفكر والأخلاق، وكثيرًا ما كنت أطلب منه أن يرتاح قليلا حين يبدو عليه التعبُ من العمل المتواصل الطويل، فكان يبتسم، ويواصل.

وقد كتب أناشيد المسلسلات شِعرًا رشيقا يُغَنّى، ممتلئًا بالصور الجميلة، والمعاني العميقة، وكان يقرأ لي ما يكتبه وأقرأ له كذلك، وكنا نخفي بعض المعاني الوطنية والإسلامية التي لو انتبه إليها الساسة في وقت انتشارها للامونا عليها؛ وقد كانت هذه الأناشيد سببًا لانتشار اسمه في أصقاع الأرض؛ فالملايين من أطفال العرب وشبابها يحفظونها، ويمتنون لمن ألَّفها، وقد لقيت من يقول منهم ممّن صادفته في غير بلدي: شكرا لكم يا أستاذ؛ فأنتم قد صنعتم حياتنا، وعلى كلماتكم نشأنا؛ ولعمري إنّها لشهادة يفتخر بها الإنسان، وتروق للروح.

وفي الحياة خارج العمل والجامعة كنّا نتبادل الزيارات؛ وكان يأسر الجميع بحضوره وحرصه على أداء واجباته الاجتماعية المختلفة، وقد زرته في بلدته (رأس المعرة) بالقلمون في ظاهر دمشق، أكثر من مرة، ومن بين الزيارات زيارة لا أنساها؛ وذلك حين كنت أعدّ بحث الدكتوراه، وقد استهلكني العمل، وشعر بقلقي على الرسالة؛ فطلب مني أن أحصل على إجازة مفتوحة، وسافر معي إلى بلدته التي تبعد قريبا من ١٠٠ كم عن دمشق، وفي بيت أخيه الذي يقع في منطقة يسمّونها الجرد، خصّني بغرفة، وجلست في ضيافته أيّامًا أرتب ما قمشته لبحثي، وأتنعم بتأمل جميل أخلاقه وحرصه على أن يزول قلقي، وأن أنجز صياغة البحث بعيدا عن أي ضغوط، وكم أتذكّر تلك الأيام الجميلة حين كان يطلّ كلما أتيح له قادمًا من دمشق ليطمئنَّ على سير عملي، وعلى أنّ مَن وكّلهم برعايتي يقومون بها على أحسن وجه.

ومن صلتي به أننا أيام الامتحانات في الجامعة كنّا نجتمع مع بعض الزملاء في الدراسات العليا لنصحح أوراق الطلاب، وقد كانت بالآلاف، يملّ الأستاذ لو صححها وحده؛ فكنا نغتنم فرصة اللّقاء للحديث في العلوم والشؤون المختلفة، ونتبادل الخبرات حول الكتب وما

نشر منها حديثًا في تخصّصات المشاركين، وكنّا نتباحث في موضوعات الدّراسات العليا واتجاهاتها لدى الطلبة، ونتفكّر في الموضوعات الأجدى والأنسب في كلّ فصل دراسي.

ولعمري، إنّ الزمان يَضنّ بمثلِه، أَحبَّه كلُّ مَن عرَفَه، وأجمعَ الناس على الإقرار بفضله وسبْقه، وقد قلتُ لما فجَعَني خبرُه:

عِشْـــنا معًـا زمَنًـا فَكُنْـتَ نَموذجًـا ... لـلـنّـاسِ تجـمـعُ أحسَـــنَ الأخـلاقِ

فـأَسَرْتَ أفـئـدةَ الأنـامِ بـطِـيـبَـةٍ ... ونشـــــرت علمَكَ في مَدى الآفاقِ

وَمَضَـيـتَ لَكنْ قدْ سَـكَنْتَ قُلوبَنا ... ذِكـراكَ تَشْـــهَـدُ بِـالـفَـعـالِ الـرّاقـي

أَبْكيـكَ يـا خيرَ الصِّـــحـابِ وَإِنَّني ... عَـبَـثًـا أُدافِـعُ دَمْـعَـةَ الأَحْـداقِ

يـا صـــاحبي والْحَرْفُ بَعدَكَ باهِتٌ ... مَـعْـنـى الْحَـيـاةِ غَـدا بـلا إِشْراقِ

خَـبَّـأْتُ مِحْـبَرتي فَـبَـعْـدَكَ لا أَرى ... قَـلَـمـي يُـطـاوِعُـنـي ولا أَوراقـي

رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له وتقبَّل عمله.

صديق اللّحظات

د. إسماعيل مروة

ذات صباح كان في باطن الغيب، أقبل من البعيد يحمل طوله، يتقدّم بخطواته الثابتة، يأتي تجاه كلّ شيء وتجاه اللا شيء، جاء في ذلك الصباح؛ ليُعلن انبلاج يوم جديد في حياته وفي حياة الذين سيلتقيهم، الهدوء سمته، والوقار لباسه، والهدوء يكسوه، والسكينة تغمر روحه، لا تسمع كلامًا، لا تسمع لغوًا، لا تسمع هذرًا، يقابلك بكثير من الهدوء وقليل قليل من الفرح، لا تستطيع أن تدرك إن كان هذا الإنسان الذي يمشي بوقاره سعيدًا أو كان حزينًا، إنّه يختزن علاماته وعلامات سروره داخله، وكأنّه يشعر أنّه يجب أن يبقى ضنينًا بما تتفتّق عنه الرّوح، أقبل بسمته، بوقاره بكلّ صمته، لكنّ صدقه المتناهي حال دون استمرار حالة الصّمت المطبق، كان شفيق صديق اللّحظات، كان الأخ المواسي والصّديق الذي مهما جئت حاملًا ذاتك وأورامها يقترب بهدوئه ببساطته؛ ليقول لك (كلّه يمشي).

منذ واحد وأربعين عامًا حين أقبل شفيق انزرعت محبّته في الرّوح، وبدأ يظهر صدقه وذاته، أوّل مرّة أعرف المعنى الحقيقيّ للعدوى، إنّ ما يحمله شفيق في ذاته كان مثيرًا للغاية! يستحثّك لأن تحبّ ما تقابل، وأن تفرش ذاتك وأنت تقف أمامه صديقًا محاورًا أخًا حبيبًا، كلماته الهادئة كانت تتسرب من فمه، حين يمدّ أصابعه ليغمس لقمة في صحن ليتناول طعامه تشعر أنّك أمام شخص يدرك أنّ ما يحتاجه قليل، فيحرص على ألاّ يأخذ غير هذا القليل، وحين تأتي ساعات العلم تلتصق عيناه بالورق، لا يريد أن يرتوي، ويحرص على ألا يشبع من هذا الورق الذي يتكوّم أمامه وهو يقرأ ويقرأ وينهل ويأخذ ويغبّ من العلم، وحين تجلس لتناقش تُفاجأ بأن كمّ العلم انتقل من الورق إلى ذاكرته، قد تكون مصادفة، قد يكون القدر هو الذي فرض أن نلتقي وفرض أن نتحاور، وأراد أن نكون معًا في قافلة لم يكن واحد منّا يعرف متى ستصل؟ وإلى أين ستصل؟ وأين يكون المنتهى؟

في ذلك اليوم قبل ٤١ عامًا التقينا أطفالًا بكلّ براءتنا، كل واحد منّا يرى أنّ هذه الأيام ساعات ستمضي وكلّ سيسير في طريق، لكنّ واحدًا منّا لم يكن ليتخيّل أن هذه اللحظات ليست لتزجية الوقت فقط، لقد كانت هذه الأوقات بناء للروح محاولة للبحث عن المُكمّل، انتهت السّنوات سنوات التأسيس التي يراها الآخرون ليكتشف الواحد منّا أنّه أكثر التصاقًا بصديقه.

في كلّ لحظة كنّا نلتقي على المحبّة لنقول شيئًا أو لا نقول، وتشاء الأيام أن يكون هذا القلب الطافح بالمحبة هو مدار اللقاءات ومدار الأحاديث، ولم يعد مجرَّد صديق التقينا على مقاعد الدرس لنفترق عند لحظة التخرّج، تودّعنا وكلّنا يظنّ وكلّنا يزعم أنّ كلّ شيء قد انتهى، كل منّا سيسير في طريق مختلف عن الآخر وكان ذلك، لكنّ القدر الذي أرادنا حرص على أن تبقى إشارة ما من طرف ما من حبّ ما تجمع هذين الشقيقين اللذين لم يستطع أن يفرّق بينهما خلاف طباع وخلاف منهج حياة، انتهج البحث العلمي، وانتهجت أدب الإبداع، انتهج التعليم والأطفال، وانتهجت الصّحافة والإعلام المقروء، قد يكون واحدنا غير قادر على بيان ما يمكن أن ينجزه، لكنّني كنت أقرأ عند شفيق سعادته وهو يستعرض ما أنجزتُه، وكذلك سعادتي وهو يقدّم كتابًا جديدًا أنجزه بمحبة ليكون علامة للغد على علّامةِ الغد، قد يتحرّج كثيرون من الحديث عن مزايا أصحابه التي يحملونها، قد يدفع الحسد بعضهم لإغفال مكارم الصديق ومكامن تفوّقه، لكنّني أزعم والزعم علامة من علامات الإيمان وليس علامة من علامات الكذب، أزعم أنّ أخي شفيق بما ملك من خلق رضيّ ومن حبّ ومن إيمان استطاع أن يدفع فيّ شيئًا ما، أن يوقظ فيّ إحساسًا مختلفًا بالذات وغرورها، لم يكن ليبخل لحظة بأن يظهر روح المنافسة بيننا، لأنّه كان على يقين بأنّ هذا يوقظ الإحساس الكبير لدى صديقه، واستطعنا معًا أن نشكّل هذا التناغم ومضت الأيام وافترقنا، لكنّ نجاح شفيق كان بالنسبة لي نجاحًا أُفاخر به، ولا أكذب إن قلت إنّ هذا الإحساس لم يولد لديّ إلا

مع شخصين اثنين؛ حسّان فلاح أوغلي، وشفيق البيطار، كلاهما أرى نفسي فيه وأرى حبّي فيه وأرى كِبَري فيه، هذا التكامل الذي عبّر عنه شفيق حين سأله أحد الزملاء: أنت وإسماعيل تختلفان كثيرًا... ما الذي يجمعكما إلى هذه الدرجة؟ كان جواب شفيق يومها مُفحِمًا، إذ قال: لا تحمل همًّا يا صديقي، فإنّ ما ينقصني هو عند إسماعيل، وما ينقص إسماعيل هو عندي. جواب من الأجوبة المسكِتة لمن يدخل في جوهر الأشياء ولمن يسأل إنسانًا لمَ أنت إنسان؟! لست أدري إن كان من سوء الحظ أو من حسنه أنني عدت من السفر لأجد أخي شفيق بانتظاري، وكأنّه على موعد لنعود سيرة الحياة الأولى، ولنعود إلى اللقاء يوميًّا لنستمر في أن أقف أمامه ويعلم أنني لا أملك في جيبي.. فيَقسِم ما في جيبه دون أن أدري، وأعلم كذلك فأقسم ما بيننا، هذه الصحبة التي أفخر بها وأشعر أنّ شفيقًا ليس مجرد صديق، بل هو هبة من الله، لا أبالغ إن قلت إنه هبة من الله، وضعها في طريقي لتقول لي: عليك أن تكون أنت، عليك أن تكون جديرًا بالمنافسة، بالمحبة بكلّ شيء، لم يكذب شفيق مرّة عليّ، لم يخفِ أمرًا مهما كان هذا الأمر مُحرجًا بنظر الآخرين، كان إذا اغتمّ وكنت كذلك إذا اغتممت، كلانا يبحث عن الآخر لنستند إلى نافذة المكتب، ويبدأ واحدنا بسرد ما يؤرّقه، وعندما ينتهي الحديث نشعر أنّ كلّ واحد منّا عاد إلى صفائه، نضحك وننسى الهموم، نشرب فنجان قهوة، ونغادر معًا في سيارة واحدة أو سيارتين، كم من مرّة كنت أتوق إليه، وأرغب أن أتصل به، وقبل أن أفعل يرنّ الهاتف ليقول: هل لديك وقت لآخذ منه؟ وتبدأ جلسة جميلة نفرّغ فيها ما نحمله من آلام، وكم من آلام كنّا نتبادلها! آه لو كان بإمكاني أن أبوح ببعض هذه الآلام التي كان يحملها في فؤاده الصغير، قد يرى بعضهم أنّ رحيل الصديق ينهي كلّ شيء، هو على حقّ في رؤيته، ولكن ليس إن كان هذا الصّديق هو شفيق، في كلّ الليالي التي عشناها وفي كلّ الأوقات التي قضيناها كانت أمّه بغطاء رأسها القلمونيّ المميّز تصنع لنا طعامًا تسكب فيه روحها، وكأنّها تقول: أعدكم بأن أطعمكم طعامًا لا يفرّق بينكما، ووالده خالد كان من

المحال أن يأتي إلى معربا – وعمله يقتضي أن يأتي يوميًا – دون أن يمرّ ويجلس مع والدي؛ لتُبنى تلك الأواصر التي بقيت متينة وستبقى، ولن يسمح القدر إلّابمتابعة لعبته الممتعة، فصار أولادي يحبّون لقاء عمّهم شفيق، وصرت كلّما احتجت دواء يأتيني به مع كلام ابنتيه: عمّي أمّنا الدواء. هذا الرابط القويّ هو الذي جعلني أرى كلّ واحد من أولاده ابني، وأرى زوجته أختًا فاضلة أعرفها منذ سنوات بعيدة، مع أنني لم ألتقها إلا مرّات عديدة، لأن الظروف تغيّرت والأماكن تبدّلت، شفيق لم يكن صديقًا عاديًا على الإطلاق، لذلك أراد في أسبوعه الأخير أن نلتقي والتقينا، كان لقاء شجن، كان لقاء حبّ كان لقاء أخوة، كان ما كان.. حين جلسنا كان مختلفًا، لم ألتق سواه يومها بعد عودتي من السّفر، استودعني همومًا تحدّث عن ألم وعن أمل، وأعاد لي فكرة كان يقولها مع نهاية العام: سوريا ستبدأ حياة جديدة!

صديقي وأخي أنا لا أرثيك فأنا ممن يؤمنون بأنّ المحبوبين لا يموتون، وإنّما يسافرون ليسكنوا في الجوارح.

صديقي بأمان روحك التي ودّعتها لحظات عديدة التي تسكن تلافيف الروح والوجدان عندي حتى لا يزعم واحد أنني أتحدث بعاطفة، فإنني أتحدّث بعاطفة فيّاضة أيضًا لنخلة باسقة في العلم، كانت ملاذًا للجميع وإن أنكروا نحوًا وصرفًا وشعرًا وأدبًا ووزنًا وقافية ومعلومة وقبيلة وقبائلَ، بل كان ملاذًا في الأدب إسلاميّه وأمويّه وعبّاسيه والمملوكي منه والعثماني، بل وصل إلى الأدب الحديث، فأنا أتحدّث عن عالم أفخر أنّه كان صديقًا لي وكان ابنًا لدفعتي وكان خليلي وأخي وبشعره الذي كتبه لي قال لي: يا خليلي. وقال: يا صديقي. وقال: يا أخي. أتحدّث عن عالم لا يختلف على علمه اثنان، أتحدّث عن شخص فاض علمه وأعطى الجميع بلا منٍّ ولا حساب إن اعترفوا أو أنكروا، أتحدّث عن شخص يميّز بين الحب والكره، فهو قد لا يتّفق معك وقد لا يحبّك لكنّه لا يعرف الكره، وربّما هذا كان الجامع الذي جمعنا.

أخي شفيق ثِق بأنّني لا أجامل، بأن هذا العمل الذي يتحدّث عنك لم أعمل به أداء

للواجب، ولاحبًّا في الصداقة فقط، ولا لتُقال أي كلمة جيدة بحقّي، بل فعلته، وأنا أرى أنّ هذا الكتاب سيشكّل همسة تصل إلى سمعك المرهف الحساس لتبتسم وتقول: نعم. كنّا صديقين، نعم، لم نتخل عن بعض.

هذا العمل من أجل روحك ولروحك، وربّما كان محاولة منّي لاكتساب بعض الفضل منك، ولم يكن لولا تضافر الجهود ابتداء من أسرتك وابنتيك وصولًا إلى كلّ الأحباب الذين تفاعلوا وأرسلوا، وإلى كلّ الأحباب الذين حاولوا لكنّهم قالوا: إنّ الكلمات لم تسعفهم في الحديث عن خصالك العظيمة، وأنا أعذرهم.

اليوم أتوجّه بشكر عميم لأخي وأخيك الدّكتور مقبل التّام الأحمدي الذي تابع العمل لحظة بلحظة وبذل من أجله جهده وماله وكلمته ومحبته، فنعم الصديق! وكذا الصديق والأخ حسان فلاح أوغلي الدكتور الجميل الذي كان دافعًا ومحمّسًا في كلّ لحظة، إلى كلّ من أسهم وإلى كلّ من لم يسهم المحبة لعلّها تكون رسالة لكلّ طلابك وأسرتك وأصدقائك وأحبابك، فالخير في الأرض لا ينتهي... إلى لقاء أيّها الصديق النبيل.

رحيل العالم البحَّاثة الأديب الدكتور محمد شفيق البَيطار

أ. أيمن ذو الغنى

رحم الله أخانا الكبير والصديق الحبيب، البحَّاثة المحقِّق والأديب المبدع الأستاذ الدكتور محمَّد شَفيق البَيطار، أستاذ الأدب الجاهلي والعَروض والمكتبة العربية في كلِّية الآداب بجامعة دمشق، وعضو مَجمَع اللغة العربية بدمشق، والشاعر المبدع الذي كتب عشرات الأناشيد لبرامج الأطفال، وأشرف عليها لغويًّا وتربويًّا، والذي وافته منيَّته بأخَرة عن تسعة وخمسين عامًا.

عرَفتُ الأخ الفاضل شفيق البَيطار بعد حصوله على شهادة (ماجستير) من كلِّية الآداب بجامعة دمشق عام ١٩٩٢م، بمرتبة امتياز، عن رسالته (شعر حُمَيد بن ثَوْر الهِلالي جمعًا ودراسة)، بإشراف أستاذنا الجليل العلَّامة الدكتور عبد الحفيظ السَّطْلي.

وكنت يومئذٍ حديثَ عهد بالالتحاق بقسم اللغة العربية بكلِّية الآداب في جامعة دمشق، لقيتُه أوَّل مرَّة في مناقشة إحدى الرسائل الجامعية، بمدرَّج شفيق جبري، ومن يومئذٍ توثقَت الصِّلة بيننا، وكان شابًّا لطيفًا حَيِيًّا، دَمِثًا حليمًا، رَزينًا عصاميًّا، جادًّا في الإقبال على العلم والمكتبة العربية، محبًّا للُّغة والشعر القديم، بارًّا بأساتذته وإخوانه، مع جوانبَ من الألمعيَّة في شخصيَّته العلمية والإنسانية، وكلُّ جانبٍ منها حَقيقٌ بأن يُفردَ بالتِّبيان والكتابة عنه باستفاضة.

وإلى عمله مُعيدًا في كلِّية الآداب حينئذٍ كان يعمل خطَّاطًا؛ يخُطُّ لوحات المحالِّ والمَتاجر ليَحْيا حياة كَفافٍ من كدِّ يمينه، مستغنيًا بموهبته عن سؤال الناس! ثم فُتحَت له أبوابٌ من الرزق الكريم بتوظيف موهبته الشعرية في كتابة الأناشيد وشارات المسلسلات والأفلام لبرامج الأطفال، فكتب عشَرات منها لقناة (سبيس تون)، ومثلها لبرنامج (مدينة المعلومات)، وبرنامج (بيتنا العربي) من إنتاج مؤسسة الإنتاج البرامجي المشترَك لدول (مجلس التعاون لدول الخليج العربية).

ثم صِرتُ أتردَّد إليه في بيته المتواضع بحيِّ الدُّوَيلعة، في كلِّ يوم جمعة، نحضُر معًا خطبة

الجمعة والدرسَ بعدها في مسجد البَراء بن عازِب القريب منه، لدى خطيبٍ كان حبيبًا إليه وأثيرًا لديه، ثم أسعد بمجالسته ساعة من الصفاء، وقد انتفعت في مجالسنا تلك بعلمه وخُلقه وكريم شمائله، وكنت أُطلعه على بعض ما أعمل في تصحيحه يومئذٍ من كتب لبعض دور النشر، فكان يُسَرُّ بعملي ويُثني عليه، ثم نجهَدُ معًا في مراجعة ما كنت أستصعِبُه أو أتوقَّفُ فيه، فاستفدنا واستمتعنا في تحقيق المسائل، والوقوف على وجه الصواب فيها.

انتفع البَيطار بعدد من كبار أساتذتنا في مقدِّمتهم الدكتور عبد الحفيظ السَّطْلي، الذي أشرف عليه أيضًا في أطروحة الدكتوراه التي نالها عام ١٩٩٥م بمرتبة الشرف، وموضوعها (شعر قبيلة كَلْب بن وَبْرة جمعًا ودراسة)، وكنت ممَّن حضر مناقشته التي جَلا فيها عن عالم أصيل، ومحقِّق بارع حاذق.

وتحقَّقَت فيه فِراسةُ أستاذنا السطلي؛ فيما أخرج بعدُ من آثار وحقَّق من أسفار، وفي نهوضه بأمانة التعليم والتربية، فكان بحقٍّ نِعمَ المعلِّمُ القدوة، بجِدِّه ونُصحه وبَسْمَته التي لا تكاد تفارق مُحيَّاه، على مدار ربع قرن، وقد أجمعَت كلمة طلَّابه على الثناء عليه، والاعتراف بأياديه وفضله.

كنت ألحُّ عليه في السُّنيَّات الأخيرة أن يزوِّدَني بسيرة ذاتية موسَّعة، يضمِّنها بعض ذكرياته وأخباره مع أساتيذنا، فكان يقابل إلحاحي دومًا بالاعتذار، ويدفعه بتواضُعه المعهود!

ثم رأيت أن أستدرجَه بأَخَرة بإرسال أسئلة إليه بين حينٍ وآخرَ عن صِلاته ببعض الأساتذة والعلماء، فكان يجيب بأريحيَّة، فاستخرَجتُ من أجوبته أخبارًا وآراءً مفيدة.

● سألته عن صلته بشيخ العربية العلَّامة أحمد راتب النفَّاخ، فأخبرني أنه لم يلقَه سوى مرَّة واحدة، في مَجمَع اللغة العربية بدمشق، في غرفة الأستاذ مأمون الصاغرجي أمين سرِّ مجلَّة المجمع، وكان شفيق حينئذ يقدِّم إلى المجلة تحقيقَه لميمية حُمَيد بن ثور بشرح الأصمعي، للنشر فيها.

وسأله النفَّاخ عن مُشرفه في رسالة الماجستير، فأخبره بأنه السطلي.

فقال النفَّاخ: هذا الرجل عالمٌ شريف، ولذلك يحاربونه.

وعقَّب البيطار قائلًا: ثم أخبرتُ الدكتور السطلي بعد وفاة النفَّاخ بقوله، فبَرَقَت عيناه سرورًا.

● وسألته عن أهمِّ من انتفع بهم من الأساتيذ وخلَّفوا في نفسه أثرًا فأجاب:

الذين أفدتُّ منهم حقًّا في الجامعة وخارجها:

– الدكتور عبد الحفيظ السَّطلي: منهجًا وتحقيقًا وعلمًا.

– والأستاذ عاصم بهجة البَيطار [ولا صلةَ قرابة بينه وبين أخينا شفيق، فهما من أسرتين مختلفتين]: درَّسَني في السنة الأولى، وكنت أحضُر محاضراته الصباحية، ومحاضراته المسائية المخصَّصة للطلَّاب الموظفين، والمحاضرات التي سمَّاها (ما يطلبه المستمعون)، فأفادني ذلك كثيرًا.

– والدكتور رضوان الدَّاية: في الاطِّلاع على المكتبة العربية، والتدرُّب على التحقيق، وعلم العَروض والقافية، بملازمتي له سبع سنوات في مكتبته.

– والدكتور علي أبو زيد: بتوجيهه لي، ودَلالتي على الكتب، وقراءته للدراسة التي أعددتُّها في رسالة الماجستير، بطلبٍ من أستاذنا السطلي، فضلًا عن المودَّة بيننا والمودَّة بين والدَيه ووالدَيَّ، وهؤلاء الثلاثة (السطلي، والداية، وأبو زيد) أصحاب الفضل الأكبر عليَّ.

– والدكتور مازن المبارك: درَّسني في السنة الثالثة (الأدوات النحوية).

– والدكتور وَهْب رومية: درَّسني في سنة الدبلوم.

– ودرَّسني آخرون ارتحت إلى معظمهم، منهم: الدكتور عبد الكريم الأشتر، والدكتورة عزيزة مُرَيدِن، والدكتورة ليلى الصبَّاغ من قسم التاريخ في السنة الرابعة، والدكتور حسام الخطيب، والدكتور عبد النبي اصطيف.

– والأستاذ محمد علي حَمْد الله: انتفعت بمجالسته كثيرًا، لم يدرِّسني في الجامعة، ولكن كانت بيننا وبينه مودَّة، وزُرته مرَّات في منزله في التلِّ، وخرَجنا معًا للتنزُّه صُحبةَ الإخوة أحمد

صوَّان، وأحمد نتُّوف وغيرهما، ودعَوتهم لرحلة إلى جُرد رأس المعرَّة البلدة التي وُلدتُّ فيها فكان سروره عظيمًا.

****

وبعدُ، فقد كنت أودُّ أن أكتبَ عن أخينا الحبيب النبيل الدكتور شفيق البَيطار غيرَ ما كتبت، بيدَ أن نفسي المشعَّثة لا تُطاوِعني، ولا تُعينني على أن أوفيَه بعض حقِّه!

وأقول أخيرًا: إن الأخ الدكتور محمد شفيق البَيطار هو ابن محَلَّة الشمَّاعين في حيِّ الشاغور بدمشق، وقد وُلد في بلدة رأس المَعَرَّة من يَبْرُود عام ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م. وبقي ممتَّعًا بصحَّته وهمَّته إلى صباح يوم السبت ٢٣/ ١١/ ٢٠٢٤، وبينما كان يتهيَّأ للذهاب إلى عمله فقَدَ وعيَه ووقع أرضًا، فجأةً دون عوارضَ مرَضية سابقة، ونُقل إلى مستشفى المواساة بدمشق، وتبيَّن إصابته بنَزْف دماغي، وأُدخل وَحدة العناية المشدَّدة.

وفي صباح يوم الجمعة ٢٩/ ١١/ ٢٠٢٤م أُجريت له جِراحةٌ دقيقة (عملية أم الدم الدِّماغية) في مشفى دار الشفاء، ولم يلبَث أن دخل في غيبوبة في إثرها متعرِّضًا لموت دماغي، مع بقاء القلب ينبض، وفي يوم الأحد ١/ ١٢/ ٢٠٢٤م، أُدخلَ غرفة الإنعاش في مستشفى المواساة مرَّة أُخرى، وبقي في غيبوبته حتى توفَّاه الله يوم الثلاثاء ٢ جُمادى الآخرة ١٤٤٦هـ الموافق ٣/ ١٢/ ٢٠٢٤م. وفي اليوم التالي الأربعاء نُقل جثمانه إلى مسقط رأسه بلدة رأس المَعَرَّة، وصُلِّي عليه في جامع البلدة، ودُفنَ في مقبرتها.

تغمَّده الباري برحمته وعفوه، وجعل ما ابتلاه به في أيَّامه الأخيرة كفَّارةً ورِفعة.

وأحسن عزاءنا وعزاء أسرته وإخوانه وطلَّابه وأحبابه فيه.

وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

الرياض ثاني جُمادى الآخرة ١٤٤٦هـ

رحيلٌ مبكّر لعالم كبير

د. حسان فلاح أوغلي

رحم الله الدكتور محمد شفيق البيطار، العالم الجليل والصديق الوفي، الذي اجتمعت فيه مناقب العلم الواسع والخلق الرفيع، فأصبح مثالًا يُحتذى في الجدّ والاجتهاد، وفي سماحة النّفس وكرم الأخلاق.

سمعته الطّيّبة العطرة سبقته إلينا في حمص، فقد سمعت اسمه أول مرة وأنا على أبواب التّخرّج في كلية الآداب في حمص، وكان ذلك على لسان أستاذنا الجليل الدكتور عبد الحفيظ السطلي، رحمه الله، الذي قال لي: شدّ الهمة لتلحق بركب شفيق البيطار، إنه واحدٌ من خيرة طلابي في جامعة دمشق، وهو الآن ينهي دراسة دبلوم الدراسات العليا، وسيعمل تحت إشرافي في الماجستير، وأنا أريدك أن تكون جناحي الثاني من جيل الشباب في حمص. كان الدكتور السطلي، رحمه الله، من الأساتذة الذين نذروا أنفسهم لإعداد جيل من الباحثين في الأدب القديم، فأفنى جلّ عمره في خدمة العلم والتعليم، وكرّس جهوده في التدريس والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراه، وإن كان ذلك على حساب إصدار الكتب والمؤلفات، فلم ينشر سوى ديوان أمية بن أبي الصلت وديوان العجاج، وهما أطروحتاه اللتان تخرج بهما في الماجستير والدكتوراه من جامعة القاهرة، وحسبه أنّ عددًا كبيرًا من الأساتذة الذين يدرّسون في جامعات مختلفة اليوم هم ممّن تخرّجوا على يديه، وهم يكملون مسيرته ورسالته في خدمة اللّغة العربية والذّود عنها.

وفي تلك الفترة، جاءنا من دمشق أستاذنا الدكتور علي أبو زيد ليدرس يومًا واحدًا في حمص، فشرفت بصحبته وملازمته، وكان هو الآخر كثير الإطراء على الدكتور شفيق، بانيًا عليه آملًا كبيرة في المستقبل، فزادني فضولًا للتعرف عليه ومقابلته، ولكن لم تتح لي هذه الفرصة إلا حين التحقت سنة ١٩٨٩م بدبلوم الدراسات العليا في كلية الآداب بجامعة

دمشق، وذلك بفضل صديق العمر الدكتور إسماعيل مروة الذي كان ملازمًا له، تجمعهما صحبة عميقة وتقاطعات عدة، فكانت المعاينة خير دليل على صدق ما سمعت عن الرجل، إذ وجدته، رحمه الله، كما وصوفوا وأكثر، وكنت في كل يوم أزداد تقديرًا وإعجابًا به، وما ذاك إلا لما حباه الله من خصال فريدة لا تخطئها العين، حياء قلّ نظيره، وتواضعٌ جمّ، وعلمٌ غزير، وحجة حاضرة، وإحساس مرهفٌ، وهو في ذلك كله لا يشبه إلا نفسه، فكنا نرى فيه جميعًا بائع المسك الذي إن لم تشترِ منه نالك من عبق رائحته الطيبة ما يُسعدك ويُغنيك.

سجّل المرحوم شفيق رسالته لنيل الماجستير تحت إشراف أستاذنا الدكتور عبد الحفيظ السطلي، وكانت بعنوان حميد بن ثور، حياته وشعره، وسجَّلت أنا رسالتي بعده، وكانت عن طفيل الغنويّ، وكانت همومنا مشتركة في مثل هذه الموضوعات، وهي هموم عبّر عنها شفيق بصراحة في مقدمة ديوان حميد بن ثور الذي نشره لاحقًا، وذلك بقوله: "هذا البحث قائم حول شاعر مخضرم من فحول الشّعراء؛ هو حميد بن ثور الهلالي، وقد كان له ديوان صنعه عدد من العلماء الأعلام، فأفاد منه المصنفون ونقلوا عنه، ثم ضاع وانقطعت أخباره بعد القرن الحادي عشر للهجرة، فقام الأستاذ عبد العزيز الميمني رحمه الله بجمع ما وقع عليه من شعره منذ أكثر من نصف قرن، وطبع بعنوان: ديوان حميد بن ثور الهلالي.

والعمل في ديوان شاعر سبق تحقيقه من الأمور التي يطيل المرء التفكير فيها قبل الإقدام عليها، وذلك لما يكتنف مثل هذا العمل من غير طائل، وتزداد الخشية عندما يكون المحقق السابق من يقرّ العلماء بأنّه من كبار المحقّقين، وأوسعهم خبرة، وأطولهم باعًا، فكيف إذا كان المفكر في هذا العمل شاديًا للعلم في أول الطريق؟

نعم، كانت تلك مخاوفنا، ولكن كان لأستاذنا الجليل، رحمه الله، رأيٌ آخر، إذ كان يرى أن أيّ إضافة في الأبيات أو تخريجها أو شرحها يمثل إضافة للعمل البحثيّ، وهذا ربما ينسجم مع نظرته للتّراث، ومع الأدوات التي كنا نملكها للبحث في تلك الأيام، قبل أن تصبح

محرّكات البحث سندًا حقيقيًا للباحثين في جمع المعلومات أيًا كانت طبيعتها.

بعد حصولي على الماجستير، سافرت إلى الإمارات محاضرًا في جامعتها الأم، ولم تكن الهواتف المتحركة شائعة في تلك الأيام، فقلّ تواصلي معه، وكان الأخ الدكتور إسماعيل مروة من يتكفل بنقل السلام ورسائل الود بيننا، إلى أن أنجزت أطروحتي لرسالة الدكتوراه، فكرّمني المرحوم الدكتور شفيق بقبوله أن يكون عضوًا في لجنة الحكم على رسالتي للدكتوراه، وكنت ممتنًا له لملاحظاته القيمة التي قدمها بعين الأخ الناصح المحبّ، ملاحظات نابعة من علمه الواسع وروحه الصّافية، فزادتني نورًا على نور من بحره العميق.

وعندما أُتيحت لي فرصة الإشراف على طباعة كتابه القيّم "شرح اختيارات ابن مسافر" الذي حقَّقه بالاشتراك مع الأخ الدّكتور مقبل التّام الأحمدي، كنت أتواصل معه لإتمام بعض الأمور، فوجدته كما عهدته :متواضعًا، حييًّا، خجولًا، محيطًا بتفاصيل كتابه إحاطة العارف المتمكن.

وقد لمست خلال مراجعة الكتاب ما بذله المرحوم الدّكتور شفيق وشريكه في العمل الدكتور مقبل التام الأحمدي، أطال الله عمره، من جهد في تتبّع مخطوط الكتاب حتى وصلا إلى النسختين الشامية والعراقية، وأخرجا كنزًا مهمًا للقارئ العربي.

والحقيقة أنّ كتاب شروح اختيارات ابن مسافر من الأعلاق النّفيسة في بابه، فالقصائدُ المُختارة فيه من عيون الشّعر العربيّ، وشرّاحُها أعلامُ العلماء كالأصمعيّ ومُؤرِّج السّدوسيّ والأخفش والسُّكّريّ وثعلب وأبي العلاء المعرّيّ والتّبريزيّ وغيرهم، وبعضُ الشّروحِ يُتمّمُ كتبًا لم تصل إلينا كاملة كشرحِ قصيدة لأبي زُبيد الطّائيّ يُرجّح أنّها ممّا ضاع من شرح الأخفش للاختيارين، وشرحِ قافيّةِ رؤبة بن العجاج لأبي العلاء المعرّيّ، وهو مِن عيون شروح الشّعر ولم يُذكر بين مؤلّفاته، فتفرّد به هذا الكتاب، كما تفرّد بشروح قصائد أُخرى مثل زائيّة الشّمّاخ والقصيدة اليتيمة، وبعضُ الشّروح مأخوذٌ من شروح ضائعة للعلماء، مثل شرح ميميّة حُميد

الهلاليّ، وشرح قصيدتين للنّابغة يُرجّح أنّهما من شرح السّكّريّ لديوانه.

وتزيدُ الأبياتُ المشروحة على ألف وأربعمئة، لشُعراء جاهليّين ومخضرمين وإسلاميّين وأمويّين وعبّاسيّين، في أغراض عدّة؛ وتنوّعت أساليب العلماء الشُّرّاح واهتماماتهم، بين توسُّط يكشفُ معاني الألفاظ الغريبة والتّراكيب، وإسهاب جمٍّ الفوائد في اللُّغة والنّحو والصّرف والعروض وأحوال العرب، وعاداتهم وتاريخهم وأيّامهم.

وقد أبان الدّكتور شفيق وصديقه في هذا العمل عن محقّقين فذّين، سواء في تتبّع المخطوط ومؤلفه، أو تخريج نصوص الكتاب وشرحها والتّعليق عليها، وقدما نموذجًا يحتذى به في تحقيق النّصوص الأدبيّة والشعريّة.

لم يكن شفيق، كما تعودنا أن نناديه، يتوانى عن تقديم أي مساعدة نلجأ فيها إليه، وكان آخرها منذ أشهر حين استشرته في أمور ذات صلة بخبرته المجمعيّة، فجاءت نصائحه، كما عهدناه، موضوعيّة مشفوعة بالأدلة والبراهين.

كان رحيل الدكتور محمد شفيق البيطار صدمة كبيرة لنا جميعًا، فقد كنا نراه دائمًا شابًا في عطائه ونشاطه، ولم يكن يخطر ببالنا يومًا أنه سيغيب عنّا بهذه السرعة. فقد كان، رحمه الله، حاضرًا في كل تفاصيل حياتنا العلميّة والإنسانيّة، بروحه النقيّة وابتسامته التي تحمل الكثير من الطمأنينة، كنا نعتقد أنه سيبقى بيننا لسنوات طويلة، يثري العلم وطلابه بما لديه من خبرة ومعرفة قلّ نظيرها، فهو لم يكن مجرد أستاذ وباحث، بل كان أخًا وصديقًا للجميع.

لقد جاء رحيله المفاجئ ليُذكرنا بحقيقة الفقد، ويؤكد أن الأثر الذي يتركه الإنسان في قلوب من حوله هو الباقي.

لقد خسرنا برحيله قامة علمية كبيرة وشخصية نبيلة، كان لها أثر بالغ في إرشاد الطلبة وإثراء الساحة العلمية. خسارته ليست فقط خسارة لنا كأصدقاء وأحبة، لكنها خسارة للعلم وطلابه، الذين كانوا يجدون فيه قدوة ونبراسًا مضيئًا في دربهم.

وإنّني إذ أشكر للأخ الدكتور إسماعيل مروة جهده الطيب في إصدار هذا الكتاب ليكون إسهامًا منا جميعًا بتكريم الأخ والصديق الدكتور محمد شفيق البيطار، فإنّني أتمنّى أن يسعى من بيدهم الأمر، سواء في جامعة دمشق أو مجمع اللغة العربية، إلى مبادرة متكاملة لتكريم الراحل الكبير، تليق به وبإنجازاته بما قدمه للّغة العربية التي أخلص لها طول حياته.

رحمك الله يا شفيق، وجزاك خير الجزاء عما قدمت للعربية وأهلها، وجعل علمك النافع في ميزان حسناتك فقد كنت نعم العالم، ونعم المعلم، ونعم الصديق الوفي.

لقد رحلت بجسدك، لكن عطرك الفواح سيبقى بيننا، وسيرتك العطرة ستظل منارة خالدة تُذكرنا بمكارمك وطيب خصالك، وكأنك ما زلت هنا تهبنا من علمك ونبلك.

في الذَّاكرة

د. حسن الأحمد

محمد شفيق البيطار... اسم ليس من السهل أن يغادر ذاكرتك، وليس من السّهل أن تحيطه بالكلمات، على الرغم من زعمنا أنّنا نمتلك اللغة، أو نمتلك التجربة التي نستطيع بها معرفة الأشخاص.

مع البيطار أنت أمام عالَم من الدّهشة في كلّ مرّة تراه وتحادثه بها، يحيطك من اللحظات الأولى بشيء من السحر، على الرغم من قلّة الكلام وتشعُّب الأحاديث، كان كل ما فيه ينطق بالدفء، وتخرج في كلّ مرة تجالسه فيها بذلك الاطمئنان وتلك الغِبطة التي تدخل القلب لأن أتاحت لك الحياة أن تحظى بمعرفة مثل هذا النوع من الرجال الذي قد لا يتكرر في عمرك كلِّه.

محمد شفيق البيطار الأستاذ الدكتور والأكاديمي العميق والرصين، والعالم الموسوعي الفذّ، والشاعر عالي اللغة والرّمز، والسّلس سلاسة الأطفال الذين عايشوا شعره عقودًا، والمجمعيّ النِّدّ للقامات التي تعاقبت على عضوية مجمع اللغة العربية في تاريخه كلّه، وفوق ذلك كله الإنسان... بنقائه وأصالته ونبله وخلقه الرفيع.

سمعت به قبل أن أراه، وأحببته من غير أن يعرفني وأعرفه، وبعض البدايات قبل عقدين من الزمن لا تغادر الذاكرة كما غادرها أشخاص وأحداث كثيرة، ففي يوم مباشرتي مدرسًا في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق اختاروا لي مكتبًا في الغرفة ذاتها التي يجلس فيها د. شفيق البيطار، وأظنّ أنّ ذلك لم يكن مصادفة، إذ لا يستطيع المرء في بعض المواقف العصية على التفسير إلا أن يرجعها إلى التدبير الإلهيّ لا إلى المصادفة، آيةُ ذلك أن كُلّفت في اليوم التالي بمناقشة حلقات البحث مساعدًا لأحد الأساتذة لأنَّ الطلاب كثر، ولأنَّ الفصل الدراسيّ كان في نهايته، الأمر الذي لا يمكنني معه التّدريس في الاختصاص الذي عيّنت فيه، وكان د. شفيق

هو ذلك الأستاذ، كان عشرات الطلاب أمام مكتبه، وحوله داخل المكتب عدد غير قليل منهم، انتظرت حتى انتهى من مناقشة أحدهم، فحيَّيته، فوقف محيِّيًا بحرارة، وترك كرسيه ملحًا عليّ لأجلس مكانه، لأنَّ المكتب الآخر كان يشغله أحد الأساتذة، تحدّثنا قليلًا وكأنَّ حديثنا بين شخصين يعرف أحدهما الآخر دهرًا، بعدها خرج من مكتبه بحجَّة الاستراحة لبعض الوقت، لكنه في الواقع كان يبحث عن مكتب فارغ ليتابع المناقشات فيه، وبعد أن وجده أخبر الطّلاب الواقفين على الباب قائلًا: سيتابع معكم شريكي وهو أفضل مني وأكثر تقديرًا لجهدكم، وكان لنا بعد ساعات من المناقشة حديث طويل مع القهوة حديث صديقين كأنّ كل الودّ الموجود في العالم كان ثالثهما.

وتوالت اللّقاءات والأحاديث والأفكار والنقاشات في كلِّ هذه السّنوات، داخل الجامعة وخارجها، وكان لي شرف مناقشة عدد من الرسائل الجامعيّة برفقته أو بإشرافه، ومشاركته في بعض الندوات والفعاليات الثقافيّة، وفي كلِّ مرة كان ثمّة سؤال واحد لا يغادر تفكيري، من أيِّ طينة ومن أيِّ زمن هذا الرجل؟!

رجل يعرف تفاصيلك كلَّها من غير أن يسألك عن أيِّ واحد منها، يحترم خصوصيَّتك فلا يتدخَّل فيها إن تفتح له بابًا إليها، يحترم رأيك أيًا كان، في الوقت الذي كانت فيه آراؤه قلاعًا لا تستطيع أن تدخلها إلا ضيفًا.

رجل يتقبَّلك، على الرَّغم من اختلافكما في النظر في الحياة والناس، مادام يجمعكما شيئان لا أكثر، النقاء والإنسانيّة.

شفيق البيطار، لمن لا يعرفه عن قرب، فارس من زمن غير هذا الزَّمن، قد يشدُّك، أول وهلة، تواضعه الظاهر، وابتسامته الحزينة، وحياؤه المعجون بالوقار، لكنّك حين تدخل عالمه الواسع ستكتشف أنك أمام غابة من العلم والثقافة والإنسانيّة، محبوكة أرجاؤها بعقل

مستنير، كأنه ينظر من علٍ، فيحلّل ويركّب ويفسّر ويقنع، ولكن معظمنا كان يأبى الاقتناع أحيانًا، لنكتشف في النهاية أنّه كان الأقرب إلى الصواب منّا جميعًا.

في آخر حديث بيننا قبيل وفاته بأيّام، وكنا نتناقش في قضية، ومع كلّ اتفاقنا فيها رآها قريبة الحدوث، ورأيتها بعيدة، فقلت له: هل تعلم أن لديّ سؤالًا لك مؤجّلًا من سنوات؟ قال بابتسامته المعهودة: شوّقتني، هات لنشوف، قلت: من أين تأتي بهذا اليقين في كذا قضيّة نتناقش فيها، قال بلا تردُّد: من الله، صمتنا قليلًا، وأنا أقول بيني وبين نفسي: لا بدَّ من أن تكون هذه الإجابة إجابة العالم الربانيّ شفيق البيطار.

رحل كثر، لكن محمد شفيق البيطار لم يرحل، فمن يعلّم لا يرحل، وأنا على المستوى الشخصيّ تعلمت منه، وربّما منحني الثقة والحسم في كثير من الأشياء التي كنت متردّدًا فيها، وربّما حاولت محاكاته في غير سلوك، وغير محاكمة لأمر من الأمور.

يبقى الأخ والصديق والزميل أ.د محمد شفيق البيطار من القلّة التي لا تتكرّر في مسيرة حياتنا، ومن الأشخاص النادرين الذين يربطون بين القول والعمل، وما أصعب الحياة على من كان هذا منهاجه فيها.

شقيق الرّوح

د. حمّود يونس

لعل من أصعب أنواع الكتابة وأشقّها على المرء الكتابة الوجدانيّة، تلك الكتابة التي تتحدّث فيها عن قريب منك، حبيب أو صديق أو خليل، لتعبّر فيها ومن خلالها عما تكِنُّه لذلك القريب من مشاعر المحبة والمودّة والألفة، ولتصوّر أحاسيسك ومكنونات روحك تجاهه، فأنت إن بالغت في المديح والثناء، رماك الناس بتهمة المجاملة، لا بل قل الغلوّ الذي يصل عند بعضهم إلى درجة الكذب، ليروا بعد ذلك أنّ مديحك وثناءك لا يعدو أن يكون من باب، (وعين الرضا ....)، وفي المقابل فإن أنت قصرت في مديحك أو ثنائك فأنت عند فريق آخر بارد العاطفة، رقيق المشاعر، ولم تستطع أن تعطي ذلك القريب حقَّه، وما ينبغي له من حقوق العِشرة عليك، وعلى هذا فأنت في الحالتين كلتيهما غير مرضيٍّ عنك، ولا مقبول منك، وها هنا تتجه نحو رضا النفس عما تبوح به، وتبحث عن قناعة الذات فيما تقوله، ولعل هذا هو أهم ما ترمي إليه، وأنبل ما تبتغيه، وما ذاك إلّا لأنّ إرضاء الناس غاية لا تدرك.

من أين أبدأ؟ وكيف أبدأ؟ ماذا أقول؟ وماذا أكتب؟ والله إنّها لأسئلة صعبة، يشقّ على قلمي أن يجد إجابات عنها ترضيني أولًا قبل أن ترضي غيري، وتشفي صدري قبل أن تشفي صدور قوم آخرين، وما ذاك إلّا لأنّ من سأكتب عنه كان شقيقًا للروح وشفيقًا بالنفس، ورفيقًا للدرب، وخليلًا في وقت ندر فيه أن تجد خليلًا، إنّه أخي الذي لم تلده أمي، وصديقي النقيّ الذي لا يتكرّر في الحياة كثيرًا، ولا تجود الأيام بمثله إلا في القليل النادر، ورفيق درب طويلة امتد لسنوات تربو على ثلاثين عامًا، إنه أخي وصديقي الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار رحمه الله تعالى وغفر له وجعله في أعلى عليّين مع الشهداء والصالحين.

ومع أننا من نفس القرية من رأس المعرة، إلا أننا لم نلتق ولم أعرفه إلا في مرحلة الدراسة الجامعية، فقد كان يعيش مع أهله في دمشق، بينما كنت أعيش مع أهلي في القرية، وعندما انتقلت

إلى دمشق للدراسة الجامعية في قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، تعرفت إليه ولكن معرفتنا لم تكن وطيدة لأننا لم نكن نتقابل إلا لماما، وذلك لأنّني دخلت إلى الجامعة قبله بسنتين بحكم فارق السن بيننا، فأنا أكبره بسنتين، وعندما بدأت رحلة الدّراسات العليا توثقت عرى المودة بيننا أكثر، وصارت لقاءاتنا أكثر، وخاصة في بيت أستاذنا الدكتور علي أبو زيد، الذي كان يرعانا، ويساعدنا ويقف إلى جانبنا في رحلتنا العلمية، وكنّا كثيرًا ما نذهب إليه سويّة، ونرجع معًا إلى حيث كنّا نسكن في حيّ الدويلعة، وخلال ذلك كنا نتحدث فيما يطيب لنا أن نتحدّث فيه، في العلم والمجتمع والحياة وغير ذلك، وكانت تبدو عليه علامات الحياء الجميل اللطيف، فهو في حديثه رقيق، خفيض الصوت، تكاد لا تسمعه لشدة أدبه، واحترامه للآخرين، وكانت تندّ عنه بعض النكات الجميلة، والطرائف الماتعة، مع أن شخصيته كانت تميل إلى الجدِّ أكثر منها إلى الهزل، ولكنه كان لا يضع الجدّ حيث ينبغي أن يوضع الهزل، ولا يضع الهزل حيث يجب أن يوضع الجدّ.

وحياؤه الذي كان يتحلّى به وكان صفة واضحة من صفاته، والذي كان بتأثير تربيته الأسرية، والتزامه الدينيّ، لم يكن يعني أبدًا غياب الجرأة والصلابة في المواقف العامّة والخاصّة، فقد كان لا يخشى في الحق لومة لائم، ويصدح بكلمة الحق مهما كانت تبعاتها وعواقبها.

ثم حدث أن ناقش رسالته للماجستير قبلي، وكانت عن ديوان حميد بن ثور الهلالي جمعًا وتحقيقًا ودراسة، فقد كان مواظبًا على العلم والدّرس أكثر مني، فقد كانت عيناه كلتاهما على الكتاب وطلب العلم، أما أنا فكانت لي عين على العلم، والأخرى على الحياة، وهذا لاختلاف طبيعة كل منّا وطباعه وميوله وظروفه، فقد كان أقرب إلى الهدوء والدّعة، وأكثر ميلًا إلى العزلة والبعد عن الناس، وأكثر تدينا وورعًا وتقى، وكان مما أغبطه عليه من صفاته القناعة والرضا، فقد كان قنوعًا بما أعطاه الله، راضيًا بما قسمه له، لا تكاد تسمعه يشكو، أو تراه

يتذمر، مع أنَّ ما كان فيه ممّا يدعو إلى الشكوى أو التّذمّر الشيء الكثير، كان قنوعًا راضيًا في كل شيء إلا في طلب العلم، فقد كان لا يقنع منه بالقليل، ولا يرضيه منه اليسير، ولذلك كنت تراه دائم المجالسة للكتب، لا يكاد يفارقها إلا قليلًا، فهي مؤنسته ورفيقته في كل أوان، ولم يكن يهتم باختصاصه الدقيق وهو الأدب الجاهلي فحسب، بل كان يوسع معارفه، وينوع قراءاته، فكان علمًا لا يشقُّ له غبار في موسيقى الشعر وعروضه، وعنده من علوم اللغة والنَّحو والصَّرف الشيء الكثير الكثير، وله في التحقيق باعٌ لا يلحقه فيه أحد، ولا ينافسه فيه منافس، وكان إلى جانب ذلك كله خطاطًا بارعًا، وشاعرًا مجيدًا، مع أنه كان لا يرى نفسه بين الشعراء، ولم يكن راضيًا عن شعره تمام الرضا، ولعلَّ هذا من باب تواضعه الشديد، وهذه صفة أخرى من صفاته الواضحة في شخصيته، فقد كان متواضعًا تواضع العلماء، لا ترى منه كبرًا ولا اختيالًا، ولا زهوًّا في النفس، بل كان أشد الناس تواضعًا، يظهر ذلك في حديثه وفي حواراته وفي تفكيره، لا بل وفي حركات جسده وفي مشيته أيضًا، وكل ذلك من غير تصنع أو تكلف، بل من طبعٍ طُبِعَ عليه، ومن سجيَّة خلقت فيه.

وحدث أيضًا أن ناقش رسالته للدكتوراه قبلي أيضًا وكانت عن قبيلة كلب بن وبرة جمعًا وتحقيقًا ودراسة، وكانت واحدة من جملة من الرسائل التي نهض بها عدد من طلاب قسم اللغة العربية لجمع أشعار القبائل العربية بإشراف الأستاذ الدّكتور عبد الحفيظ السطلي رحمه الله، وكانت رسالته من أفضل رسائل الدكتوراه في هذا الباب، ثم سافر إلى المملكة العربية السعودية للتدريس فيها فبقي سنة واحدة ثم عاد إلى جامعة دمشق، في الوقت الذي سافرت فيه أنا أيضًا إلى السعودية، ولكنني بقيت فيها ستَّ سنوات، ثم عدت إلى جامعة حمص التي كنت قد عينت فيها معيدًا، وهذا يعني أننا كنّا نفترق أحيانًا، ونبتعد أحيانًا، ولكنّه فراق الجسد لا فراق الروح، وبعد المكان لا بعد المشاعر والأحاسيس.

وعندما انتقلت إلى جامعة دمشق بعد عودتي من العمل في السعودية رأى أن أكون معه في

مكتبه في قسم اللغة العربية، وها هنا بدأت رحلة جديدة من الألفة والمودة بيننا فقد كنا نلتقي في أغلب أيام الأسبوع، فكان الصديق الذي تذهب بيني وبينه مؤونة التكلف، إذ لم نكن نشعر بالحرج في الخوض في أي موضوع من الموضوعات، فكان يأتمنني على أسراره، وكنت آمنه على أسراري، وكم كانت تدور بيننا أحاديث صريحة وجريئة وهي عند غيرنا من الممنوعات والمحرَّمات التي يحظر الخوض فيها أو الكلام عنها.

وقبل سفره وسفري للعمل في السعودية، عرض عليّ العمل معه في شركة (سبيس تون للأطفال) مدققًا لغويًا، وكان يعمل في هذه الشركة وبقي فيها حتى وفاته رحمه الله، وكان يعرف ما بي من حاجة للعمل، فرحّبت بالعرض وشكرته عليه وهو السبّاق لكل خير، فكان هذا مثالًا أيضًا على محبته لأصدقائه، ومدِّ يد العون لهم، لا يبتغي من وراء ذلك إلا رضا الله ولا شيء سوى ذلك، وهذه صفة أخرى من صفات شخصيته الجميلة، وهي مساعدة الآخرين ونجدتهم، وهو في هذا لا ينتظر طلب المساعدة، بل كان يبادر من تلقاء نفسه، فهو لمّاح يرى وينظر ويراقب، ويعرف أحوال من حوله، سواء أصرّحوا بذلك أم لم يصرّحوا، ثم يهبّ لنجدتهم بما استطاع، بل وبأكثر مما يستطيع أحيانًا لأنّه كان مستعدًا لأن يحرم نفسه في سبيل تقديم العون لمن يحتاج، وإن وجد في نفسه بعض العجز عن تقديم ما ينبغي تقديمه أحيانًا، فإنه كان لا يتردَّد بالاستعانة ببعض أصدقائه الآخرين الذين يجد عندهم القدرة على المساعدة، وهذا ما يعرفه المقربون منه حق المعرفة، وهم لا يعرفون منه ذلك بل من الآخرين ممن كان يُقَدَّمُ لهم العون، فقد كان لا يجاهر بما يعطيه، ولا يباهي بفعل الخير، ولا تدري شماله ما قدمت يمينه، لأنَّ دوافعه في ذلك كلِّه رضا الله أولًا ورضا نفسه التي جُبلت على فعل المعروف ثانيًا، والشواهد على هذا كثيرة فعندما مرض بعض أصدقائنا واشتدَّ بهم المرض وضاقت بهم السبل، هبّ لنجدتهم ومواساتهم والوقوف إلى جانبهم فكان لهم بمنزلة الأخ العطوف، والصديق المخلص.

أخي الدكتور شفيق أيُّها الغائب جسدًا، الحاضر فينا روحًا وعلمًا وخلقًا، ماذا أقول فيك، وماذا أكتب عنك، وأنت عندي أكبر من كل قول، وأكبر من كل الكلمات، وأسمى من كل المعاني، وأعظم من كل القصائد، رحمك الله أيها الرجل القادم من زمن الصحابة الكرام، رحمك الله أيها الغريب في زمنه وعن زمنه وطوبى للغرباء. رحمك الله أيها الصادق النبيل الوفي النقي وغفر لك وأسكنك فسيح جناته وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

الدكتور محمد شفيق البيطار في مشاهد عشناها

د. عبد الكريم محمد حسين

لست أدري من أين أبدأ تلك المشاهد؟ فقد ضاعت اللحظة الأولى لتعارفنا، ولم أكن أؤرخ للقاء عابر، ولا اللقاءات المؤرّخة بمناسباتها، فأنا من أمّة تؤرّخ بالحدث، وتغفل عن المكان والزمان، وأقرب المشاهد إلى آخر لقاء بيننا في مكتبه، رحمه الله كلما ذكر.

الطاقة الشمسية همٌّ مشترك:

صباحًا مررت أمام مكتبه، وكان باب مكتبه مفتوحًا على نيّة الإغلاق، بل يكاد يغلق، أو كان مواربًا بين المفتوح والمغلق، فألقيت التحية الصباحية، ولمح ثقل وجهي وتراكم الهموم عليه، ولم أعد أدري أدعاني لاحتساء القهوة عنده على عادته؟ أو لم أعطه فرصة بإسراع الخطوات نحو مكتبي.

وبعد حين من الوقت سلم عليّ صديقي د. حسن الأحمد قبل نصف ساعة من محاضرتي، فقلت في نفسي: لم لا أذهب إلى الدكتور شفيق، وأزيل اللبس عنه؟!

لقيت في مكتبه حسنًا، وهو يتكلّم مع الدكتور مقبل الأحمدي، وسمع صوتي في إلقاء السلام، وأعاد المسمَع للدكتور شفيق، فطلب مقبل الكلام معي فتكلّمنا واطمأنَّ كل منا على الآخر.

وبعد انتهاء المكالمة، قال أخونا شفيق: أمزعوج مني أنت؟ قلت - وأنا أبتسم -: هل أحدثت أمرًا؟ قال: لا. قلت: بل أنا مثقل بهم بطاريتَي الطاقة الشمسية، وقد بلغ ثمنهما ثمانية ملايين وثلاثمئة ألف ليرة سورية. ولما جرى تركيبهما، كانتا بطاقةِ البطاريتين المنسقتين، ومعهما كفالة لمدة سنة. وهتفت بالمحل: فطلب عودتهما إليه لإصلاحهما وإعادتهما...وقال: اهتف بنا لاستلامهما السبت القادم...ولما هتفت قال: تحتاج إلى أسبوع آخر. فالبطاريات هندية، وستدفع ثلاثمئة ألف أجور تصليح. فقلت: وأين الكفالة؟ فقال: هذا الموجود.

وكلنا يعلم أن تجار الشام كفلاء بإفساد الدولة ودور العبادة فيها، ففي أيديهم مخافر الشرطة، وقضاة القصر العدلي الذين يحكمون وفق إملاء الهواتف الرباعية...وهذا سرٌّ ثقل وجهي وتراكم الهمِّ على رأسي.

ولا أدري هل حدثته عن حماية المستهلك والدكتور المتألق جهاد الناصر، وقد وعدني بحل المشكلة بأخذ بطاريتين جديدتين. وقد هتفت به من مكتب التاجر، فقال: أتتصل بهاتف الدكتور، فقلت: أجل. قال: خذ نوعًا آخر- أنت وحظك- كان هذا بعد اللقاء وانتهاء محاضرتي، وهذا سبب تجهُّمي وثقل وجهي.

فتبسم ابتسامته المعهودة، وقال: قصّتي قريبة من قصتك، فقد كانت معه ألواح الطاقة، والتقاه حاجز الفرقة الرابعة، وسألوه عن الفاتورة، وترك الألواح عندهم، وعاد بالفاتورة، فلم يجدها، فسألهم عن الألواح فقالوا له: أكلها الحوت. ومضى، وهو يحوقل. ولم يأت الثلاثاء الثاني إلا وقد ارتحل إلى ظل عدالة قدسية الأحكام والميزان.

صدأ الذاكرة:

كان أستاذنا عبد الهادي هاشم-رحمه الله- في سنة ١٩٧٧م يقول: من أصعب المشكلات معرفة البدايات. لعل أول مرة سمعت بذكر الدكتور شفيق البيطار في بيت الدكتور علي أبو زيد، بعد إعارته رسالتي نقد أعلام الرواة، واستأذنني في الأخذ عنها، وهي نقول مقيدة بتبويبها، ومصادرة الشيخ الدكتور عبد الحفيظ السّطلي-رحمه الله- لكل رأي أبديه ما لم يكن متكئًا على قول لأحد القدماء، والمطبوع لم أخرج فيه على شرطه إلا قليلًا.

وأذكر أن معرفتي بالأستاذ محمود البيطار سابقة على معرفتي بالدكتور شفيق، وأذكر أنه أهداني صورة من كتاب القصائد المفردات التي تومض بشكره كلّما رأيتها في المكتبة، وصارت تدعو له بالرحمة إلى يوم الدين، وأهداني ديوان حميد بن ثور في طبعتيه، وهو كذلك، وأهداني أشعار قبيلة كلب بن وبرة، وديوان أبي بكر الصديق، وأذكر أنني شككت في نسبة

الشعر لأبي بكر لقول ابنته عائشة -رضي الله عنهما-: ما قال الشعر لا في جاهليّة ولا في إسلام...ولم أعد أذكر أين قرأت هذا المعنى؟ فتقبل الأمر في الطبعة الأولى، ودافع عن نسبة الشّعر إليه في الطبعة الثانية؛ لأنَّ وزارة الأوقاف طلبت إليه أن يثبت الشعر له، وفي رأيي لا حجّة في ما قاله صاحب العمدة ولا غيره في شعره، فابنته أقرب إليه، وهي أدرى بأحواله، وأقواله، ولو كان نفيها لموضع خاص قاله لبينت خصوصيّة الحكم بذاك الشعر، ولم يكن ثمّة حاجة للعموم، فافترقنا مختلفين في أمر لا يفسد للودّ قضية.

وأذكر أنه كان يدرس في بيته أو بيت أحد طلابه في معضمية الشام بعض طلاب الدراسات العليا كتاب العمدة للحسن بن رشيق القيرواني، ورأيتها شجاعة منه...فإخواننا في الدراسات الأدبية يرون النقد ضربًا من الدراسة الأدبية، والأمر ليس كذلك، وهما فنان مختلفان، ويرون الضبط بالشكل يلزم المقالة الأدبية، وربّما رفضوا المقال إذا لم يكن مضبوطًا بالشكل، وهو من آثار التحقيق، والضبط إنما يكون باللفظ المشكل ما لم يضبط لا بكل حرف ولا بكل كلمة. مرة حدثته عن بعض الثعالب، وما كَشفتُ من وشاية بي، فقال: تلك سياسة، والسياسة ليس فيها "يا أمي ارحميني" ولو علمت ما صنعوه معي أنا، فماذا تقول؟ فقلت له: دعنا من ذكرهم، وما قالوه فيك وفي غيرك.

وكان رجلًا ورعًا لا يقبل بغيبة زملائه في مجلسه، ولم أسمعه يلوك لسانه فيمن بغوا عليه.

الرد على بندر عبد الحميد:

كنت مدقّقًا لغويًا في الأسبوع الأدبي، فجاءتني مقالة للأستاذ شفيق البيطار، يرد فرية الأستاذ بندر عبد الحميد في أنَّ النحو لا يصلح لسانًا، وكنت أرى رأي البيطار أن النحو ميزان القول في وزنه صرفيًا، وفي جمله نحويًا، وكنت في ذلك مَسوقًا برؤية أبي سعيد السيرافي ومناظرته متى بن يونس القنائي تلك التي أثبتها أبو حيان التوحيدي في الليلة الثامنة من ليالي

الإمتاع والمؤانسة وأن النحو منطق العرب الذي يعرب عن معانيها.

وأراد الأستاذ عبد النبي حجازي نصرة البيطار فاستكتب الدكتور مازن المبارك؛ ليكون حكمًا في القضية، فقال كلامًا مؤيدًا فيه (بندر عبد الحميد) في أنَّ النحو لا يعلّم اللغة، وكأن السيرافي والتوحيدي يحرثون في البحر، فأطفئت جمرة المعركة في مهدها، وامتنعت من الرد على المبارك وبندر معًا، وكانت مرحلة الملصقات (تقدمي، رجعي، مجدد، محافظ) تمنع من قول كلمة الحق، وكنت موافقًا على ما قاله البيطار -رحمنا الله وإياه- فكانت خطوة في الطريق إلى الحقّ.

فاصلة معترضة:

كنا إذا خلونا في مكتبي أو مكتبه، تحدثنا عن الليل وآخره، وكان أكثر مني تفاؤلًا بقرب الفجر بقرينة زيادة الفساد وطغيانه فوق السطح فلم يعد مستورًا، وكنت أقول له: بهذه المعارضة المخروقة إلى قياداتها لا يمكن أن يأتي الفجر إلا بمعجزة...ونفترق على أمل قريب التحقق عنده، فلم يدركه، وعلى أمل بعيد التحقق عندي فأدركته.

كان -رحمه الله- بلغ مبالغ العلماء في فنه وعلمه بالخطوط، ولاسيما المسند اليمنيّ، وقد تعلمه على يد الدّكتور مقبل التام الأحمدي، وكان ذا أذن موسيقية في العروض والقوافي.

وكان -رحمه الله- متواضعًا، مُكبًا على حاسوبه لا يشركه في هذه الصفة الحميدة سوى الدكتور عبد النّاصر عساف، والعبد الفقير إلى الله.

رحم الله شفيقًا في العالمين فقد كان عالمًا من العلماء الربانيين، وكان يضع جناحه لطلاب العلم، ويصبر عليهم... رحم الله أيامه وخطاه، وما أبداه وما بناه، وبارك له في ذريته، وبارك لهم بآثاره الطيبة في الناس وعلمه النافع، ونفعنا جميعًا بما أعطاه.

كنّا معًا

في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق

د. عبد النّاصر عسّاف

كان من قَدَرِ الله عليَّ وعلى أخي الدكتور محمّد شفيق البيطار – رحِمَهُ الله– أن يَجمَعَ بيننا بزمالةٍ فصداقة فأُخُوّةٍ أكثرَ من أربعين سنةً، وكان مبتدأ ذلك سنة ١٩٨٣م، حين جَمَعَتْنا مقاعدُ الدّراسة الجامعيّة في قسم اللّغة العربيّة في كليّة الآداب بجامعة دمشق، وكان ذلك قدرًا مقدورًا؛ إذِ استَجَبْتُ يومَئِذٍ لميلٍ قديمٍ متجدِّدٍ في نفسي إلى اللّغة والأدب، ودخَلْتُ في هٰذا التّخصُّص، معَ أنّ شهادتي الثّانويةَ (البكالوريا) بفَرْعِها العلميّ كانت تَسمَحُ لي بالتّسجيل في بعض الفروع العلميّة الجيّدة الّتي يتراكض إليها الناسُ ويَزدَحِمون على أبوابها ازدحامًا. وكانَ الأخ محمد شفيق في هٰذا القسم الخِرّيجَ الأوّلَ وكُنتُ بعدَهُ.

ثُمَّ كانت مرحلةُ دبلوم الدّراساتِ العليا؛ فجَمَعَتْنا في ذلك شُعبةُ الأدبِ والنّقدِ، وكان من مُفاجآت القَدَرِ في تلك السّنة أن أَعلَنَتِ الجامعةُ مُسابقةً لتعيين مُعيدَيْنِ في تخصُّصَيِ الأدب الجاهليّ والنّحْو والصَّرْف في قسم اللّغة العربيّة بدمشقَ، وكان ما كانَ، فأُعطِيَ ما أرادَ، وهو الأدب الجاهليّ؛ لكونِهِ الأوّلَ، وأُعطِيْتُ التّخصُّصَ الآخر الّذي لم أكن لي ميلٌ إلَيهِ، لكوني التّالي، وصَدَرَ تَعيينُنا مُعيدَينِ في قسم اللُّغة العربيّة في قرارٍ واحدٍ؛ فحال ذلك دون متابعتي للدّبلوم الأدبيّ، وكان عليّ أن أُعِيدَ الدُّبلومَ في شُعبَتِهِ اللّغويّة في السّنة التّالية، وبذلك سَبَقَني أخي الدكتور محمّد شفيق البيطار بسنةٍ، فحصل على الدّبلوم قبلي، واستمرَّتِ الحال على ذلك في مرحلتَيِ الماجستير والدّكتوراه، فكانَ الفاصل بيننا في ذلك تعيينًا وأداءً للخدمة العسكريّة الإلزاميّة سنةً دراسيّة.

ثُمَّ كان لنا موعدٌ مع السّفر معًا عام ٢٠٠١م، إذ قُبِلْنا في مسابقة التّدريس في كليّات المعلّمين السّعوديّة، فكانَ في مكّةَ المكرّمةِ، وكُنْتُ في أبها، وقد سافرنا معًا على متن طائرة

واحدة حطّت بنا في جدّة. وقد رأيتُ من أمرِهِ يوم فارَقَ أهلِه وأحبّتَهُ ما يَدُلُّ على فيضٍ عاطفته وكُرهِهِ للسَّفَر والاغتراب؛ فقد أُجهِشَ بالبكاء حين كان يُودّع أهلَه وأخوتَه وأقاربه، وبكى بكاءً شديدًا لم أعهَدْهُ من قبلُ في الرّجالِ، وهذا ما يُفسِّرُ رجوعَهُ من مكّةَ المكّرمةِ بعد عامٍ واحدٍ من سَفَرِهِ، كأنَّهُ لا يَعِيشُ كما يُحبُّ إلّا في هواءِ وطَنِهِ، ولو كان العيشُ فيه مُرًّا.

ومَضَتِ الأيّامُ والأعوامُ تَجمَعُنا في قسم اللّغة العربيّة بدمشق، ثُمّ كان من أمر الله فيَّ أن أُنتَخَبَ عُضوًا مراسلًا فعضوًا عاملًا في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق عامَ ٢٠١٦م، وقد كُنْتُ أظنُّ أنَّي سَبَقْتُ الدّكتور محمّد شفيق البيطار بذلكَ، حتّى أخبرني أنَّ أحد المَجمَعيّينَ طَلَبَ منه حين كانا يُدرّسانِ معًا في معهد الفَتْحِ بدِمشقَ سِيرَتَهُ لترشيحِهِ عضوًا عاملًا في المجمع؛ لكنّهُ رفضَ ذلك، ولم يُجِبْهُ إلى مطلَبِهِ؛ لأنَّهُ لم يكُنْ يأنسُ بذلك الرّجُلِ، وكانَ يَنفِرُ منه، ويرى أنَّهُ –أي: ذلك المجمعيّ المقصود– ليس أهلًا أن يكون في المجمع، وأنّ وجودَه في المجمع قد يَضُرُّ. وكُنّا كُلّما فاتَحْنا أستاذَنا الدّكتور مازنَ المبارك بترشيح الدّكتور محمّد شفيق البيطار ليكون عضوًا عاملًا في المجمع أجابنا بأنَّ بعضَ الزّملاءِ عَرَضَ علَيه ذلك من قبلُ فرفَضَ.

حتّى إذا كان مَطلِعُ عام ٢٠٢٢، وكانت حاجةُ المجمع ماسّةً إلى عضوين عاملين مُتخصِّصَينِ في اللّغة العربيّة وآدابها، أو إلى ثلاثة، بعد وفاة زميلين متخصّصين باللّغة العربيّة، وهما الزّميلانِ: الدكتور عبد الإله نبهان، والدّكتور ممدوح خسارة، وكنا في اجتماع لجنة اللُّغة العربيّة وعلومها، عَرَضَ علينا الأستاذُ الدّكتور مازن المبارك –حفِظَهُ الله– ترشيحَ الدّكتور محمّد قاسم، وقَرَأَ علَينا سيرتَهُ العلميّة، فوافَقْنا على ذلك بسُرورٍ، فهو أهلٌ لذلك، لكنّي والأستاذَ الدّكتور وَهْب روميّة –رحِمَهُ الله– طلَبْنا منه ترشيحَ الدّكتور محمّد شفيق البيطار أيضًا، فما كانَ منه إلّا أن أَثنَى على الدّكتور البيطار ثناءً طيّبًا، واستَدرَكَ قائلًا: لكنْ شفيق لا يُريدُ ذلك، وقد عُرِضَ ذلك علَيه فرَفَضَ؛ فما كان منّي ومنَ الأستاذِ الدّكتور وَهْب إلّا أن أخبرناه بأن يَترُكَ أمرَ إقناعِه، وثَنْيِهِ عن قديم رأيِهِ علينا، فرُشّحَ في الجلسة الّتي عُقِدَت أصلًا

لترشيح الدكتور محمّد قاسم، وكان ما كانَ. وهٰذه الجلسة مثالٌ على أمرٍ كان مفعولًا، فقد عُقِدَتِ الجلسة من أجل ترشيح الدكتور محمّد قاسم، وكان الانتخابُ بعد مُدّة قصيرةٍ من نصيبِ المرشّح الطّارئ الدّكتور محمد شفيق البيطار، لا المرشّح الأصيل.

وقد كان انتخاب الدّكتور محمّد شفيق البيطار في جلسة مجلس المجمع المنعقدة يوم الأربعاء:١٦/٣/٢٠٢٢م. وكان من رَغبَةِ الدّكتور محمّد شفيق البيطار تأخِيرُ حَفْلِ استقبالِه عضوًا عاملًا في المجمع، مع أنّه كانَ الأوّل ترتيبًا في المرسوم الّذي صدر باعتماده ومَنِ انتُخِبَ مَعَهُ، وقد حَمَّلني هٰذه الرّغبةَ، ورُبَّما حاول بعضُ المجمعيّين أن يكون الأوَل استقبالًا وإن كانَ أقلّ القوم المنتخَبينَ أصواتًا، ولم يكنِ الأوَّل بينهم في المرسوم ترتيبًا. حتّى إذا عَرَضْتُ ذلك على رئيس المجمع في جلسة مجلس المجمع الثّامنةِ عام ٢٠٢٢م المنعقدةِ يوم الأربعاء: ٢٤/شوّال/ ١٤٤٣هـ = ٢٥/٥/٢٠٢٢م كانَ جوابُه: «القانون هو إقامة حَفَلاتِ الاستقبال حسب ترتيب الأسماء الواردة في المرسوم». وهذا ما كانَ.

وهٰذه قِطعَةٌ من خُلُقِ الدّكتور محمّد شفيق: التّواضُعُ والزّهدُ بأثوابِ الشُّهرة ومظاهر الاحتفال وما يَصحَبُها من ضجيجٍ وضوضاءٍ، فقد كان يُحبُّ منَ الأشياءِ أعماقَها وجواهِرَها وحقائقها، وينأى بنفسِه عن سَفاسِفِ الأمور وزُخرُفِها وقُشُورها.

وانخرط الدّكتور محمد شفيق البيطار في أعمال المجمع وأنشطتِه بإخلاصٍ وأمانةٍ، وهٰذا المعروف من أمره فيما يُوسَّدُ ويُوكَلُ إليه ويَقومُ عليه، يُؤدّيهِ بإخلاصٍ، ويكون فيه أمينًا كما ينبغي أن تكون الأمانةُ، ويَجتَهِدُ فيه، ولو جارَ في ذلك على نفسه وصِحّته ووَقْتِه ومالِهِ وأهلِهِ. كانَ ذلك في اللّجانِ الّتي كانَ فيها، وهي: لجنة اللُّغة العربيّة وعلومها، ولجنة المخطوطات، ولجنة المعجم التّاريخيّ، ولجنة المجلّة، ولجنة النّشاط الثّقافيّ، وفي مجلس المجمع، وفي مشاركات المجمع الخارجيّة مع مجمع اللغة العربية في القاهرة في بعض مؤتمراته.

وكان يبدو منَ الدّكتور البيطار أحيانًا في أثناء التحاقِهِ بركْبِ المجمع، ولا سيّما في

المرحلة الأولى شيءٌ من «تململٍ» وضِيقٌ ممّا بدا له في المجمع، وقد حدّثني غيرَ مرّةٍ برَغبَتِهِ في الاستقالة، فكنتُ أَثنِيهِ عن ذلك؛ لأنّ في بقائه مَصلحةً مُحقّقةً للمجمع، وخِدْمةً للُّغة العربيّة لا يُحقّقُهما غيرُه. وأكثرُ ذلك كان إذا كان في المجمع ترشيحاتٌ وانتخاباتٌ. وقد سَمِعْتُه غيرَ مَرّة يُعلِنُ تَبرُّمَه واستياءَهُ من سَعْيِ بعضِ النّاس الشّديد إلى ترشيح بعض الأشخاص ليكونوا أعضاءً عاملين أو مراسلين في المجمع بناءً على العلاقات والانتماءات الضّيِّقة بعيدًا عنِ مصلحة المجمع الحقيقيّة، وحاجتِهِ الفِعْليّة، وعن خِدمةِ اللّغة العربيّة؛ وما كان يُخالِطُ ذلك -أعني الترشيحَ والانتخاباتِ- أحيانًا ويَصدُرُ عنهُ من غُبارِ خِصامٍ وحَساسياتٍ شَخصِيّة بين بعض الأشخاص يُشبِهُ أن يكونَ دُخانَ فِتنةٍ.

ومن هنا كانَ حَرْبًا على ترشيح أشخاصٍ مُعيّنينَ لعضويّة المجمع سواءٌ أكانَ ذلك في باب الأعضاءِ المراسلينَ أم كان في باب الأعضاء العاملين، ومُناوِئًا لذلك أشدَّ ما تكونُ المناوأةُ. ومن أولئك أستاذٌ جامعيٌّ كان -كما قال لي الدّكتور البيطار نفسُهُ- لا يَترُكُ فرصةً سانحةً إلّا طَعَنَ فيها بالإسلام والمسلمين، وأزرى بالعربيّة والعرب إزراءً شديدًا، حاولَ بعضُ النّاسِ أن يُرشّحوه عضوًا عاملًا تارةً، وعضوًا مراسلًا تارةً أخرى، ولم يُفلحوا. فأنّى يكونُ ترشيحُ مثلِ هٰذا الشّخص للمجمع وانتخابُه خدمةً للّغة العربيّة، وأهلها، وفي مصلحة المجمع؟!

ومن هنا أيضًا أعلَنَ في جلسة مجلس المجمع الثّامنةِ من عام ٢٠٢٤م (الأربعاء:١٤/ذي القعدة/١٤٤٥هـ=٢٢/٥/٢٠٢٤م) أنّنا يجب أن ننظر إلى المرشّح الّذي نُرشّحه وننتخبه عضوًا مراسلًا في مجمع اللّغة العربيّة بدمشقَ من ناحية خِدْمتِهِ للُّغة العربيّة في أيِّ مجالٍ، وإن لم تكن لهُ مؤلّفاتٌ باللّغة العربيّة؛ وبناءً على ذلك اقْتَرَحَ ترشيحَ جمعة الماجد عضوًا مراسلًا في المجمع؛ لأنَّهُ يَقُودُ مُؤسّسةً عالميّة قدّمَتِ الكثيرَ في خدمة اللّغة العربيّة.لكنّ اقتراحَهُ مَرَّ مُرورَ الكرامِ، ولم يُلتَفَتْ إلَيه.

وقد كان من هٰذا القبيل في الدّفاع عن مصلحة المجمع واستقلاله لتحقيق أهدافه على الوجه المَرُوم، بعيدًا عن تَدَخُّل بعضِ القوى المؤثّرة فيه أو في بعض المؤسّسات الّتي تَتْبَعُهُ تدخُّلًا لا فائدةَ منه أنِ اعْتَرَضَ الدّكتور البيطار –رحِمَهُ الله– اعتراضًا شديدًا على ما تَرَدَّدَ في بعضِ جلساتِ مجلس المجمع منَ الاستعانة بالأمانة السّوريّة للتّنمية للإشراف على استكمال ترميم بيتِ القُوّتليّ وصِيانة المكتبة الظّاهريّة التّابعين لمجمع اللّغة العربية، واستثمارِ ذلك الاستثمارَ المناسب بعد الانتهاء منَ التّرميم؛ لأنّ هٰذه (الأمانة) ليسَتْ بأمينة، وهي مؤسّسة تسعى سعيًا إلى تحقيق مآربَ وأغراضٍ خاصّةٍ لأشخاصٍ يقفون وراءها، وقد تَضَعُ يَدَها على ما تُشرِفُ علَيه، فيكونُ لها أو كأنّه لها، تَتَحَكَّمُ فيه، وتَتَصَرَّف على هواها تَصَرُّفَ المالك، وتَمتَصُّ خيراتِهِ ومَنافعَهُ.

ولا بأسَ من أن أَذكُرَ شيئًا يَسيرًا يَدُلُّ على بعض مُشاركَتِهِ في أعمال المجمع في السّنوات الثّلاثِ الّتي التَحَقَ فيها بالمجمع من فِعْلٍ أو رَأْيٍ أو مَوْقِفٍ:

* كان من آثارِ مشاركته في لجنة المخطوطات أن عُنِيَ بتكليفٍ من رئيسِ لَجنة المخطوطات الأستاذ الدّكتور محمود السّيّد بمخطوطٍ في مكتبة المجمع ضَمَّ مَجموع مَقالاتِ رئيسِ المجمع الأسبقِ الأستاذِ خليل مَرْدَم بك رأى الدّكتور البيطارُ أن يُسمِّيَهُ (جَمْهَرة مقالات خليل مردم بك)، فراجعه بدِقّةٍ وأمانةٍ وإخلاصٍ، على الوَجْهِ المناسبِ ضَبْطًا وتدقيقًا وتعليقًا، وقد فَرَغَ منه بعد ما يَزيدُ على خمسة أشهرٍ، ولم يَبْقَ من وجوه خِدْمَتِهِ إلّا إعدادُ فهارسَ شاملةٍ رَغَبَ في أن يَنهَضَ بها غيرُه؛ لرَغْبَتِهِ في مُتابعة تحقيق كتابٍ كانَ يُحقّقُه من أَقْدَمِ ما وَصَلَ إلَينا من كُتُبِ القَرْنِ الثّاني الهجري كما قالَ في التّقرير الّذي قَدَّمَهُ إلى لجنة المخطوطات مُؤرَّخًا بـ٧/شعبان/١٤٤٥هـ=١٧/٢/٢٠٢٤م.

* رأى الدّكتور محمد شفيق البيطار في جلسة لجنة النّشاط الثّقافيّ الأولى من عام ٢٠٢٣م: (الأحد:١٦/جمادى الآخرة/١٤٤٤هـ=٨/١/٢٠٢٣م) أنّ اللّهجةَ العامّيّةَ هي

مُستوى ثانٍ ممّا يَتكلّمُ به النّاسُ، وأنّ وجودَها وانتشارَها في المجتمع لا يَضِيرُ اللُّغةَ الفصحى، بشَرْطِ ألّا تُدوَّنَ بها الأمور العلميّة والرّسميّة، وأنّ انتشارَ العامّيّة في بعض فنون الشّعر والغناء ليس جديدًا، فقد كان له سابقةٌ في العصور المتقدّمة، ولم يُنكِرْهُ العلماءُ ولم يُحاربوه؛ لأنّه ابنُ زمانه، ومَعَ مُرورِ الزّمن يَندَثِرُ.

* رأى في جلسة مجلس المجمع الأولى من عام ٢٠٢٤م (الأربعاء:٢٩/جمادى الآخرة/ ١٤٤٥هـ=١٠/١/٢٠٢٤م) في سِياق الكلام على النّدَواتِ المقترحةِ «أنَّ الأَدَبَ الشّعبيَّ موجودٌ، ونحن لا نُروِّجُ لهُ، لكنّنا لا نَقِفُ حاجزًا في وَجْهِهِ؛ لأنَّهُ يُعبِّرُ عن تُراثِ شَعْبٍ، وفيه منَ المعاني العميقةِ والصُّوَرِ الرّائعةِ ما يَجعَلُهُ غَنيًّا».

* كانَ ممّا قالَه في جلسة مجلس المجمع السّابعةِ والعِشرينَ المنعقدة عام ٢٠٢٢م (الأربعاء: ٢٤/جمادى الأولى/١٤٤٥هـ=٦/١٢/٢٠٢٢م) في سِياق الكلام على التَّمكِينِ للُّغة العربيّة: «إنّ تعليمَ اللّغة العربيّة ضعيفٌ في الجامعاتِ كلِّها، وإنَّ المشكلة أكبرُ من ذلك؛ فجُذورُها تَعودُ إلى تعليم اللّغة العربيّة في المراحل الأولى، بسبب عدم تأهيل المعلّمين وإعدادِهم إعدادًا جيّدًا، وبسبب خللٍ في المناهج وطريقةِ عَرْضِها للمعلومة، وإنَّ لبرامجِ الأطفالِ النّاطقةِ باللّغة الفصحى في زَرْعِ حُبِّ هٰذه اللّغةِ في قلوب الأطفال، وجَرَيانِ الكثيرِ من أساليبها على ألسِنتِهم في حياتهم اليوميّةِ دورًا قويًّا».

* كانَ آخرُ ما اقترَحَ عليَّ مُناقشَتَهُ وبيانَ الرّأيِ فيه في لجنة اللّغة العربيّة وعلومها جَوازَ بناءِ اسم المكان على وزن "فعّالٍ"، وكتابةَ تنوينِ النّصْبِ على ما قبلَ الألف، لا على الألف. كانَ ذلك بُعَيدَ تَعقِيبِهِ على ملاحظاتِ لرئيس المجمع الدكتور محمود السّيّد تَعَقَّبَ بها بعضَ ما وَرَدَ في (معجم أسماء الأمكنة) الّذي أَعَدَّتْهُ لجنةُ ألفاظ الحضارة في المجمع، ومن ذلك كلمة "تَبّان" بمعنى المكانِ الّذي يُجمَعُ فيهِ التِّبنُ ويُحفَظُ، ورأى رئيس المجمع أنّها لا تَصلُحُ أن تَكونَ اسمَ مكانٍ. وكان ذلك في جلسة مجلس المجمع الرّابعَةَ عَشْرَةَ منَ العام الماضي

(الأربعاء:٢٧/ربيع الآخر/١٤٤٦هـ= ٣٠/١٠/٢٠٢٤م)

* من آخر ما نبَّهَ علَيهِ ما كانَ في اجتماع لجنة النّشاط الثّقافي في الجلسة التاسعة (الأحد:٨/جمادى الآخرة/١٤٤٦هـ=١٠/١١/٢٠٢٤م) إذِ انْتَقَدَ –رحمه الله– في مناقشة المحاضرة الّتي ألقاها في المجمع أحدُ الزّملاء المجمعيّين، وهو د. أحمد قدّور، بعنوان (في علم اللّغة الاجتماعيّ) يوم الأربعاء ٣٠/١٠/٢٠٢٤م ما وردَ فيها من وَصْف اللّغة العربيّة قبل الإسلام بأنّها كانَتْ لُغةَ بداوةٍ، «وذكَرَ أنّ الدّكتور قدّور كرَّرَ هٰذه الفِكرةَ غَيرَ مرّةٍ، ورأى –أيِ: الدّكتور محمّد شفيق– أنّ اللّغة العربيّةَ لغةٌ حضاريّةٌ، وواقعَ العَرَبِ في الجاهليّة يُؤكِّدُ أنّهم كانوا أهلَ حَضَرٍ أكثرَ من كونهم أهلَ باديةٍ، ونُقِلَتْ عنهم حِرَفٌ وصناعاتٌ عظيمةٌ تَدُلُّ على استقرارهم كالتّعدينِ والنّسيج وغيرِ ذلك».

وبمثل ذلك كان قد عَقَّبَ على محاضرةٍ سابقةٍ للزّميلِ نفسِهِ ألقاها يومَ الأربعاء الموافق ٢٦/١٠/٢٠٢٢م في المجمع بعنوان (المعطيات الاجتماعيّة وأثرها في اللُّغة العربيّة ومنهجيّتها) تردّدَ فيها شيءٌ من ذلك، فقد رأى الدّكتور البيطار حِينئذٍ في جلسة النّشاط الثّقافيّ الثّانيةَ عَشْرَةَ من عام ٢٠٢٢م (الأحد:٥/ربيع الآخر/١٤٤٤هـ=٣٠/١٠/٢٠٢٢) «أنّ في المحاضرة مَفاهيمَ ومَبادئَ يجب تصحِيحُها؛ إذ كانَتْ قائمةً على تَصوُّرٍ نَمَطيٍّ للزّمان والمكان والعَرَبِ أنفُسِهم، هٰذا التّصوُّر حَصَرَ اللّغةَ العربيَّةَ بالزّمن الجاهليّ، ومنَ المعلوم أنّ زَمَنَها أَقدَمُ بكثيرٍ، كما غَلَّبَ الطَابَعَ البَدويَّ على العرب معَ أنّ قِسْمًا كبيرًا منهم سَكَنُوا المدُنَ الكبرى وصَنَعُوا حَضاراتٍ عظيمةً، وكانَتْ لهم تجارتُهُمُ العالميّةُ».

وقد كان من أثَرِ ذلك أنِ اقترَحَ الدّكتور محمود السّيّد رئيسُ المجمعِ على الدّكتور محمّد شفيق إلقاءَ مُحاضرةٍ في نهاية الشّهر الّذي كانَتْ فيهِ جَلسةُ النّشاط الثّقافي التّاسعةُ المنعقدةُ عام ٢٠٢٤م، أي: في نهايةِ شَهْرِ تشرينِ الثّاني (نوفمبر)؛ وقد وافقَ الدّكتور البيطار على إلقاء المحاضرة بعد التّشاور، واقترحَ عنوانًا لها (اللّغة العربيّة بينَ البداوة والحضارة)، ووافقتِ

اللّجنة على ذلك في تلك الجلسة. وهو ما وافقَ علَيه مجلس المجمع في جلستِه الخامسةَ عَشْرَةَ (الأربعاء:١١/جمادى الأولى/١٤٤٦هـ=١٣/١١/٢٠٢٤م).

وقد تبادلنا في مَكتَبِهِ في قسم اللغة العربيّة غَيرَ مَرّةٍ أطرافَ الكلام على مَوضوع المحاضرة الّتي كان يُعِدُّ لها، وكان يَسعى في ذلك جاهدًا إلى استقراء الألفاظ والمعالم الحضاريّةِ الدّالّةِ على أنّ للعرب في الجاهليّة حضارةً لها أُسُسٌ واضحةٌ منَ الظّلْمِ تجاهُلُها، وكُنْتُ أُشِيرُ علَيه بالتّنبيهِ على أنّ هٰذا الحُكْمَ (التُّهمة)؛ أي: وَصْفَ اللّغةِ العربيَّةِ بأنّها لُغةُ بداوةٍ من أحكام بعض المستشرقين الّتي نَقَلَها عنهم بَعضُ العَرَبِ وتَبنَّوْها، ومنهم سلامة موسى، ولاكَها بعضُ الباحثين وردَّدُوها في أبحاثهم، وأنَّ تَسَلُّلَها إلى كلام الزّميلِ في مُحاضَرَتَيهِ رُبّما كان من قبيل السَّهْوِ والغَفْلَةِ، أو من باب التّقليدِ والمتابعةِ الّتي لا تَحقيقَ فيها.

وكانَ آخرُ ما عَلِمْتُهُ منه قبلَ أُسبُوعَينِ من موعِدِ المحاضرةِ أنّهُ كَتَبَ في ذلك عِشرينَ صَفحةً، ولن يَزيدَ عليها. ثُمّ كانَ مُصابُهُ الّذي غَيَّبَهُ عنِ النّاسِ، وأَلْزَمَهُ المشفى، وكان مَوتُهُ، ومن خَفِيِّ قضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ أن يَكونَ جِهازُه ودَفْنُهُ في اليوم المُحدّد لمحاضرتِهِ تلك، فسُبحانَ اللهِ العليِّ العليمِ.

* كانَ من رأيِ الدّكتور البيطارِ في جلسةِ مجلسِ المجمعِ تلك - وهي آخرُ جلسةٍ له في المجمع- أن يكونَ من وُجُوهِ مُعالجةِ قِلّةِ عَدَدِ الحُضُورِ في المحاضراتِ التَّخَصُّصيَّةِ الّتي تُلقى في مجمع اللّغة العربيّة بدمشق نَقْلُ تلك المحاضراتِ التّخصُّصيّةِ إلى قاعات الجامعة ومُدرّجاتِها، وأن تكون بالتّعاون بين المجمع والجامعة.

* كانَ من أَمْرِهِ التّنبيهُ المتواصلُ على أن أُعوَّضَ تَعويضَ تَنقُّلٍ مناسبٍ لما أَتَحَمَّلُهُ من تكاليفَ ماديّةٍ باهظَةٍ جَرّاءَ انتقالي ما بينَ درعا ودمشق عند حضورِ اجتماعات مجلس المجمع ولجانِه، وقد مَرَّ عليَّ في ذلك بِضْعُ سِنينَ ما كُنْتُ فيها لأَطلُبَ ذلك من أحدٍ مهما كانَ الأَمْرُ، لكنَّ حساسيةَ الدّكتور البيطار -رحِمَهُ الله- وإحساسَهُ بالآخرين أبَتْ إلّا أن تُثيرَ الأمرَ مِرارًا.

وكان آخرُ تنبيهِ له على هٰذا الأمر –جزاه الله خيرًا– في جلسة مجلس المجمع العشرين عام ٢٠٢٢م المنعقدةِ يومَ الأربعاء ٧/جمادى الأولى/١٤٤٤هـ=٣٠/١١/٢٠٢٢م. وقد وَعَدَ رئيسُ المجمع فيها بمناقشة ذلك في مكتب المجمع، وهو ما كان، وكان فيه شَيءٌ منَ الخير والإحسان لا يُنكَرُ؛ فجزى الله خيرًا مَنْ دعا إلى ذلك وأصرَّ علَيهِ ورَحِمَهُ وغَفَرَ له، وجزى مَنْ ساعد على ذلك، ومَنْ أَنجَزَهُ.

ولسْتُ أنسى هنا التّنبيهَ على أمرٍ حَرِصَ علَيهِ منذُ دَخَلَ المجمعَ، يَشهَدُ له بالخير والبَذْلِ والإحساس بالآخرين؛ فقد كانَ يُوزّعُ نِصْفَ تَعويضِهِ المجمعِيِّ الشّهريّ آخرَ كلِّ شَهْرٍ على بعض الموظّفين في المجمع، يُودِعُهُ عندَ إحدى الموظّفاتِ فتُوزِّعُهُ على مَنْ تَعرِفُ من زملائها وزميلاتها. وقد كان ذلك سِرًّا – أو قريبًا من ذلك– لا يَعلمُهُ إلّا قِلّةٌ، حتّى إذا ذُكِرَ في جلسةٍ من جَلَسَاتِ مجلس المجمع أنَّ أَحَدَ الزّملاء، وهو الدّكتور إياد الشّطّيّ رَفَضَ أن يتقاضى تَعويضَهُ الشّهريَّ منذُ أنِ التَحَقَ برَكْبِ المجمع، وأنَّه تركَهَ للمجمع رأى أمينُ المجلس الأستاذُ زياد حِلمي أن يُعلِنَ أمرَ الدّكتور محمّد شفيق البيطار، وهو من أولئك القلّةِ الّذينَ كانوا يَعرِفونَ ذلك، فذاعَ وعُلِمَ، واللهَ أدعو أن يَكونَ كلُّ ذلك ذُخْرًا له وشَفيعًا عندَ ربِّهِ يومَ الدِّينِ.

رَحِمَ الله أخي وصديقي وزميلي الدّكتور محمّد شفيق البيطار، وغفَرَ له زلّاتِهِ، فقد كان صُوَّةً ومَنارةً مُتميِّزةً في عِلْمِهِ وأخلاقه، وكان سبّاقًا إلى المعروف والخيرات، وقد سَبَقَني فيما يَتنافَسُ فيه الزّملاءُ، بل سَبَقَني فيما لا يَدَ فيه لأَحَدٍ منَ البشَرِ، وهو الموتُ. وأدعو اللهَ أن يَجمَعَني بهِ مَعَ الشُّهداءِ والصِّدِّيقينَ، وحَسُنَ أولئكَ رَفيقًا. والحمدُ لله رَبِّ العالمينَ أوّلًا وآخرًا.

درعا/ غرّة شهر رمضان/١٤٤٦هـ=١/آذار/٢٠٢٥م

الغربةُ فقدان الأعلام؛ فقدان الدّكتور محمّد شفيق البيطار غربة

د. علي إبراهيم كردي

بسم الله الرحمن الرحيم

انثلمَ برحيلِ أخي وصديقي الأستاذ الدّكتور محمد شفيق البيطار بناءُ قسم اللغةِ العربيّة وتضعضع، وقد كان رحيلهُ قاصمًا لظهورِ زملائه وطلابه وأحبابه فضلًا عن أسرته وإخوته، أجزلَ الله لهم مثوبة الصّبر والاحتساب. وإن كانَ ما من كلامٍ يفي الرجل حقه، بل إنّ الحروف والكلمات قد تمنّعت عن التعبير؛ لأنها قاصرةٌ في حقّ إنسانٍ كان مفتاحًا للخيرِ مغلاقًا للشّرّ، وقد جمعتني به صحبة علمية طويلةٌ نهلت بها من مَعين علمه الثّرّ كما نهل طلابه، مع أنّه يصغرني سنًّا، غير أنني كنت أفزع إليه كلما اعترضتني مسألة في التحقيق، أو استعصى عليّ كسر في عروض بيت، أو عاندتني مفردةٌ عن الامتثال لمعناها في السّياق، فينفضُ العمل الذي بين يديه، ويلتفت إليَّ بكلّيته، أي إنّه كان يترك عمله ملتفتًا ببشاشة ليجيبني، وكان مكتبه ملجأ و متنفسًّا لي، أجلس فيه مع ثلّة من الزّملاء فلا يتأفّف من أحد، و لا يتضجّر إلا من الكلام الذي لا يرادُ به الخير؛ لذلك فقد خطّ بريشته، وخطه الجميل شعارَه في الحياة (فليقل خيرًا أو ليصمت). وبهذا الخطّ الجميل الذي يزيد الحقّ وضوحًا كتبَ الدكتور شفيق قسمًا كبيرًا من رسالتي التي كانت لنيل درجة الماجستير بتحقيق رحلة العبدريّ، أيّام كنا نُقدّمُ الرّسائلَ بخطّ اليّد شرطَ الوضوحِ، ولمّا كان خطّه واضحًا جميلًا جليًّا؛ فقد نقلَ جزءا منها؛ رحمه الله بعدد حروفها وحركاتها و سكناتها، رحمه الله إذ كان صاحب فضل لا يُحصى ولا يُعدُّ، و أمانة علمية عالية جدًّا، فإذا أفاد بكلمة من أحدٍ ذكرها، ولا أنسى حين سطّر بحاشية له: (الاهتبال: الاهتمام، أفادني بهذا الدكتور علي كردي) ولمّا كان الاهتبال بمعنى الاهتمام خاصًّا بأهل المغرب، فقد بذلت الكلمة في مناسبتها حين يضطر الأمر لشرحها، ولكن

فوجئت أنّ الرّجل يذكرني بأنني أفدته بها، وهو الذي أفاد الجميع علميًّا؛ إذ كان كريمًا معطاءً جوادًا بكلِّ شيءٍ، يُهدي فلا يبخل أبدًا، وكان آخر ما أهدانيه: اختيارات ابن مسافر من شروح أشعار العرب لعمر بن الحسن بن عَدي بن أبي البركات بن صخر بن مُسافر الشامي الأموي، بتحقيقه رحمه الله مشتركًا والدكتور مُقبل التام الأحمدي نسأ الله في أجله، وجزاه خيرًا عن وفائه للعلم و أهله، و أخيرًا أجدني بعد الدكتور شفيق رحمه الله وأسبل على جدثه شآبيب المغفرة والرضوان قد تيتّمتُ علميًّا، وأُردد دائمًا:

ذهب الذين أُحبّهم وبقيت مثل السَّيفِ فردا

الباحث الأصيل، والعالم الجليل

د. محمد حسان الطيان

لم أكنْ أعرف د. شفيق بيطار رحمه الله عن كَثَب، لكنَّ سُمعته سبقَتْه إليَّ باحثًا أصيلًا، وعالمًا جليلًا، ومحاضِرًا بارعًا، وشاعرًا رقيقًا، ومشاركًا في بناء لغة الطفل ناجحًا.

وكان واحدًا من رهْطٍ كرام عرفتُ كثيرًا منهم في التسعينيات من القرن الفائت، أخذوا على أنفسهم الارتقاء بلغة الطفل العربي في برنامج تلفازي، عُرِض على ما يسمَّى قناة (سبيس تو) لا أعرفُ بعد برنامج افتح يا سمسم أنفعَ منه وأجدى للغة الطفل العربي، فكم رُبِّيت به أجيال، وكم استقامت عليه ألسنة، وكم انتفعَ به الأبناء والأحفاد والتلامذة والطلاب.

أذكر من هؤلاء الرهْط الكرام الأستاذ أيمن بكيراتي أبا عثمان رحمه الله، ود. أحمد صوان، ود. أحمد نتوف، وقد دعيتُ مرةً لمكتبهم في القناة من أجل استشارتي في أمر دبلجة أفلام تركية، وكان بين الحضور د. شفيق رحمه الله، وقد بَدَتْ لي فيه ملامحُ النباهة والفهم مع الإخلاص والنبل.

ثم التقينا مرةً أخرى في مؤتمر دعا إليه قسم اللغة العربية بجامعة دمشق فزادني اللقاءُ إعجابًا به، وإكبارًا لعلمه، ومَكِنَتِه في العربية وآدابها.

وتوالت عليَّ أخباره مضمَّخةً بالثناء والإعجاب، والإطراء والمديح، لتُتَوَّجَ عندي بأمرين جليلين:

أولهما انتخابه عضوًا عاملا في مجمع اللغة العربية بدمشق، وهو أبو المجامع العربية، ولا يكاد يصل إلى رتبة المجمعية فيه إلا النخبة المتميزة من أعلام العربية وأربابها.

وثانيهما عمله الفخيم المتقَن مع الأخ الحبيب د. مقبل التامّ الأحمدي في تحقيق كتاب (اختيارات ابن مسافر من شروح أشعار العرب) الذي أهدانيه د. مقبل في الشهر السادس من العام الفائت ٢٠٢٤، إذ قلَّبتُ أوراقه فلم أقعْ فيه إلا على حُسْنٍ وإتقان، وتحقيقٍ وتدقيق،

يشهد بعلوِّ كعب الرجلين في صنعة التحقيق.

وكانت الواقعة الأليمة حين توالت الأنباء فجأة بمرض د. شفيق مرضًا لم يمهله حتى لقي وجه ربه، وهو أتمُّ ما يكون عطاءً ومضاءً، وعلمًا وعملًا، وشعرًا وخطًّا، وتدريسًا وتعليمًا، وإفادةً ونفعًا.

وكنت في أثناء مرضه أتابع أخباره من أصحابنا وأصحابه، مشفقًا عليه، داعيا له بالشفاء والعافية، ولكن إرادة المولى جلت حكمته كانت فوق كل شيء.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٤].

ثم قُدِّر لي أن أحضرَ حفلَ تأبينه في مجمع اللغة العربية بدمشق، بعد أن طُهِّرت من رِجسها، وعادت إلى عزِّتها ومجدها، ولفظت شِرارها وأشقياءَها، فإذا بي أسمع كلامًا في الرجل من رجالٍ صاحبوه ولازموه، وعرفوه وخبروه، فوصفوه بأوصافٍ ما كنتُ أحسب أحدًا يمكن أن يحوزها في هذا الزمان، وعلى رأسهم أستاذنا الجليل العلّامة الدكتور مازن المبارك حرس الله مهجته وأدام عليه نعمته.

فقلت في نفسي وروحي تكاد تصافحُ روحَ الفقيد الغالي د. محمد شفيق البيطار:

أيُّ علمٍ جليلٍ طوى عليه صدرَه؟

وأيُّ خلقٍ جميلٍ قد تخلق به؟

وأيُّ نبلٍ أصيلٍ مازجَه؟!

وأيُّ مكانةٍ احتلَّها في قلوب أصحابه وتلامذته وطلابه.. بل حتى في قلوب أساتيذه وشيوخه ليشهدوا فيه هذه الشهادات الغالية، ويسطِّروا في نعتِه وتأبينهِ هذي السطور العالية؟

ويبدو أنه على تعدُّد مواهبه، وتنوُّع فنونه ومهاراته، وتمكُّنه من علوم العربية وآدابها، لم يكن يؤثر الظهور والشهرة، بل كان حيِّيًا متواضعًا، يلزم الصمت حين يضجُّ الآخرون بالصوت الجهير، ويتوارى خلف إنجازاته وإبداعاته، وينفق من ذات علمه وشعره وفضله ووجدانه دون منٍّ ولا أذى.

وإذا كانت ألسنةُ الخلق أقلامَ الحقّ كما يقول الناس، فإني لأرجو أن يكون ما قيل في هذا العالم الجليل من شهادات حقٍّ دليلًا على صدقه وإخلاصه، وصلاحه وإصلاحه، فما سمعتُ أحدًا ممن أعرف إلا أثنى عليه خيرًا، وشهد به حُسْنًا.

ومما زاده عندي مكانةً ورفعةً وشرفًا وعلوًّا أنه – كما حدثني د. أحمد الصوان وهو محل ثقتي ومحبتي – كان من أشد أنصار الثورة السورية المباركة على الظلم وأربابه، وعلى نظام الأسد البائد وأزلامه، بل كان ينظم بعض الأشعار والشعارات التي ردَّدها الناس في مظاهراتهم في بداية خروجهم على الطاغية، وقد شهد بعضها د. أحمد بنفسه وكان مكتبه إلى جانب مكتب د. شفيق إذ ذاك، كتب الله له أجر الجهاد في سبيله، فسلاح القلم لا يقل أهميةً عن سلاح السيوف والرماح.

ولي قلمٌ في أنملي إن هززته ... فما ضرَّني ألّا أهزَّ المهنَّدا

وإني لأرجو الله سبحانه كما أعلى في الدنيا ذكرَه، أن يُعظم في الآخرة أجرَه، ويرفعَ قدره، ويجزيه عن العربية ونشرها وتحبيبها وتعليمها وتعلمها خير ما جزى مجتهدا عن لغته وعالما عن أمته، وأن يرحمه رحمة واسعة إنه سميع مجيب.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٤]

الكويت ٦ شوال ١٤٤٦هـ الموافق ٢٠٢٥/٤/٨م.

خَازِنُ العربيَّة وإمامُ عُلُومِ آلاتِها

د. محمّد عبد الله قاسم[1]

فَقَـــدْنَاهُ فِقْـــدانَ الرَّبيـــعِ وليتَنـــا فديـنـــاهُ مِـــن ساداتنـــا بأُلُـــوفِ
عليـــكَ ســـلامُ الله وقفًـــا؛ فـــإنَّني أَرىٰ المـــوتَ وقَّاعًـــا بكـــلِّ شريـــفِ

حين طَرَقَ سمعي نَعِيُّ عالم الشِّعر المكين أخي الدكتور محمَّد شفيق البيطار أخذتْني الأواخذُ، وخَالجَتْني أَحْزَانٌ عِتَاقٌ بما نُكِبَتْ بِهِ العربيَّةُ مِن صَدْعٍ أَنَّىٰ له أَنْ يُرْأَبَ، وثَلْمٍ أَنَّىٰ لَهُ أَنْ يُسَدَّ، وظلَّتْ بيَ الأرض الفَضَاءُ تدورُ، وعُيُوني تفيضُ بالدَّمع السَّخيِّ المُنْهَمِلِ على أَخٍ أَنِيسٍ وصديقٍ نبيلٍ قُدَّ مِنَ الحُبِّ والمِسك والرَّيحان.

كيف أَكْتُبُ عنك والكتابةُ عنك كتابةٌ عن تاريخِ هذه الأُمَّةِ العربيَّة التي كانتْ خيرَ أُمَّةٍ أُخرجتْ للنَّاسِ: عقيدةً راسخةً رسوخَ ثبيرٍ، ولغةً ناصعةً كلغة عثمانَ بْنِ جنِّي، وفكْرًا ثاقِبًا كفِكْرِ شيخِ المعرَّةِ أبي العلاءِ الَّذي كنتَ مأْخوذًا بذكائِهِ وبَصَرِهِ بالعربيَّةِ، ورِجالًا كانوا منك ملءَ السَّمع والبصر.

كيف أُوفي القول فيك وتاريخ العربيَّة ماثلٌ أمام نَاظِرَيْكَ، لا أعرفُ مِنَ الرِّجالِ مَنْ يَفري فَرْيَكَ فيه، ولَمْ يَغِبْ لحظةً عن وِجْدَانِكَ اليقظان في خَفرِ عَالِمٍ ضليعٍ نحريرٍ يأبى أَنْ يخلع سربال التَّواضع الَّذي التحم فيه.

هل تذكر يا أبا عبدِ العزيز في آخِرِ مرَّةٍ مضينا فيها إلى الجامعة سؤالي إِيَّاك أَنَّ الفرزدقَ يُسْرِفُ في نسبةِ الرِّجالِ إلىٰ أُمَّهاتِهم، وأَنَّه قال:

هو السَّـــيفُ الَّذي نَصَـــــرَ ابنَ أَرْوَىٰ بِـــــهِ مروانُ عثمـــانَ المصـــابـــا

[1] كلمة ألقاها في حفل تأبين الأستاذ الدكتور محمّد شفيق البيطار في مجمع اللغة العربية بدمشق يوم الأربعاء ٢٠٢٥/١/٢٢م.

فقلتَ: ابن أروىٰ هو سيِّدُنا عثمان، وأَرْوَىٰ بِنْتُ كُرَيْزِ بْنِ ربيعةَ بْنِ حبيبِ بْنِ عبدِ شمسٍ، وأُمُّها البيضاءُ أُمُّ حكيمٍ تَوْءَمَةُ عَبْدِ الله بْنِ عبدِ المُطَّلب أَبي رسولِ الله صلى الله عليه وسلَّم، فجَدَّةُ عُثمانَ لأُمِّهِ عَمَّةُ رَسُولِ الله.

أَيَّ ذِهْنٍ وَقَّادٍ وذاكرةٍ نابضةٍ بتراثِ هذه الأُمَّةِ حباك الله؟ رجالُها وأَنسابُها وأَيَّامُها وبُلْدَانُها ونقوشُها ومفاخرُها حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ يحرسُها عَقْلٌ ألمعيٌّ لمَّاحٌ نَاقِدٌ يَهْجُمُ به ظَنُّهُ علىٰ اليقين، ويَلْتَقِطُ في نَظْرَةٍ عَجْلَىٰ ما يُلْتَقَطُ عند غَيْرِهِ بعد إِكْدَادِ البصر ورَجْعِهِ كرَّتَيْنِ.

كَمْ مِنْ ثَغْرٍ مِنْ ثُغُورِ العربيَّةِ كان مَثْغُورًا فسددتَهُ، وأحسنتَ القيامَ عليه: مِنْ منابر الجامعة إِلىٰ أدب الأطفال وما يُقَدَّمُ لهم علىٰ شاشاتِ التِّلفازِ، كم مِنْ نَصٍّ أَنيقٍ باذخٍ كتبتَ لهم تبني به سلائقَهم، وتَشْحَذُ مواهبَهم، وتَضَعُهم فيه علىٰ المحجَّةِ البيضاء.

كُنْتَ تغضب للحقِّ، ولا تمنعُك هيبةُ النَّاسِ أَنْ تقولَ الحقَّ إِذا علمتَه، ولعمري ما رأيتُ مثلك صفاءَ سريرةٍ ونقاءَ قَلْبٍ؛ إِذَا غضب لحُرْمَةٍ انتُهكتْ أَوْ جهالةٍ ارتُكِبَتْ كان بحرًا هائجًا متلاطمَ الموج، بل كان كسماءٍ مُرْعدةٍ حتى إِذَا عَادَ الحقُّ إِلَىٰ نصابه وحاقِّ موضعه رأيته كنسمةٍ هادئةٍ في إِثرِ ماءٍ طَهُورٍ.

أَمَّا عِلْمُ الدكتور محمَّد شفيق فتضيقُ بِهِ الصُّحُفُ، وإِنْ سُمْتَ القلم أَنْ يستقصيَ وجوهَ عِلْمِهِ جَمَحَ أَوْ أَنْ يَسْمَحَ بها ما سَمَحَ، لِتكاثرِها عليه وتدافُعِها، ونظرةٌ في ديوانِ الصَّحابيِّ حُمَيْدِ بْنِ ثورٍ الهلاليِّ الَّذي نَهَضَ بتحقيقِه تَقِفُكَ علىٰ رجلٍ عالمٍ حُذَاقِيٍّ نَقَّابٍ بَصِيرٍ بالشِّعرِ وإصلاحِ ما آفَهُ مِنَ التَّصحيفِ والتَّحريف، وإِقامةِ ما انآدَ فيه أَوِ اضطربَ الكلامُ عليه، وتوثيقِ النُّقُولِ، وتخريجِ الشَّواهد، واستقصاءِ الأخبار، ثمَّ إِنَّ له مِن وراءِ ذلك كُلِّهِ عِلْمًا جامعًا بمصادر التُّراث العربيِّ: كتبِ السِّيرةِ والمغازي والبُلْدَانِ وشروحِ الشِّعر والأنسابِ والتَّفسيرِ والاحتجاجِ وتاريخِ الرِّجالِ وفقهِ الحديثِ وكُلِّ ما شئتَ مِنْ علوم هذه الأُمَّةِ وفنونِها.

ثمَّ ديوانُ أشعارِ كلبِ بْنِ وبرةَ في الجاهليَّةِ والإسلامِ نَمَطٌ عزيزُ المثالِ في الاستقراءِ والتَّحليلِ والتَّحقيقِ والضَّبْطِ والفهرسةِ، وما مِن مُشْتَغِلٍ بجَمْعِ شعرِ القبائلِ وتحقيقِهِ إلَّا ماتحٌ برشائِهِ قادحٌ بزَنْدِهِ لا يُدِيرُ وَجْهَهُ عنه.

أمَّا اللُّغةُ الَّتي يكتب فيها فهي مِنْ أنصع البيانِ وأَفْصَحِهِ وأَجْوَدِهِ وأَسْيَرِهِ علىٰ مقاييس العربيَّة، لا يأتي مِن أساليبها إلَّا العاليَ المُحْكَمَ النَّسْجِ، ولَمْ أعرف فيمن عرفتُ مِنَ الرِّجال مَنْ لَهُ معرفتُهُ بعلوم الآلةِ مجتمعةً: العروضِ والنَّحْوِ والصَّرْفِ والبلاغةِ والخطِّ والإملاءِ؛ إنَّهُ ميزانُ ذلكَ كُلِّه.

كانَ رحمه اللهُ رحمةً سابغةً آيةً في النُّصْحِ والتَّعليم يبذلُ ذلك لسامعه في سماحةٍ نادرةٍ تُغري المرءَ أَلَّا يتنكَّبَ عَنْ قَوْلِهِ، على سخاءٍ في وَقْتِهِ يُنْهِبُهُ سائليه صغارَ الطَّلبة وكبار العلماءِ، وبَشَاشَةٍ يَتَطَلَّقُ لها رائيه.

وبَلَغَ مِن معرفتِه بالفارسيَّةِ أَنَّهُ تَرْجَمَ رباعيَّات بابا طاهر العُريان، وصاغها شِعْرًا عربيًّا خالصَ الدِّيباجةِ والماءِ، وألبسَها ثوبَ العربيَّةِ القشيبَ، مِنْ ذلك:

بَلَغْتُ مِنَ الحَالِ ما يُنْتَظَرْ ... فلا أَهْلَ لا مالَ لا مُسْتَقَرّ
إِذَا أَقْبَلَ الفجرُ أُلفيتُ حُرًّا ... أُطَوِّفُ في الأَرْضِ بَحْرًا وبَرّ
وإِنْ أَقبلَ اللَّيْلُ نِمْتُ مَكَاني ... وأَلقيتُ رأْسيَ فَوْقَ الحَجَرْ

كان مَفْزَعِي إِذَا غُمَّ عليَّ الشِّعْرُ وتَوَعَّرَ، فكَمْ مِنْ موضعٍ في يتيمة الدَّهر وتتمَّتِها ثمَّ في ديوان الفرزدق أَصْلَحَهُ لي حتَّىٰ بَدَا كفَلَقِ الصُّبْحِ أبلجَ، وكَأَنَّهُ مُحَدَّثٌ بما يَقُولُ، قَدْ أُوتِيَ الحكمة في إِصلاحِ الشِّعرِ ورَدِّ المُزَالِ إِلَىٰ وَجْهِهِ. ثُمَّ تَرَاهُ علىٰ إِجلالِهِ رجالَ العربيَّةِ ونصوصَها العِتَاقَ الأُوَلَ، يُناقِشُ ويُفاتِشُ ما رآهُ حَادَ عَنِ الجادَّةِ، يُسَدِّدُ ذلك في رِفْقٍ ولِيْنٍ، جَذَعَ البصيرة قَارِحَ الإقدام، سالِكًا النَّمَطَ الأوسط:

فقدناك فِقْدَانَ المصابيحِ في الدُّجىٰ ... إِذَا ضَلَّ عَنْ قَصْدِ الهدايةِ مَقْصَدُ

وماتَـتْ بمـوتِ العلْـمِ مِنــك قلوبُنــا وكنــتَ حياهــا لَمْ تَــزَلْ بــكَ تَرْشُــدُ
لِتَبْكِــكَ أَبْكَــارُ المَعَــاني وعُـوْنُهــا وغُــرُّ القــوافي حــين تُــروىٰ وتُنْشَــدُ

أَمَّا عِلْمُهُ بالعروض والقوافي والإيقاع فهو الموسيقارُ الذي لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ، ولو كان في زَمَنِ الخليل بْنِ أحمد لَنافسَه في هٰذه الصِّناعةِ واستنبطَ ما استنبطَهُ بجَوْدَةِ عَقْلِهِ وقُوَّةِ قريحتِهِ، ونَهَضَ باستيلادِ مصطلحاتِهِ، ولا يُعْلَمُ أَحَدٌ في زمانِنا لَهُ ما للدكتور محمَّد شفيق مِن حِذْقِ هٰذه الصِّناعةِ وانتهاءِ الرِّياسةِ إليه فيها:

لأَنْشَــرْتَ بالعِــلْمِ الخليــلَ فخِلْتُنــا نُشَــاهِدُهُ إِنْ ضَمَّنَــا منــكَ مَشْــهَدُ
وكُنْــتَ إِمامًــا في الرِّوايــاتِ كُلِّهــا يُضــافُ إِليــك الصِّــدقُ فيهــا ويُسْــنَدُ
توحَّــدْتَ بــالآدابِ والعِلْــمِ والحِجَــا فأَنْــتَ بِحُسْــنِ الــذِّكْرِ منهــا مُـوَحَّــدُ

وأَمَّا قراءةُ النُّقوش الصَّفائيَّةِ فكانَ فيها ذا صَوْلاتٍ وجَوْلاتٍ وتحقيقاتٍ تُسْقِطُ كَثِيرًا مِنْ دَعَاوىٰ المُستشرِقين، وتُزِيلُ عَنِ النُّصوصِ كثيرًا مِنَ الحَيْفِ الَّذي سِيْمَتْهُ.

أَمَّا خَلَائِقُهُ الغُرُّ فكانتْ شريعةَ أُمَّةٍ؛ فأَوَّلُها التَّواضُعُ الَّذي كانَ سِرْبالًا لَمْ يُلْقِهِ عنه حَيَاتَهُ، وهو مِثَالُ الشَّجرةِ الباسقةِ المُثْقَلَةِ بالثَّمَرِ النَّضيجِ الطَّيِّبِ الشَّهِيِّ الجَنَىٰ لا تَزْدَادُ إِلَّا انحناءً نحوَ الأَرْضِ مِن كثرةِ الخيرِ الَّذي يُجَلِّلُها والخُضرةِ الَّتي تَكْسُوها.

وثانيها العفافُ والأَنَفَةُ والزُّهْدُ في الضَّجيج والجَلَبَةِ؛ فقد كَانَ يَأبىٰ أَنْ يضعَ قَدَمَهُ في مواضعَ قَدْ مُرِّغَتْ فيها الجباهُ، وهو يُؤْثِرُ العملَ بِصَمْتٍ، وصَمْتُهُ لا يلبثُ أَنْ يتضوَّعَ أَرِيجُهُ، فليس بوسعها أَلَّا تفوحَ مزارعُ الدُّرَّاقِ!

وقَدْ كان غَرِيبًا في هٰذِهِ الدُّنيا خَرَجَ مِنها كما دَخَلَ يسعىٰ سَعْيَ الكفاف، وقَدْ بَشَّرَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلَّم: طوبى للغرباء.

وثالثُها الحُبُّ الَّذي بَدَا كعَيْنٍ نَضَّاخَةٍ يتفجَّرُ مِنها الماءُ تفيضُ على ما حولَها، ولا تُبالي بمَنْ يَستقي مِن مائها العَذْبِ الطَّهورِ شِرْعَةَ المُتَصَوِّفَةِ الأنقياءِ الأصفياءِ الأطهارِ، وقَدْ تجلَّى هذا الحُبُّ في إحساسِهِ الغامر بالفقراءِ والمطحونينَ والمُخَرَّبَةِ نفوسُهم يتعاهدُهم ويسعى لهم ويَبْذُلُ مِن أجلِهم ما استطاع، ويُغْرِي مَنْ له عليهم دالَّةٌ بالإنفاقِ، ويترقَّقُ قلوبَهم أَنْ تلينَ لهؤلاءِ الَّذين نهشتهم أنيابُ هذه الحربِ الغشومِ، أَوْ فتكَتْ بهم رزايا الدَّهر العَضُوضِ. ولستُ أذكُرُ أَنَّهُ أَخْلى سيَّارتَهُ يَوْمًا مِن راكِبٍ واثنين وثلاثة ونحن نمضي مِنَ المعضميَّة إلى الجامعة لا يلتفتُ إلى هُوِيَّةِ مَنْ يُرْكِبُه صغيرًا أَمْ كبيرًا رجلًا أَمِ امرأةً مَدَنِيًّا أَمْ عسكريًّا، ثُمَّ يستديرُ إليهم ويعتذرُ مِنهم بِخَفَرٍ: أنَّ مَقْصَدَنَا كلِّيَّةُ الآداب.

ورابعُها حُسْنُ الظَّنِّ، دستورُهُ في ذلك قَوْلُ سيِّدِنا عُمَرَ بْنِ الخطَّاب: لا تحملْ فِعْلَ أخيكَ على القبيح ما وجدْتَ لَهُ في الحَسَنِ مَذْهَبًا. ولهذا تحلَّقَ النَّاسُ حولَه، يختصمونَ إِلَيه، ويلتمسونَ عندَه إنصافَهم، ويشْكُونَه شكواهم، ولست ترى رجلًا في قسم اللُّغة العربيَّة يُجْمِعُ النَّاسُ على حبِّهِ وعَدْلِهِ وجَوْدَةِ رَأْيِهِ كما يُجمِعون عليه، فهو نصيرُ المظلومِ، ورادعٌ للظَّالم بالحُسْنَى، كان حُبُّ الخَيْرِ للنَّاسِ دَيْدَنَهُ وهِجِّيرَاهُ وشريعةً له لا يَبْغِي عنها حِوَلًا.

وخامسُها بُعْدُ النَّظَرِ وإِقْصاءُ حُظُوظِ النَّفْسِ الَّتي تُحِبُّ الاستحواذَ وامتلاكَ الأشياءِ وأَنَّها إِلَى بَقَاءٍ سرمديٍّ لا يَنْفَدُ، تَرَى ذلكَ في كثيرٍ مِن سُلُوكِهِ، فهو سَيِّدُ الأدبِ الجاهليِّ في جامعةِ دمشقَ وأُستاذُهُ، انتخَبَ مُعِيدَيْنِ حَاذِقَيْنِ وأَشْرَفَ عليهما ودَرَّبَهما على ولوجِ مسالِكِهِ وذلَّلَ لهما عَقَابيلَهُ، وأَنْهَجَ لَهُمَا السَّبيلَ حتَّى لَحُبَتْ، ثُمَّ أَسْلَمَهُمَا المُقَرَّرَ، وجَعَلَ لَهُ فيه حصَّةً إثرائيَّةً لا علاماتِ لها، مُؤْمِنًا أَنَّ هذِهِ رِسَالةٌ حضاريَّةٌ تُسَلِّمُها أَجيالٌ إِلَى أجيالٍ، واصطنعَ دليلًا شاملًا فيه عُصَارَةُ خبرتِهِ في مراقبة برامج الأطفال وإِصلاحِها وتدقيقِها يَعْتَصِمُ بِهِ مَنْ يَحْمِلُ الرَّايةَ مِنْ بَعْدِهِ.

كانَ نَفُورًا مِنَ النَّفْسِ الكَذوبِ الَّتي تُزَيِّنُ لصاحِبِها طولَ الأَمَلِ، وأَنَّ الأَجَلَ مُتَرَاخٍ بعيدٌ. ترىٰ ذٰلك ساطعًا في سيرتِهِ وسُنَّتِهِ في وَقْتٍ تَرَىٰ جَمَاجِمَ أُخَرَ تَتَدَافَعُ علىٰ المكاسب والمناصب، يُؤَجِّجُها غَرِيزَةُ حُبِّ الامتلاكِ والأَثَرَةُ والطَّوَافُ حولَ الذَّاتِ ونِشْدَانُ الخُلُود:

شـــهدْنا عـلى الأيـام أَنَّ سـرورَهـــا ... غُـرُورٌ كمـا كُنَّـا بِفَضْـلِـكَ نَشْـهَدُ
عـلىٰ أَيِّ شَيْءٍ مِنـكَ تَأْسـىٰ إِذَا جَـرَتْ ... محـاســنُ وَصْــفٍ بَـادِئـاتٌ وعُـوَّدُ
عـلى عِلْمِـكَ الـواري الزنـاد إِذَا غَـدَا ... زِنـــادُ امـرِئٍ في عِـلْمِـهِ وَهْـوَ مُصْلِـدُ
وأَخْـلَاقِـكَ ٱلـغُـرِّ ٱلَّتي لـو تَجَسَّـــدَتْ ... لَكانَـتْ نُجُـومَ ٱلسَّعْـدِ حـينَ تُجَسَّـدُ
علىٰ رَأْيِـكَ ٱلمـاضي ٱلمُـضِيْءِ ٱلَّـذي بِـهِ ... يُفَـضُّ رِتَـاجُ ٱلخَطْـبِ وٱلخَطْـبُ مُؤْصَـدُ

أَيُّها ٱلصَّديقُ ٱلأَغَرّ
أَيُّها ٱلحبيبُ ٱلغالي

كنَّا نحلُمُ بِزمانٍ مِنْ عَسَلٍ وماءٍ يُلْقِي عَنْ كواهِلِنا بَعْضًا مِن ساعاتِ العَمَلِ الطِّوالِ، لِنخلوَ بنفوسِنا، ونقطفَ وردًا مِن بُستانِ العيش الخفيض، لقد كنتَ جبَّارًا يا أبا عَبْدِ العَزيز، كلَّما رأيتك مُكِبًّا علىٰ تلك الآلةِ السَّوداءِ الَّتي نهبَتْ قطعةً مِن عافيتِكَ رجوتُكَ أَنْ تَرْفُقَ بِنَفْسِكَ، فكُنْتَ تُجيبُ بِإيمانِ أَصحابِ الرِّسالاتِ: إِنَّهُ رزقُ أَولادي!

لَكَمْ تمنَّيتُ أَنْ تكونَ والِدي، فأحملَ عنكَ بعضَ ما يَؤُودُكَ حَمْلُهُ، وقد قُلْتُ يومًا لِنَجْلِكَ عَمْرٍو وأنا أَنتظرُكَ وأُحدِّثُ ولدَكَ بِسجاياكَ البيض: يا عمرو، ليت لي أبًا كأبيك!

ما أكثرَ ما تعلَّمتُ مِنْكَ مِنَ اليومِ الأَوَّلِ الَّذي عَرَفْتُكَ فيه إِلَىٰ أَنِ اصطفاكَ اللهُ إِلَىٰ جوارِهِ، تعلَّمْتُ صلابةَ الموقفِ في الحقِّ، لا تأخذُكَ في اللهِ لومةُ لائمٍ، وحُبَّ دمشقَ والتَّجذُّرَ في تُرابِها، وقد قال لك بعضُ زملائنا المجمعيِّينَ يومًا يدعوك أَنْ تتسنَّمَ منصبَ المدير العامِّ لمعهد

المخطوطات العربيَّة بالقاهرة، فأَجَبْتَهُ بِعزيمةٍ لا تلين وثقةٍ كلُّها يقين: دمشق أُمِّي، وقاسيونُ أبي، لن أبرحَ دمشق!

طاعنْتَ دَهْرَكَ الخؤون، فما لانَتْ لك قناةٌ، ولا فُلَّ مِنْكَ عَزْمٌ، فتعلَّمْتُ مِنْكَ القَبْضَ على جمر الصَّبْرِ، وأَنَّ المقاصِدَ الكبارَ لا تكونُ دون تجشُّمِ الصِّعابِ، وأَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بالنَّاسِ مَجْلَبَةٌ لِمحبَّتِهِم، وأَنَّ التَّرفُّعَ عَنِ الصَّغَائرِ والسَّفَاسِفِ مِن أَماراتِ الألبَّاء.

أيُّها المَجْبُولُ مِنَ الرَّحمةِ وحُبِّ النَّاسِ

تعلَّمْتُ مِنْكَ الاجتهادَ في التماسِ أوجاعِ الفقراءِ وبَلْسَمَةِ جِرَاحِهِم، وأَنَّ الكلامَ في الخيرِ كلِّهِ أفضلُ مِنَ الصَّمْتِ، وأَنَّ الصَّمْتَ في الشَّرِّ كُلِّهِ أَفْضَلُ مِنَ الكلام، وأَنَّ ميزانَ الرِّجالِ عملُهُم وصدقُهُم، وأَنَّ العربيَّةَ أُمُّنا الَّتي تَسْتَوْجِبُ مِنَّا بِرَّها، أَفَيَبْخَلُ المرءُ في بِرِّ أُمِّهِ، إِلَىٰ دُرُوسٍ وعِظَاتٍ كلَّما حاولتُ مكاثرَتَها وجدْتُ نفسي مَكْثُورًا.

سيَذْكُرُكَ طُلَّابُكَ ومُحِبُّوكَ وأَهْلُوكَ زمانًا يا أبا عبدِ العزيز، أَمَّا قلبي فيمينَ اللهِ لن يَنْساكَ، ولم يَزَلْ لساني رَطْبًا بِذِكْرِ سجاياك:

فما مِنْكَ مُعْتَاضٌ ولا عَنْكَ سَلْوَةٌ ... نظيرُكَ معدومٌ وحُزْنِي مُؤَبَّدُ

عليكَ سلامُ اللهِ ما ذَرَّ شارِقٌ ... وغَرَّدَ في الأَيْكِ الحَمَامُ المُغَرِّدُ

والسَّلامُ عليكم ورحمة الله وبركاتُه.

معضميَّة الشَّام حَرَسَهَا اللهُ مِنَ الآفات.

١٩ رجب ١٤٤٦هـ.

١٩ كانون الثَّاني ٢٠٢٥م.

الدّكتور شفيق

حياة زاخرة بين التّحقيق والتّدقيق

د. محمّد موعد

بسم الله الرحمن الرحيم

انتهت إلى مسامعي عبارة من عالم دمشقيّ تتصل بدراسة التأريخ، مفادها أن تكون في مقدمة أهدافه الغوص في صنيع أعلامه، ومحاكاتهم في علمهم وخبرتهم في الحياة لتكون حياتنا أنفع وأفضل وأسلم.

وقد كان لهذا كبيرُ وقعٍ في كياني وضميري، فغدا لكلّ عَلَمٍ أتتبعه طعمٌ خاصّ ومذاقٌ خاصّ يفيدني في حياتي الشّخصية والعلمية -التدريسية خاصّة- لأنّ هدفي منها بناء الشّخصية البحثية المدقِّقة لطلابنا، فبها تُبنى المجتمعات، وبها أطاق الغرب أن يجوزنا في هذا الزمان.

على أنّي اكتشفتُ بعد حين أن مقولة ذلك العالم الدمشقي الجليل لم تأت من فراغ، بل كانت من تنقيره ومن تتبعه في مظانّ التأريخ والتّراجم حيث ينتهي إليك منها كنوز من الخبرة والعلم تصقل الشخصية، وتضيف إلى خبرتها ومعارفها ما لا يخطر ببال.

وفي حدود هذا التصوّر سأتحدّث عن أخي وصديقي أ.د شفيق البيطار رحمه الله، فلعلّ حياته العلميّة والشّخصيّة الزّاخرة تكون نبراسًا له الأثر الطيّب في حياتنا، فلا غرو إذن أن أطرح عبارات الرّثاء والبكاء من كلمتي هذه، أسوة بشيوخي من المشتغلين في تراجم الرّجال، حيث لا تجد صدى لكلام عاطفي يبكي من ترجموه، أسوة بقول الشّريف:

أبكيــك لــو نقَــعَ الغليــلَ بُكــائي وأقــولُ لــو ذهــبَ المقــالُ بِــدَائي

فالدّكتور شفيق أمضى عمره في تحقيق النّصوص، ومَنْ ترجمه ساق عنوانات كتبه المحققة،

وهي لا تخفى على باحث في الأدب العربي، لكن الذي قد يخفى أنّ صنعيه في التحقيق قد أورثه فنّ التّدقيق؛ إذ لا يمكن لمحقق النّص أنْ يُنحّي التّدقيق جانبًا، فالتّدقيق في النّص يُفضي إلى سلامته من التّصحيف والتّحريف والسَّقط، فهي الغاية منه، فالمحقق عليه أن يُخْرَج نصًّا هو أقرب لمراد مؤلفه، فلا يبرح تصوّره وهو ينقّر في النّص أنّه إنْ بُعث صاحبُه ونظر في عمل المحقق فأقرّ نسبة النّص إليه فهو أنّ المحقق قد أفلح في إخراج نصّ سليم للناس، وإن أنكره فهو يعني أنّ النّص يعجّ بالتّحريف والتّصحيف والسّقط.

وعليه درج د. شفيق، فقد كان يمضي السّاعات؛ بل الأيام أحيانًا في تصويب عبارة، وكان في كثير من الأحيان ينقل هذه العبارة إلى مجلسه في مكتبه بقسم اللغة العربية، حيث يُدلي أساتذة القسم بدلوهم، فينصت إلى رأيهم ويأخذ به بكل تواضع.

وصنيعه في التّحقيق أفضى به إلى التّدقيق، فغدا سمة بارزة في شخصيته، وهذه السّمة أثمرت ينعًا طيّبًا في بناء مجتمعه، في عمله في عالم الطّفل خاصة، فقد حَدّثَ غير مرّة عن تدقيقه في اللقطات من خلال مراجعته لمسلسلات الطفل (المدبلجة)، في استعراض المسلسل صورة فصورة، منقّبًا عن السمّ في العسل؛ حتى يغدو العسل صافيًا من كل شائبة قد تسري إلى نفس الطفل فيكون لها الأثر السّلبيّ في شخصه وسلوكه؛ فيغدو العسل حينئذٍ فيه الشفاء للناس، وحينئذٍ فقط يدرج الطفل على القيم الأصيلة التي تواكب شخصيتنا وهويتنا وحضارتنا وتراثنا، فانظر إلى أثر التّدقيق في شخصية الشّفيق!!

فلا غرو إذن أن يسري إلى كيانك وضميرك وشخصك من عملك في عالم الطفل أبعاض من براءة الطّفل وإقباله على الحياة، وأكاد أقطع أن شخصك المثابر على العمل الدؤوب قد انتهى إليك من ذلك العالم السّحريّ الأنيق البريء، ففاضت روحك إلى باريك وهي في أوج عطائها وألقها، فظفرت بحبّ كلّ مَنْ وقعَ ناظره عليك، وحينئذٍ أستشعر بأنك لم تغادر عالمنا، وحسبي أن مجلسك في قسم اللغة العربيّة فيّاض بالحبّ والودّ والذَكر الطيّب لحياةٍ

كانت زاخرة بالتّحقيق والتّدقيق؛ لترفد مظانّ التّراجم ببهي النّقوش التي أفنيت حياتك في مقارنتها والتّدقيق والتّنقير والتّمحيص فيها، فأخبرتْ هي الأخرى عن سيرة عَلَمٍ نبيلٍ عَشقَ ما فاضت به الصّحراء من نقوش على الحضارة الإنسانيّة.

وكتبه العبد الفقير محمّد عطا موعد في دمشق الشّام

يوم السبت ١٥رمضان ١٤٤٦هـ الموافق ١٥ آذار ٢٠٢٥م.

خسارة مجمعيّة

د. محمود السيّد

أصيب مجمع اللّغة العربيّة بدمشق بصدمةٍ كبيرةٍ في فقدانه أحد علمائه الأجلّاء، ألا وهو الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار رحمه الله، وكان المجمع قد انتخبه عضوًا عاملًا فيه منذ ثلاث سنوات، وكانت سمعته قد سبقته إلى المجمع، وعند انتخابه بالإجماع تعرّفته عن قرب في الوقت الذي لم أكن أعرفه من قبل، وإنّما كنت رئيسًا لتحرير مجلّة المجمع، ونرسل إليه بحوثًا للتّقويم لنشر الصّالح منها في المجلّة، فتجيء تقاريره التقويميّة في منتهى الدّقّة العلميّة، واتّسمت بالمنهجيّة الصّارمة والموضوعيّة التي تسلّط الأضواء على النّقاط الإيجابيّة والسّلبيّة بلغة عربيّة عالية المستوى صوغًا وسلامة.

وفي ضوء ذلك كنت في منتهى القناعة بأنَّ مجيئه إلى المجمع سيعزّز مسيرته العلميّة، فانتخبته من خلال سيرته العلميّة وتقاريره التقويميّة للبحوث.

وصدق من قال: والأذن تعشق قبل العين أحيانًا، إذ إنّ هذا القول كان ينطبق على فقيدنا المجمعيّ الأستاذ البيطار، فهو عندما التحق بالمجمع، وتعرّفته عن قرب، وجدت في شخصه العالم الكفيّ ذا الذاكرة المتّقدة، والأسلوب الأدبيّ الرّفيع، والشّاعر المرهف، وتقديم الشّواهد والأدلة من رصيده الثقافيّ، ومتابعته الحثيثة للمستجدّات في الميدانين اللّغويّ والأدبيّ.

وعندما كنا نتبيّن المخطوطات في المجمع ما نشر منها، وما لم ينشر، على الصعيدين المحلّي والعربيّ، وعلى الصّعيد العالميّ كان مرجعًا لنا في هذا الصّدد، إذ طالما عدّد أماكن نشر المخطوطات ومحقّقيها ومراجعيها وعقّب عليها بالرّأي السّديد.

وطالما اتّفقنا في رؤيتنا واختلفنا في بعضها الآخر، إلا أنّ اختلاف الرّأي لم يكن ليفسد للودّ قضيّة.

لقد أعجبت أيّما إعجاب بكفايته اللغوية، وحمدت الله على أنّ اختيار مجمعنا له إنّما كان في مكانه. وتجدر الإشارة إلى أنّه في مناقشاته وتعقيباته في اللّجان التي كان عضوًا فيها، وفي مجلس المجمع أيضًا كان يتّسم بالجرأة في إبداء الرّأي، وكانت آراؤه تحسم الموضوع المطروح للمناقشة في الأعمّ الأغلب.

وثمّة سجيّة كان يتّسم بها فقيدنا ألا وهي النّزعة الإنسانيّة، فقد كان أريحيًّا بكل ما تحمل كلمة الأريحية من معنى الشّهامة والارتياح للعطاء، فعندما كنت أطلب إلى أعضاء المجمع أن نمدّ يدنا إلى بعض المحتاجين كانت يده رحمه الله هي أوّل يدٍ تمتدّ إلى العطاء، وأحيانًا لم يكن لغيرها امتداد، فكان أنموذجًا أخلاقيًّا رفيع المستوى في السّخاء والعطاء بكل نفس راضية.

رحم الله العالم المجمعيّ القدير ذا المكانة العلميّة الرفيعة، والسيرة الذاتية العطرة والبديعة، وأدعو الله أن يسكنه فسيح جناته، وأن يلهم أهله وزملاءه وطلابه وعارفيه الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذو العِلم والنُّهى

د. منى طعمة[1]

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم، على خاتم النَّبيِّين؛ سيِّدنا مُحَمَّد وآله وأصحابه أجمعين، وبعد:

السَّيِّد رئيس مجمع اللُّغة العربيَّة، السَّادة أعضاء كلِّيَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة وأعضاء قسم اللُّغة العربيَّة ومجمعها، أهل أستاذنا د. مُحَمَّد شفيق البيطار وأحباؤه وطلَّابه، الحضور الكريم مِن أهل العِلم والنُّهى والسِّيادة: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أيُّها الأكارم، لست بأحسن منكم حديثًا وخطابًا، ولا أفضل منكم علمًا ودراية، ولا أكثر منكم وفاء وودًّا لفقيدنا الغالي، ولكنَّ عملي الإداريَّ مكَّنني مِن التَّحدُّث ممثِّلةً كلِّيَّةَ الآداب وقسم اللُّغة العربيَّة، وممثِّلة عميدَ الكلِّيَّة الَّذي سيوافينا إنْ شاء الله.

وما كنت أحسبُ أنِّي سأقفُ يومًا موقفَ تأبينٍ لأستاذنا الرَّاحل د. مُحَمَّد شفيق، وماذا عساي أنْ أقول في مناقب إنسان ما رأينا منه إلَّا خيرًا وعلمًا وأدبًا ونصيحة ومودَّة.

فضلُه سابغ على قسم اللُّغة العربيَّة وكلِّيَّة الآداب، ولا أبالغ إنْ قلت: إنَّه كان القطب الَّذي يأوي إليه الجميع؛ أساتذة وطلَّابًا وإداريِّين وأصحابَ حاجات ومطالب حقّ.

ما حزبنا أمرٌ في قسم اللُّغة العربيَّة، أو أشكلت علينا قضيَّة علميَّة أو منهجيَّة، إلَّا وجدناه السَّندَ والأخ والنَّاصح والمعلِّمَ الحِيِيَّ المتلطِّف في الأمور كلِّها.

كان صاحب رسالة وقضيَّة ومسؤوليَّة، ووُهِبَ لسان حقٍّ وفعْلَ رُشد، وهذا العطاءُ سرٌّ مِن أسرار الخلود بعد الممات، وفقدَ القسمُ برحيله ركنًا عظيمًا مِن أركانه، رحيلُه -أيُّها السَّادة- رسالةٌ لنا نحن الأحياءَ؛ لنذكر هادم اللَّذَّات، ونتدبَّر حياتنا، ونستعدَّ ليوم نلقاه، فنُسأل عمَّا

[1] كلمة ألقتها في حفل تأبين الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار في مجمع اللغة العربية بدمشق يوم الأربعاء ٢٠٢٥/١/٢٢م.

عملناه، ولنتعلَّم مِن رحيله المفاجئ وقدَرِ الله المحتوم المباغت أنْ نستعدَّ ونعمل بجدٍّ وإخلاص، ونصنع الخير ما حيينا، وكفى بالموت واعظًا يحدو بالمرء أنْ يعيد تخطيط نهج حياته على خطا الحقِّ والسَّلامة.

وأقولُ في الدكتور:

الحـــق نـــادى فاســـتجبت ولم تـــزل ... بـــالحق تحفـــل عنـــد كـــل نـــداء

خلّفـــت في الـــدنيا بيانًـــا خالصـــا ... وتركـــت أجيـــالًا مـــن الأبنـــاء

أ. د. مُحَمَّد شفيق البيطار كان رجل صدق، عالمًا حقًّا، يستشعر المستقبل وقدَرَ الله دائمًا، وأنَّ عمره لن يطول في هذه الحياة، وكثيرًا ما ذكر ذلك، وحقًّا رحل سريعًا، بعد أنْ ملأ الدُّنيا فيض علم، وترك إرثًا أدبيًّا ولغويًّا كبيرًا تتلقَّاه الأجيال بعده.

طبتَ حيًّا وميِّتًا، وكلمات العزاء كلُّها لا تفيك حقَّك، ستبقى حيًّا في امتدادك الطَّيِّب وعلمك الغزير وكتبكِ المحقَّقة وقصائد الشِّعر والدَّواوين، في أناشيد الأطفال، في الكلِّيَّة والجامعة والقسم والمجمع ومعاهد العِلم الَّتي تشرَّفت بك، في مواقف الحقِّ الَّتي شهدت أنَّك لا تميل ولا تلين للباطل، وإنْ كنت رحلت قبل أنْ تكتحل عيناك بفجر الحرِّيَّة والنَّصر الَّذي كنت تبشِّر به.

ستبقى في عمل الخير الخفيّ، في طلَّابك الَّذين غدوا أساتذة في القسم أو على الطريق؛ د. هبة عقيل، د. أحمد العودة، د. رغد الصَّبَّاغ، د. سناء العيسى، عائشة العمري، والقائمة تطول..

قلَّ أنْ يجود الزَّمان برجال حقٍّ وعلم مثله، ولكنَّه قدر الله الحق.

لكن لن يغلق باب الإبداع والخير والعمل في قسم اللُّغة العربيَّة في جامعة دمشق وكلِّيتها ومجمعها، فالخيرُ باقٍ، والأطوادُ شامخة، ورسالة العِلم لا تنتهي، والتَّسليم لأمر الله برضًى وإيمان، وكلُّ نفس ذائقة الموت، كلٌّ منَّا يسلِّم الأمانة للجيل بعده، ونحن عزاؤنا فيك واحد.

إنَّ العين لتدمع، وإنَّ القلب ليحزن، وإنَّا على فراقك د. شفيق لمحزونون، ولا نقول إلَّا ما يرضي ربَّنا، إنَّا لله، وإنَّا إليه راجعون.

فاللَّهمَّ ارحم فقيدنا رحمة واسعة، واغفر له، ووسِّع مدخله، واكتبه مع الأبرار الصَّالحين الَّذين لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون.

وأسأل الله لعائلته الكريمةِ الصَّبرَ وتخفيفَ المصاب، تقبَّلوا عزاءنا، صبَّركم الله، آواكم الله.

الخير فيكم ممتدّ، وغفر الله له ولكم ولنا، وأختم بأسرار سورة الفاتحة على روحه الطَّاهرة.

والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(٣) طلّابُهُ[١]

رجلٌ من الصحابة في زماننا

د. أحمد الأعرج

ذهب زمنُ الصّحابة الكرام رضي الله عنهم، لكنّ أخلاقهم الكريمة ما تزالُ حاضرةً في أُمّةِ رسولِهم المصطفى صلى الله عليه وسلم عبر الأزمان، بارزةً في عبادٍ اصطفاهم الله عزَّ وجلَّ؛ ليكونوا لمَن بعدهم آيةً في سموّ الأخلاق وعلوّها على مرِّ الأعوام وتقلُّب الأيام، مُتمثّلةً في زماننا هذا بأستاذنا الراحل الشفيق الدكتور محمّد شفيق البيطار رحمه الله رحمةً واسعةً، وجعلَ ما قدّم من علمٍ ومعرفة ونُصح وإرشادٍ لطلبة العلم بل لعلماء العربية ثقيلًا في ميزان حسناته يوم الدين. رحل عنّا أستاذنا الحبيب جسدًا، ولم يرحل خُلُقُه الحسن، ولا سيرته العطرة، ولا ذكره الطيّب، ولا علمه الغزير، ولا أخلاقه العالية، ولا تواضعه الرفيع، ولا هيبته الفريدة، ولا ابتسامته اللطيفة؛ بل ظلّت كلّها مُتشّبثةً في فؤاد كل مَن عرفَه أو جالسَه من الأخيار.

يعود بي شريط الذكريات إلى السنة الأولى في جامعة دمشق عام ٢٠٠٧م، عندما كنت أحضر إحدى محاضرات أستاذنا الجليل في مادة الأدب الجاهليّ، وقد كان -رحمه الله- يُسدي نصيحةً ثمينة إلى طلاب قسم اللغة العربيّة -وهم أغرارٌ في عامهم الأوّل- بعد شكواهم من صعوبة هذه المادّة وجفاء مفرداتها عن أفئدتهم الليّنة الغِرار، فقال بحكمته المعهودة وأدبه الجَمّ وصوته الهادئ العذب: "أوصيكم أبنائي الطلاب كلّ يومٍ -وأنتم في بداية طريق العلم- بحفظ آيةٍ من القرآن الكريم، وحديثٍ شريف، وبيت شعرٍ"، أوصانا غفر الله له بأن نداوم على ذلك كلّ يوم، ولعمري لو سِرْنا على هذه النصيحة الذهبية -على سهولة تطبيقها-

[١] الترتيب وفق حروف الهجاء.

لأصبحنا من جهابذة النُّجباء وأئمّة العلماء من الرعيل الأوّل، فهو يُدرك بنظرته الثاقبة وخبرته العميقة أثر استمرار البناء والتحصيل في طالب العلم؛ فالقليلُ الدائم خيرٌ من الكثير المُنقطع، وإنّ الجبال العالية تنشأ من تجمُّع الرمال الصغيرة.

ومُناقبُ أستاذنا -رحمه الله- وفيرة وسجاياه كثيرة، بيد أنّي سأقتصر على ما عرفتُه به وعاينته بنفسي، على أنّ مُحبّي أستاذنا من طلبة العلم والعلماء كُثُر، وسيُدلي كلٌّ بدلوه، ويُقدّم ما عرفَه عن كبير فنّه؛ فليس منّا إلا مُتتلمذٌ على يديه أو راشف من رحيق علمه، أو مُعجب بعظيم خُلُقه، ولكن يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. وسأضع ومضات سريعة لبعض شمائل أستاذنا الشفيق الحبيب، ولو كان حاضرًا -رحمه الله- لما تجرّأت على ذكرٍ شيء من حَسَناته مَهابةً له واحترامًا لتواضعه، ولكنّني أذكرها وفاءً ومحبّةً له واستجابةً لطلب صِنْوِهِ وشقيقِهِ الأستاذ الدكتور مقبل الأحمديّ رئيس (مجمع العربيّة السعيدة) ومُشاركه في بعض الأعمال العلميّة، وإنّني لأشكره على همّته ووفائه.

من سجايا أستاذنا البيطار التي تُذكّرنا بالصحابة الكرام:

- تواضعه: التواضع صفةٌ حميدة وخصلةٌ كريمة لازمت أستاذنا الجليل، وقد تلمّستُ هذا الخُلُق عنده من أوّل احتكاكٍ شفهيّ جرى بيننا، بل إنّك قد تدركه من نَظَراته ومَعالم الحياء التي تبدو على قَسَمات وجهه عندما يُخاطبك أو يُصافحك مطمئنًّا عنك وعن أحوالك، وكأنّه يعرفك منذ زمن بعيد أو كأنّك صديقه الحميم. ومن ثمرات التواضع أنك تنال رضا الله تعالى، ورضا الناس أيضًا؛ فالمتواضع يُحِبُّه الناس ويألفونه لقُربه منهم وسؤاله عنهم، كيف لا!، وقد ذكر النبيُّ الكريم صلوات الله وسلامه عليه: (وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفعه الله)، وقد نال أستاذنا هذه الرفعة في الدنيا، ونسأل الله أن يكون له مثلها وزيادة في الآخرة. ومن طريف ما رأيته في أستاذنا وقد حدث معي أنّني في زيارتي قبل الأخيرة إلى دمشق كان لأستاذي البيطار رسالة جلبتها معي من قطر من أخيه الدّكتور مقبل الأحمديّ، وقد كان

والدي –رحمه الله– معنا في المركبة، ونحن عائدون من المستشفى، التقينا بأستاذي البيطار، وعرّفتُه على والدي وصافحَه واحتفلَ به أيَّما احتفال في هذه اللحظات القصيرة، وقبَّلَ رأسَه وطلب منه أن يدعو له. لله درُّك يا أستاذنا، ورحمكما المولى الرحيم.

– **ابتسامته**: وممّا يرتبط بخُلُقه السابق ارتباطًا وثيقًا ابتسامتُه اللطيفة الهادئة التي ترتسم على مُحيّاه الجميل، وتنمُّ عن طيب مَحْتِدِه وعظيم خُلُقه، وما يلقاك به من البَشاشة والبِشر خُلُقٌ مُحمّديٌّ تجسّد به، وهو ترجمةٌ لقول النبيّ العدنانيّ عليه الصلاة والسلام: (تَبَسُّمُكَ في وَجْهِ أخيكَ لك صدقةٌ)، وهذا ديدنه رحمه الله في السرّاء والضرّاء عندما كانت الأمور مُطمئنّةً في بلدنا الحبيب سوريّة، وبعد أن ساءت حالةُ العباد المُقيمين بها بعد الثورة؛ نتيجة ظلم النظام الذي كان قائمًا والعقوبات التي فُرِضت على بلدنا والتغيُّرات التي حلّت به؛ بيد أنّ الثابت الذي لم يتغيّر أخلاقُ أستاذنا وابتسامته الجميلة، ولُقياه اللطيف الدافئ العامر بالعلم والأحاديث الماتعة.

– **نُصحه وإرشاده**: نذر أستاذنا نفسه لتقديم العون والنصح والإرشاد لطلبةِ العربيّة مَن يعرف منهم ومَن لا يعرف، وما أكثر القصص التي ذكرها لي بعض الإخوة عن مواقفه النبيلة ووقوفه إلى جانب الطالب والدفاع عنه، والحرص على أخذ حقّه من القسم بشكل عام، وقد يكون من أستاذه المشرف عليه عندما تكون بينهما مُشادّة، أو عند حصول خلاف يصعب حلّه، فإنّك تجد قلبه الرحيم يتّسع له، وقد برز دوره النبيل هذا عندما كان رئيسًا لقسم اللغة العربيّة. ومن ناحيةٍ أخرى يتمثّل نُصحه وتوجيهه لطلاب الدراسات العُليا، فهم أحوج إلى رأيه واستشارته في تسجيل الموضوعات العلميّة للماجستير والدكتوراه، فلا تراه يبخل بنصيحة أو يضجر من طالبٍ على كثرة تردُّده على مكتبه. ولا أبالغ إذا قلت: إنّ أكثر طلاب الماجستير أو الدكتوراه في جامعة دمشق قد استفادوا من علمه الغزير ونصائحه الصادقة في تسجيل موضوعات رسائلهم أو أُطروحاتهم، وأنا على رأسهم أشهدُ له بذلك؛ إذ إنّه وقف

إلى جانبي في تسجيل موضوع أُطروحتي للدكتوراه، ودعمني بتوجيهاته وآرائه السديدة رحمه الله رحمةً واسعة، بل إنّ طلاب قسم اللغة العربيّة جُلّهم يأتلفُ إليه من شُعبة الأدب والشعر أو النقد والبلاغة واللغة؛ نظرًا لموسوعيّته وسَعة علمه رحمه الله.

- **عِزّةُ نفسه ووَرَعه**: كان رحمه الله عزيزَ النفس قويَّ الشخصيّة وَرِعًا، وهذه من الصفات الإنسانيّة الراقية التي لا تجتمع إلّا بأهل الفضل والسيادة، وعزّةُ النفس في زماننا نوعٌ من الممانعة ضد النفعيّة الذاتية، والمقاومة أمام الإغراءات القائمة والإكراهات المجتمعيَّة السائدة، وهو أيضًا حديثٌ عن تحصين النفس بدرعٍ واقٍ في ظل مجتمع المصالح الذي يكثُر فيه المدحُ الزائفُ والعبارات غير الصادقة. وهذا يقودنا إلى الحديث عن وَرَعه وصون نفسه عمّا يُدنّسُها؛ فقد كان -رحمه الله- يبتعد عن المناصب والترفيعات الإداريّة التي من شأنها أن تضعه بمكان قد يضطرّ فيه إلى مخالفة أخلاقه العاليّة أو مواجهة بعض أصحاب السلطة الذين لا يُمكن ردُّ جَشَعِهم؛ لذا تجده يُغلق الباب قبل أن يُفتح. بل دعني أقودك إلى ما هو أبسط من ذلك، اعتدت في زياراتي إلى دمشق أن آخذ معي طِيبًا (عطورات)؛ لأهديه إلى إخوتي وأصدقائي وبعض أساتذتي، وقد أخذت معي مرّةً علبة عطر لأستاذي الراحل، فرفض أن يأخذها، وبعد مُعاناةٍ وأخذٍ وردٍّ حضرَ أحدُ الأساتذة، ووقف معي وذكّره بأنّ الرسولَ الكريم قَبِلَ الهديّة فأكرمني بأخذها، وبعد عامٍ عُدت إلى دمشق، وطمعت بأن آخذ له طيبًا أيضًا، وعندما اجتمعنا وقدّمت ذلك الطيب فاجأني بردّه وقال لي: (بتعرف علبة عطر العام الماضي بعدها بالمكتب، وعم عطّر منها الأساتذة الي بيجو عندي)، يا لَها من أخلاقٍ ندرت في زماننا!

- **دِقّتُه وتفانيه في العلم**: تعلَّمنا من بعض أساتذتنا الصبرَ على طلب العلم والجَلَدَ في تحصيله، وعلى رأسهم أستاذنا الراحل رحمه الله؛ فقد كان شُعلةً مُتّقدةً بين أقرانه، وكان ألمعيًّا في آرائه واجتهاداته، يشهد له القاصي والداني؛ وآيةُ ذلك آثارُه العلميّة التي خلَّفَها وراءه، وهي صدقةٌ

جاريةٌ عن روحه الخالدة في أذهاننا، ومن أبرز آثاره العلميّة وأميزها جهده الكبير في جمع شعر (شعراء بني كلب بن وَبْرة)، وهم فرعٌ من قبيلةٍ كبيرة اختُلِف في نسبها هي قبيلة (قُضاعة)، فقد جاء عمله في ثلاثة مُجلّدات كبيرة، وقد أصبحت إمامًا لَمَن يجمع شعرٍ بعده.

وممّا يُذكر في هذا المضمار أنّه كثير الجلوس في مكتبه، دائم النظر إلى شاشة حاسوبه باحثًا ومُحقّقًا ومُدقّقًا، وممّا ذكرَه لي في اللقاء الأخير بيننا أنّ ورقةً واحدةً من كتاب (البسوس) - وهو الكتاب الذي كان يُحقّق فيه ويعمل على إخراجه - قد تأخذ منه يومًا كاملًا بحثًا وتمحيصًا وتدقيقًا. لله درّه ما أصبرَه على العلم!

- **السَّعي في قضاء حوائج الناس**: كان رحمه الله رحيمًا بالناس حريصًا على نفعهم ومساعدتهم، وقد سبق الحديث عن مساعدته لطلاب العلم والوقوف إلى جانبهم ومساندتهم بالرأي والموقف، يُضاف إلى ذلك أنّه كان يساعد بعضهم ماديًّا ممَّن يعرف حالتهم فقيرة، وقد اضطرّتهم الظروف إلى ترك طلب العلم لمساعدة أهلهم، وهذه عباداتٌ سرّية لا يحب أستاذنا الجهرَ بها، ولا يعرفُ بعضَها إلا المقرّبون منه، وقد وقفت على حالة أحد طلاب العلم شخصيًّا عندما كنت جالسًا معه في مكتبه. ولم يتوقّف فضله رحمه الله على الطلاب، بل إنّه يقف إلى جانب زملائه الأساتذة، ويُساندهم بالقول أو الفعل، ومواقفه التي سمعت عنها كثيرة، لعلّ أحد الإخوة ينبري لها، غير أنيّ حرصت على ذكر ما عاينتُه بنفسي، ومنه ما أوصاني به بإبلاغ أحد الأساتذة الذين هم خارج البلد بحالة أحد أقرانه وأصدقائه القُدامى، وما آلت إليه ظروفه الصحيّة والاقتصادية، ومثل ذلك كثير في حياته.

- **الرجوع عن بعض آرائه العلميّة**: كان أُستاذنا عالمًا موسوعيًّا قلَّ نظيرُه في زماننا، بالإضافة إلى أنّه أديبٌ وشاعر ومُحقّقٌ وعَرُوضيّ وقارئٌ نَهِمٌ للتراث العربيّ والإسلاميّ، وله مؤلّفاتٌ في اللغة ومخالفة القياس اللغويّ، فضلًا عن جَمْعه لشعر بعض القبائل وبعض دواوين الشعراء، وقد تميَّز عملُه في هذا الباب، وأصبح يشار إليه بالبنان. وهو -رحمه الله- على مكانته

العلميّة وعلوّ قدره لم يأنف من قول بعض الحقائق عندما تبيّن له خلاف ما ذهب إليه، ومن ذلك أنّه قطع في أُطروحته للدكتوراه، وجمعه لشعر (ديوان بني كلب)، أنّهم من مَعَدِّ بن عدنان، وشفع ذلك بعددٍ من الأدلّة الدامغة، غير أنّه عندما كان رئيس قسم اللغة العربيّة، وقتَها سجّلت موضوع أُطروحتي للدكتوراه، وكانت تدرس ظاهرةً لغويّة في شعر القبائل القحطانيّة، وكان -رحمه الله- له دورٌ كبيرٌ في اختيار الموضوع وتسجيله، وقد وضعنا شعر (قبيلة بني كلب بن وَبْرة) وأمّها (قضاعة) مع شعر القبائل القحطانيّة، وفي هذا إقرارٌ واضحٌ منه رحمه الله بجعل قُضاعة وبني كلب من قحطان؛ وفي هذا الخُلُق الفريد دلالةٌ على وقوفه على الحقّ، وآيةٌ على عِلْمه وتواضعه وصدقه ووفائه للعلم وأهله.

وختامًا: لا يسعني بعد ذِكْر هذه المحاسن والسجايا إلا أن أدعو له بالرحمة والمغفرة، وأذكر في رثائه هذين البيتين اللذين يُعبّران عن مُصابنا به:

لعَمْـــرُكَ مـــا الرَّزِيَّـــةُ فَقْـــدُ مـــالٍ ولا شـــــاةٌ تمـــــوتُ ولا بعـــــيرُ

ولكـــــنَّ الرزيّـــــةَ فَقْـــــدُ حُـــــرٍّ يَمُـــــوتُ لموتِـــــهِ خَلْـــــقٌ كَثِـــــيرُ

بلاد الشّام ... تودّع علماءها بصمت

د. أحمد العودة

لستُ أَرثيكَ، وذِكرُك سيبقى خالدًا في وجدانِ أبناء الأمة ما سقى قبرَك ديمة تهمي.

بقلبي مُعَشَّرًا بأَسْهُمِ المنايا، أكتبُ إليك معلّمي:

لا أدري كيفَ أستطيعُ لملمة شعث حروفي - ولستُ بالشّاعرِ الذي كُنتَ- حتى أنظمَ فيكَ مرثية مثل تلك التي قلتَها في وداع أستاذِك (د. السّطلي)، وليس بخافٍ عليكَ أنّي سطوتُ على عنوانِها، فصدّرتُ به هذه الكلمة؛ تأكيدًا للحقيقة المرّة التي ذقت لوعتها من قبل حين ودّعتَ أستاذك، وها أنا أجرعُ كأسَها اليومَ من بعدِك: (بلاد الشّام.. تودّع علماءها بصمت).

ومع كثرة الباكينَ، ونحن نشيّعك إلى روضتك اليومَ، لم أكن أبكيكَ.. بل كنتُ أبكي نفسي، كيف لها أن تُبصر الطريق، وقد رحلَ الآخذُ بيدها يبصّرُها مواضعَها كي لا تزِلّ بي قدمٌ فأشقى في مهالك هذه الحياة التي تكادُ لا تصفو لحيٍّ؟

لم أكن أبكيكَ.. لإيماني بأنّك أفضيتَ إلى ما قدّمتَ في حياتك من علم، وخُلق، وطِيب معشر، وحضور في مواقف الحقّ، وغياب في مواقف الزّيغ والباطل.

كنتُ أبكي طلبة لا تزال آخِذًا بنواصيهم في سبل الرشاد والمعرفة، تحرصُ على سلوكِهم مهايعَ العلمِ والخُلق القويمة، فتبذل نفسك وعلمك خدمة لهم بلا حرج ولا تململ، مع خالص النصيحة والتوجيه، ولا أشكّ في أنّ طالبًا ـ ولا سيّما في الدراسات العليا ـ إلاّ ولك عليه يد توجيه أو نصح، وإلاّ فبشاشة وجه، وانفساح نفس، وانبساط أسارير.

كنتُ أبكي أولئك الباحثين الذين ما زالوا يحجون إلى دواوينك وتحقيقاتك العلمية، ينظرون في سمتِ بنائها وتبويبها وتقسيمها، وآلية جمعها وتخريجها، فإن هم حزبهم أمرٌ طاروا إليك ترفعُ عنهم ما استغلق، وتبيّن لهم ما رقّ.

كنتُ أبكي أصدقاءك الذين شعرتُ بفواتِ نفوسهم ما إن سمعوا بخبرك العظيم، انطووا على نار تلظّى تذيب حشاشات نفوسهم... باحت بها حشرجة صوت مهزول، وانكسار عين غارقة في بحر من الدموع، ولو كان الأمر لي لسمّيتهم واحدًا واحدًا، وبيّنتُ لك كيف أنّ الألم الحقيقيّ يعتصر قلب ذلك الصّديق البعيد الذي ابتعد عن ضوضاء الناس... وسعى على تقليم براثن المنية، ولكنّ أمر الله نافذ... أولئك الأصدقاء الذين ما زال صدى نحيبهم يتردّد في أذني.

كنتُ أبكي أولئك الصّبية الذين عَلِقت قلوبهم برامج الأطفال التي كنت تُشرف عليها مراجعة وفكرة ونصًّا ورسالة، فتصبّ نفسك عليها قطرات لتخرجها في صورة تهدف إلى تنشئة جيل عربيّ معتزّ بعناصر تكوينه الثقافية والفكرية، حريص على هويته في وجه هذا السيل العرم من التشويه والابتعاد عن الموروث المفعم نُبلًا وإنسانية.

سيّدي الدكتور العلاّمة محمد شفيق البيطار النّازل إلينا من بين ثنايا جبال يبرود من رأس المعرّة، عالم الزّاهدين وزاهد العلماء يرحل بسلاَم وصمت!

فلنكلَف بما كلف به من العلم والخُلق؛ لعلّه يرقد في مأواه ناعمًا مسرورًا محبورًا:

ألا إنّما الإنسان ضيفٌ لأهله يُقيمُ قليلًا عندهم، ثمّ يرحل

قلمي يأبى، وكلماتي مبعثرة، ولكن هي نفثة مصدور، علَّ الليالي تجود بما ضنّت به من قبل، طبتَ حيًّا وميتًا...

• البيطارُ مُشرفًا: شرفني الدكتور محمد شفيق البيطار بأن قبل الإشرافَ عليَّ في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وكنتُ يومها معيدًا في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، وهذا جوهرُ الشرط الذي اشترطه في القسمِ لقبول الإشرافِ على بعض الطلاب في السنوات الأخيرة، وهو أن يكون معيدًا؛ وذلك رغبة منه في تهيئة المعيد تهيئة تساعده على الانخراط في السلك الجامعيّ بحثًا وتدريسًا.

والحق أقول: هذا الإشراف منه على المعيدينَ، ولا سيما ما اتصل بتخصصه الدقيق، له جانبانِ: علمي وأخلاقي.

وبقي الدكتور شفيق وفيًا لهذا الشرط حتى قبل وفاته بقليل، وذلك أن قسم اللغة العربية بعدَ أخذ وردٍّ دفع إليه طالبة تريد العمل في علم العروض للإشراف عليها، ولم تكن معيدة، فقبل على استحياء وغصّة احترامًا لرغبة القسم وإصراره، وصونًا لكرامة الطالبة التي راجعَته غير مرة في مكتبه، وربما شهدتُ بعضها، وكان يتوسم فيها خيرًا، وما كان الرفض إلا من أجل الشرط الذي اشترطه على نفسه، واحترامًا لزملائه أهل الاختصاص... وهذا من جميل احترامه لنفسه وتواضعه، وإلا فلا عروضيّ في دمشق يبزّه.

ولكن لم يتمّ الأمرُ، وأبى الله إلا أن يبقى الدكتور شفيق وفيًا لما تعهد به، فاصطفاه إليه، وانقطعَ الإشرافُ، ولعلّ الطالبة تكمل ما بدأتْه.

وكان من حسن تدبيره في الإشراف عليَّ أن خالف هواه ورغبتَه في جمع الشعر وتحقيقه، فوجّهني إلى ميدان الدراسة، وجعلني أقرأ لبعض المشتغلين بالأدب الجاهليّ دراسة، وعلى رأسهم أستاذنا الدكتور وهب رومية، إلى شيء من أعمال الجمع والتحقيق، فكان ديوان حميد بن ثور وزهير بن جناب الكلبي وديوان بني كلب بن وبرة، وجميعها له، وشعراء حمير للدكتور مقبل التام الأحمدي.

وذكر لي صراحة أنّه يريدُ مني أن أعملَ في هذا الميدانِ دون جمع الشعر وتحقيقه لأنّ هذا قد أستفيد منه في غير الرسائل الجامعية، ولئلّا يكون كلّ من أشرف عليهم في السنوات الأخيرة يعملون في جمع الشعر فقط، فعمِلنا في المرحلتين على تبيان الأثر الحضاريّ للحياة العربية في الشعر الجاهلي، فكان أثر الزراعة في الشعر الجاهلي وأثر الحياة الصناعية والتجارية في شعر الجاهلية وصدر الإسلام.

وكان ينتصر انتصارًا شديدًا للعرب في تلك المرحلةِ، ويؤكّد في غير موضع وموقف أنّ

الحياة العربية في الجاهلية شأنها شأن طبيعة المجتمعات البشرية المختلفة، وأنَّ ما شاع من تصور لتلك الحياة لم يعدُ أن يكون صورة نمطيّة مغلوطة.

حرص الدكتور شفيق على فسح المجال أمامَ الطالب الذي يشرف عليه ليعبّر عن نفسه وتكوينه المعرفي والثقافي، فلا يلغي له فكرة أو يصادر له رأيًا – ولو خالفه – على أن يكون ملتزمًا بأدب العرض والدفاع عن رأيه، وألا يكون رأيه رأيَ هوى، وإنما رأي مبنيّ على الحجة والدليل... وأما مسألة موافقته هو أو مخالفته فهذا شأنٌ آخر، وربما حدّثنا عمّا يراه من غير فرض وإلزام، ولنا الخيار بعدُ إمّا نبقى على رأينا، وإما نذهب معه مذهبَه.

ومن ذلك ما أذكره أني في مرحلة الماجستير خالفتُ أستاذي الدكتور وهب رومية في توجيه بيت وتفسيره... وعرضتُ الفصل الذي فيه هذه المخالفة على أستاذي الدكتور شفيق ليراجعه على عادة المشرف، فاستدعاني إلى مكتبه –وكنتُ قد ذكرتُ اختلافي مع الدكتور وهب صراحة في العمل– وسألني عمّا كتبته، ولماذا ذهبتُ هذا المذهب؟ فأجبته وبيّنتُ له رأيي، وكيف أنّ البيت توجّه عندي بخلاف ما ذهب إليه أستاذنا.. فابتسم يومها وقال لي: "اتركها، وفي المناقشة نرى"، وقال أيضًا: "إنّ الدكتور وهب رومية عالم جليل... ولن يفهمَ أمرَ هذه المخالفة في غير وجهها..."، وهذا ما كان.

وكان حريصًا على أن يكون أستاذي الدكتور وهب عضوًا في لجنة مناقشتي، وهو المنقطع عن المناقشات منذ زمن، ولكنّ حبّه للدكتور شفيق جعله يقبل المشاركة.

وبيّن لي الدكتور وهب يومها في المناقشة، بدماثة الدكتور شفيق وطيبته، فساد الرأي الذي اخترته بحب وهدوء وإلماح بلا تصريح أو تجريح أو انتصار لنفسه، ولو فعل لكان حقًّا، وأنا قد اعترضت عليه، فعظُم إجلالي له ومهابته في نفسي أنْ ردّ الاعتراض باعتدال دون أن يؤثر ذلك في حكمه على العمل وتقييم الدرجة، بخلاف كثير من الناس، بل أثنى عليَّ وعلى العملِ... لله درّهما! ما كان أشدّ توافقهما!

هذا، وكان الدكتور شفيق حريصًا على تعليمي أخلاقيات العمل أكثر من مناقشتي في الرسالة، ولذلك كان يقتصر الأمر في الإشراف على عدد من اللقاءات نتّفق فيها على خطة العمل والآلية التي سنعالج بها القضايا، وربما قرأ فصلًا أو أكثر وترك الباقي بعد أن يطمئن أنّ الطالب قد استوعب المنهج...

وكان يحرص على أن يشركني معه في كل شيء، فجعلني منذ أن كنت معيدًا أدخل على طلّاب السنة الأولى، وربما اشتركنا في عمل خاص غير ما يتعلق بالجامعة، وكان هذا إشرافًا آخر في ميادين معرفية أخرى، أفدت منه فيها...

باختصار، كان يصنعني على عينه، ويرشدني، ويقوّمني، ويقيل عثرتي، إلى أن بغتني الموت فاختطفه، ولَمّا أنتهِ من التلمذة له.. فالله أسأل أن يرحمه ويغفر له، وأن يجعلني عند حسن ظنه بي.

وبعد اجتياز المرحلتين، أجلسني معه الدكتور شفيق في مكتبه، وكان المكان في الأصل لصديقه الدكتور إسماعيل مروة الذي ترك الجامعة والقسم... وكان مترددًا أول الأمر في جلوسي إلى جواره لمشاركة غيره له في المكتب، ولكن لم يختلف خُلُق صاحبَيه الدكتور حمود يونس والدكتور حسن الأحمد عن خُلُقه، فلم يعترضا، فصرت للكرام جارًا وجليسًا.

بدأت في هذه المرحلة تنشئة أخرى أرادها لي أستاذي الدكتور شفيق، فكان أكثر ما أخبرني به ناصحًا أن أجعل العلم هو الاعتبار الأول الموجّه لي، وأن أفصل بين القضايا العلمية والشخصية، فلا تؤثر إحداهما في الأخرى... وأن يكون الحكم مبنيًّا على الأسس العلمية بروح هادئة متروية.

ولكنْ أنّى لبدويٍّ – هكذا أحبّ أستاذي أن يناديني ممازحًا– أن تعتادَ نفسه هدوء أستاذه ودماثته... الأمر يحتاجُ إلى جلوس طويل بين يديه، وكيف ذلك والموتُ حال بيننا؟!

هذا البدويّ تهشّمت روحه اليوم... شعر أنّ جزءًا من تكوينه الثقافي وتركيبه العقليّ قد غاب عنه بغيابك، فمن يوجّهه؟ وأَنّى له أن يُدعى بـ "البدويّ" من بعدك؟

رحيل علّامة الأدب القديم في بلاد الشَّام

د. رغد الصّبّاغ

الـرَّاحِـلـونَ، ومـا أدراكَ مَـنْ رَحَـلُـوا! لو كـانَ يُمكِنُ في العَينَين قـد نزَلُوا

رحلَ علَّامةُ بلاد الشَّام في الأدب القديم، وركنُ جامعة دمشقَ المكِين، المحقِّقُ المجمَعيُّ المتواضعُ، معلِّمي المِفضالُ الدكتور **محمد شفيق البَيطار**، بعد مسيرةٍ حافلةٍ من العطاءِ والبذلِ والتَّحقيقِ والتَّدريس.

اليومَ تبكيه كلُّ زاويةٍ في قسم اللغة العربيَّة، تبكيه أناشيدُ طفولتنا العذبة التي قضى في تحبيرها دهرًا، ويبكيه طلَبَتُه المحبُّون الذين لأجلهم آثرَ أن يبقى سندًا وملاذًا على أن يسافرَ وينالَ عَرَضًا من الدُّنيا.

كان أنْ مَنَّ الله عليَّ فحَظِيتُ بإشرافه في مرحلتَي الماجستير والدكتوراه، فتعهَّدَني بأُبوَّة حانية، وكان بي رفيقًا شَفيقًا كاسمه، وأسبغَ عليَّ من الفضل والعِلم والحِلم ما لا يحيطُ به الثَّناء. وليتَ المقامَ يُسعِفُ لأسرُدَ كلَّ ما رأيته من جميلِ دَماثَتِه وطِيب خُلُقِهِ وغزير علمه، لكن يُمكن بكُلَيماتٍ أن أقول: كان في العِلم فريدَ عصرِه ونسيجَ وَحْدِه، علَّامةً موسوعيًّا بحَّاثة. لم يكن يَحْزُبُني أمرٌ أو تُشكِلُ عليَّ مسألة إلا وجَدتُّ عندَه ما يشفي الصَّدرَ ويُرْوي الغَليل.

وكان في الخُلق أنبلَ الناس، وأكثرَهم تواضُعًا، لا تغادرُ بسمتُه العذبة مُحَيَّاه. وكان شديدَ الغَيرة على العربيَّة والإسلام، يقول الحقَّ لا يخافُ في الله لومةَ لائم، وكان بعيدًا كلَّ البُعد عمَّا يتهافتُ عليه الناسُ من حبِّ الثناء والتشَوُّف إلى الظُّهور، ولو قُدِّر للإخلاص في أيَّامنا أن يتجسَّدَ في رجلٍ لتجسَّد في شخصِه. وكان مثالًا يُحتَذى في الوفاء وصِدق الودِّ والإخاء، إذا ما ذكَر أحدٌ أساتذتَه وشيوخه. وقد روى لي فصولًا مشرِّفة في تتلمُذه على أستاذه د. **عبد الحفيظ السَّطلي** رحمه الله.

وكان مع طلَّابه أرأفَ بهم من أنفسهم، حريصًا على ما فيه خيرُهم وصلاحُهم، ويبدو أنَّ اشتغاله الطَّويل بالشِّعر الموجَّه للطُّفولة والأطفال أورثه رِقَّةً وتَحْنانًا.

ولعلَّ ما لا يعلمُه كثيرون أنَّ عمله لم يكن مقتصِرًا على نَظْم شارات البرامج والتدقيق فيها لغويًّا، بل كان حارسًا أمينًا لعقول الجيل، مراقبًا حثيثًا لما تنطَوي عليه تلك الأعمالُ الأجنبية من أفكارٍ وصورٍ ورموزٍ لا تُلائم ثقافتَنا العربيَّة الإسلاميَّة، فكان يعملُ بصبرٍ على متابعتها وتقويمها وتهذيبها؛ لتُقدَّم إلى الطفل لا تشوبُها شائبة.

وأمَّا صِلتي به ومواقفي معه فلا أدري من أين أبدأ في الحديثِ عنها، وماذا أقول! والمواقفُ والذِّكرياتُ تجدِّد الحَزَن وتُثير الشُّجون!

عرفتُه في السنة الأولى يومَ دخَلتُ الكلِّية أوَّلَ مرَّة سنة ٢٠١٢م، وكان اسمُه محبَّبًا إلينا؛ لأنه رافقَ طفولتنا، واشتدَّت أعوادُنا ونحن نقرأُ ذلك الاسم كلَّ يوم على شاشاتنا، فكنَّا في غاية الحماسة لنتعرَّف تلك الشَّخصِيَّة. فلمَّا سمِعنا منه محاضراتِه في الأدب الجاهليِّ كشفَ عن علم غزيرٍ، وشخصيَّة قلَّ أن يُرى لها نظير، مع تواضُع ورِفْقٍ بالطُّلَّاب، فلم تكن القلوبُ تُقبِل على أحدٍ من الأساتذة وتُجمِع على أحدٍ إقبالَها وإجماعَها عليه.

وقد اشتَهَر عنه بين الطلَّاب **أنه الأستاذُ الذي لا يُظلَم عندَه أحد**، وكان سَخيًّا بالدَّرَجات على الطلَّاب المتفوِّقين، وأذكر أنني أحرَزتُ درجة ٩٥ في مادَّته، وكانت تلك الدرجةُ أعلى من توقُّعاتي.

وحين تخرَّجتُ سنة ٢٠١٦م كان يشغَلُ رئاسةَ قسم اللغة العربيَّة، فلمَّا علِمَ أنني الحِزِّيجةُ الأولى استدعاني واحتَفى بي وأكرمَني، أكرمَ الله نُزُلَه. وذكرَ لي أنَّ اختصاص المعيد لهذا العام هو الأدبُ الجاهليُّ، فأجَبتُه أنني أميلُ إلى دراسة النحو واللغة، وأفضِّلُ متابعة الدِّراسة وَحْدِي بمَنأًى عن القُيود التي تطوِّق أعناقَ المعيدين. فقال لي: (بل أطلبُ لك الاختصاصَ الذي تحبِّين، ولكنَّني أنصَحُكِ نصيحةَ مُشفِق، لا تترُكي المعِيديَّة، فالجامعةُ بحاجةٍ إليك، بحاجةٍ إلى

ذوي الأخلاق والهِمَم. وكنتُ أودُّ إعدادَ من يُساعدني على تدريس الأدب الجاهليِّ؛ إذ لم يبقَ في القِسم غَيري، فانظُري في أمرك، واستَخِيري واستَشِيري). فلمَّا راجَعتُه بعد أيَّام وأخبرته بقَبولي الوظيفةَ والاختصاص، قال لي: (توكَّلنا على الله، سَلي الله التوفيقَ والسَّداد، وأخلِصي له النيَّة قبلَ كلِّ شيء). وكانت تلك أُولى وصاياه في إشرافه عليّ وأغلاها.

ثم وجَّهَني بعد ذلك إلى جمع أشعار القبائل وتحقيقِها، وكان له القِدْحُ المُعَلَّى، فصَبَر على تعليمي كلَّ ما يخصُّ التحقيقَ من دقائق الأمور إلى عِظامها، وأذكر أنه في البدايات علَّمني الطريقةَ المثلى لجمع المادَّة وتنظيمها، وصناعة فِهْرس المصادر، وحتّى الاستخدام الصَّحيح لعلامات التَّرقيم! علَّمني كلَّ ذلك بحِلمٍ وصَبرٍ وتلطُّفٍ أبَوِيّ، وكانت لديه عنايةٌ منقطعة النَّظير بالدقائق، وربَّما قضَينا ساعةً بأكمَلها في محاولة الوصول إلى ضَبْط حرف! ولا أنسى سرورَه يوم أتيتُه بأُولى محاولاتي في تحقيق شعر أحدِ شُعراء خَثْعَم، وقال لي: (الآنَ استقامَ مَنهَجُك، فاستمِرِّي على هذا النحو).

ومضَت الأيامُ سِراعًا وأنا أنعُم بالنَّهَل من مَعِين عِلمه الذي لا ينضُب، وكنت كلَّما التقَيتُ به يزداد عَجَبي، كيف أمكنَ لرجلٍ أن ترسَخَ في صدره علومٌ مختلفة وفنونٌ شتَّى، ويستحضرَ منها ما شاء عند الطلب؟! وأذكُر أنّني سألته عن ذلك مرَّة فأجابني إجابةَ العالم المتواضِع: هذا تراكمُ المعارف على مدى الأيام، وبالأمس كنَّا طلَّابًا لا نعلَمُ شيئًا، وبالتَّحصيل والصَّبر ستَغدونَ أفضلَ منِّي إن شاء الله.

ودارت الأيامُ، وظلَّت أياديه البِيضُ سابغةً عليَّ، حتى إذا صِرنا على أبواب مناقشة الدُّكتوراه وطُبِعَت الأطروحة قال لي: (وَدِدتُّ أن تكونَ هذه الأطروحةُ آخرَ العُنقود، ولو كان الأمرُ لي لأعطيتُك درجةَ الشَّرَف). فذكَرتُ له أني لستُ أبالي أيَّ درجةٍ أحرزتُ بعدَ رضاه عن العمل! فهذه الشَّهادةُ أعلى وأغلى في نفسي من درجة الشَّرف.

وكانت أُولى كلماته يوم نلتُ درجة الدكتوراه، وفرَغنا من المناقشة: (الآنَ صارت أمانةُ

الأدب الجاهليِّ بين يدَيكِ، فأحسِني أداءها). فتألَّمتُ يومئذٍ، وشعَرت أنَّ الكلامَ كلامُ مودِّع، لكن لم يَدُر في خَلَدي أنَّ الفِراقَ قريبٌ إلى هذا الحدِّ! وظلَّ يكرِّر عليَّ كلماتِه تلك حتى آخرِ لقاءاتي به. وكان آخرَ عهدي به قبلَ أن ينالَ منه المرضُ، يومَ الإثنين ١٨/١١/٢٠٢٤م الساعة التاسعة صباحًا في مكتبه الذي كان روضةً من رِياض العلم، وقِبلةً لمحبِّي اللغة والأدب؛ أساتذةً وطلَّابًا، استقبلَني يومئذٍ بابتسامته العذبة المعهودة، وذكرَ لي أنه قد وصلَت إليه نُسخَتانِ من كتاب "**اختيارات ابن مسافر**" الذي حقَّقه وأخرجه مع خِلِّه الوفيِّ الدكتور مُقبِل التَّامِّ الأحمَدي، وأنه خصَّني بنُسخةٍ من النُّسخَتَين، فسُرِرتُ بذلك الإهداء وذاك الاختصاص أيَّما سرور. وقلت له نصًّا: يبدو أنَّ عَوارِفكَ عليَّ يا دكتور تأبى أن تنقَضي! فدَعا لي بالبَركة والنَّفع كدَأبه، ووَدَّعتُه ومضَيت، ولم أكن أعلم أنَّ هذا اللِّقاءَ سيكون الأخير، وأنَّ هذه الهديَّة كانت تطييبًا لخاطري قبل رحيله عن عالمِنا.

رحمَه الله وأحسنَ إليه كما كان مُحسِنًا بجميع مَن حوله.

رحلَ بهدوءٍ وتركَ في القلوب غُصَّةً وجِراحًا لا تندَمِل، وهذا غَيضٌ من فَيْضِ أفضاله وجميل سَجاياه. وكم وَدِدتُّ أن يكونَ الثَّناءُ عليه في مَقامٍ غير مَقامِ الرِّثاء، لكنَّه من شدَّة إخلاصه لم يكن يطرَبُ إلى مثل هذا الكلام على الإطلاق.

أستاذي الفاضلُ، مُصابنا برحيلك جَلَلٌ جَلَل! أُشهِدُ الله أنكَ بلَّغتَ الرسالةَ، وأدَّيتَ الأمانةَ خيرَ أداء. فجزاك الله عنِّي وعن العربيَّة وطلَّابها خيرَ ما جزى شيخًا عن تلامذتِه.

وعزاؤنا برحيلك ما نعلَمُه من حُسن سيرتك التي يشهَدُ لها القاصي والدَّاني، وتلك الكنوزُ الثمينةُ التي أفنَيتَ عُمرَك في استخلاصِها من بطون التُّراث. فإلى جنَّاتٍ ونَهَر، في مَقعَد صِدقٍ عندَ مليكٍ مُقتَدِر.

دمشق/ ٤ جمادى الآخرة ١٤٤٦هـ/ الموافق ٥ كانون الأول ٢٠٢٤م

هَلْ ذَا لَعَمْرُكَ حَقٌّ أَيُّهَا القَدَرُ؟

د. زاهر الشَّمَّاع

في ٢٠٢٤/١٢/٤م، عَقِبَ وَفَاة د. شفيق بيوم، رَحِمَهُ الله تعالى:

١- هَلْ ذَا لَعَمْرُكَ حَقٌّ أَيُّهَا القَدَرُ ... أَمْ أَنَّهُ حُلُمٌ أَضْغَاثُهُ الخَبَرُ؟!

٢- كَذَّبْتُهُ وَبِوُدِّي أَنَّ بِي لَمَمًا ... خَمْرًا وَدَفْعًا وَلَا بِالوَقْعِ أُخْتَبَرُ

٣- غَابَ الشَّفِيقُ وَيَا لِلصَّدْعِ أَضْلَعَنِي ... فِي الدَّامِغَاتِ لَنَا مِنْ سَهْمِهَا حَجَرُ

٤- مَا لِلدُّمُوعِ - وَقَدْ حُقَّ البُكَاءُ - دَمٌ ... فِي القَلْبِ مَكْلَمُهُ لَمْ تُجْدِ ذِي العِبَرُ؟!

٥- يَا مَعْلَمًا عَجَزَتْ عَنْ عَطْوِهِ عُمُدٌ ... بَلْ أَقْرَمًا قَصَّرتْ عَنْ حَقِّهِ الدُّرَرُ

٦- مَنْ ذَا يُعَمِّرُ كُرْسِيًّا بِمَكْتَبِكُمْ ... بِالأُنْسِ وَالوُدِّ وَالتَّعْلِيمِ يُحْتَضَرُ؟!

٧- ذَا يَطْلُبُ الفَصْلَ فِي حُكْمٍ وَذَا غَفِلٌ ... عَنْ فِكْرَةٍ عَجَزَتْ عَنْ كُنْهِهَا الفِكَرُ

٨- أَوْ دَاخِلٌ بِسَلَامٍ عَابِرٍ عَطِرٍ ... أَوْ خَارِجٌ ظَاهِرٌ فِي وَجْهِهِ النَّضَرُ

٩- بِالأَمْسِ فِي المَكْتَبِ المَعْهُودِ قُلتُ لَكُمْ ... لِلضَّعْفِ فِي وَجْهِكُمْ بَلْ جِسْمِكُمْ أَثَرُ

١٠- مَا كَانَ رَدُّكُمُ إِلَّا بِحَمْدٍ وَأَتْـ ... ـعَابِ الحَيَاةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا الضَّرَرُ

١١- نَفْسِي الفِدَاءُ لِقَرْمٍ قَلْبُهُ عَمِرٌ ... سِرًّا وَفِكْرًا عَمِيقًا زَانَهُ العِبَرُ

١٢- رَسَّخْتَ بِالحَقِّ صَرْحًا شَامِخًا أَبَدًا ... كَمْ قَدْ زَأَرْتَ وَفِي إِحْقَاقِكَ الشَّرَرُ

١٣- لِلْحَقِّ مَقْوَلَةٌ لِلْبِرِّ مَفْعَلَةٌ ... لِلْعَيْنِ مَقْرَرَةٌ لِلْكَسْرِ مُجْتَبَرُ

١٤- كَمْ نَغْصَةٍ فِي حَيَاةٍ مِلْؤُهَا عَمَلٌ ... بَرٌّ وَمِ الآنَ آنَ الحَصْدُ وَالثَّمَرُ

١٥- جَازَاكَ رَبِّي بِحَقِّ العِلْمِ مَغْفِرَةً ... بَلْ مَنْزِلًا لَمْ يَنَلْ مِنْ فَرْعِهِ بَشَرُ

١٦- هَا قَدْ أَرَاكَ رَضِيًّا نَاعِمًا رَغِدًا ... فِي هَنْأَةٍ مِنْ رِضَا الرَّحْمَنِ تُحْتَبَرُ

١٧- فَالحَقُّ أَنَّكَ فِي ذَا الوَقْعِ مُغْتَبِطٌ ... أَمَّا بِنَا فَثَبَاتُ الصَّبْرِ يُجْتَرَرُ

في ٢٠٢٤/١٢/١٠م، بعد وفاة د. شفيق بأيام، وكان قد هاجَنِي ذِكْرُهُ مِرارًا وتكرارًا ولم يَزَلْ، رَحِمَهُ الله تعالى:

١- أَيَا طَيْفُ هَلَّا زُرْتَ غِبًّا فَأَرْتَجِي ... سُلُوًّا عَنِ الأَحْبَابِ فَالقَلْبُ يُنْعَشُ؟

٢- مُصَابِي بِكُمْ يَا سَيِّدِي اليَوْمَ لَا يَنِي ... وَأَوْجَاعُ وَقْعٍ فِي السُّوَيْدَاءِ تَنْهَشُ

٣- وَوَجْهٍ لَكَمْ حَنَّتْ قَضَايَا لِصَوْتِهِ ... بِهَدْءٍ يَقُولُ الحُكْمَ فَالفَصْلُ يُعْرَشُ

٤- وَأَلْفٌ مِنَ الأَجْوَادِ لَا يَعْدِلُونَكُمْ ... فَكَمْ أَمَّ أَقْوَامٌ رُبَاكُمْ لِيَنْتَشُوا

٥- ثَلَاثُونَ مِ الأَعْوَامِ دَامَ عَطَاؤُكُمْ ... فَأَيْنَ ثَنَاءَاتٌ تُقَالُ وَتُرْقَشُ؟!

٦- وَإِنْ وُزِنَ المَعْرُوفُ مِمَّا بَذَلْتُمُ ... ذُهِلْنَا فَكَمْ رَاءٍ يَحَارُ وَيُدْهَشُ

٧- جَزَاكُمْ بِهَا رَبِّي جِنَانًا نَضِيرَةً ... وَمَجْلِسَ أُنْسٍ وَالنَّمَارِقُ تُفْرَشُ

٨- وَرُزْءًا عُلُومُ الإِنْسِ مِ الآنَ يُتِّمَتْ ... فَهَلْ مِنْ وَزِيرٍ كَافِلٍ أَوْ سَتُهْمَشُ؟!

٩- أَرَى لُغَةً تَسْتَصْرِخُ اليَوْمَ رَأْسَهَا ... وَتَبْكِي عَلَى سُلْطَانِهَا كَيْفَ يُوحَشُ؟!

١٠- فَهَلَّا بِعَوْدٍ لِلْوَرَاءِ وَطَفْرَةٍ ... فَلَا الوَقْعُ مَكْتُوبٌ وَلَا النَّعْشُ يُنْعَشُ؟

١١- وَلَكِنْ قَضَاءُ اللهِ فِيمَا أَرَادَهُ ... نَفُوذٌ وَفِي التَّارِيخِ ذَا الفَقْدُ يُنْقَشُ

ذو الحياء والتّواضع

د. شمس الإسلام حالو

الحمد لله أن جعل العلماء ورثة الأنبياء، وخصّهم بخلود ذكرهم وعلمهم، فهم المتوارون جسدًا الباقون فكرًا وروحًا وأثرًا، ننهل من معينهم، ونسير على خطاهم، ولا يرتوي ظمؤنا أبدًا من نبع معرفتهم، بل نطمع بالمزيد والمزيد.. هذه كانت حالي مع أستاذي الدكتور محمد شفيق البيطار رحمه الله تعالى الذي أكرمني بالإشراف على دراستي في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، فأفدت من علمه فيها ما يقرب من عشر سنوات، لتكشف تلك السنون عن علوٍّ كعبه في مختلف علوم العربية وما يتصل بها من علوم أخرى، ورسوخ قدمه في الأدب العربيّ والأدب القديم منه خاصّة، ولا أقصد بهذه الكلمات كشف النّقاب عن مزايا هذا الإمام العالم الذي تسنَّم ذروة العلم، وتألَّق في سماء العربيَّة والبيان، وحفل سجلّه الأدبيّ ببحر زاخر من الفرائد والفوائد، فمناقبه هذه لا يجهلها أهل العربية، لكنّني أردت أن أعبّر عمّا يحمله قلبي له من معاني الشّكر والعرفان، ومحاولة ردّ بعض الجميل لمن أعطاني من علمه ووقته وجهده كثيرًا، وبذل ما بوسعه في توجيهي وإرشادي، متابعًا ما بدأه والدي الأستاذ الدكتور أحمد حالو رحمه الله تعالى في مسيرتي التعليميّة، فرسّخ القواعد وقوَّم الحائد وأردف بالفوائد، وكنت كلّما أنهيت فصلًا من أطروحة الماجستير (الرّسائل الشعريّة في العصر الجاهلي) تكرّم بمراجعته كلمة كلمة، بل حرفًا حرفًا دون أن يصيبه ضجرٌ أو يعتريه سأم، والأمر نفسه في أطروحة الدكتوراه (الشعراء المعمّرون، أخبارهم وأشعارهم من الجاهليّة إلى نهاية العصر الأمويّ) فقد قرأ العمل كلّه من بدايته إلى نهايته بروح كريمة جذلى بالعطاء ومشفقة على التّلميذ الوجل، الذي يخطو أولى خطواته في الدراسات العليا.. وكنت أتلقّى كلّ ملاحظاته بالعناية والاهتمام والتنفيذ دون أيّ امتعاض أو اعتراض أو تأجيل، وكيف أفعل ذلك وأنا أعلم حرصه على العلم وصدقه وإخلاصه ودقَّته وموضوعيَّته! وقد ظهر أثر ذلك جليًّا في

حياتي العلميّة والعمليّة منذ بدايتها إلى الآن.. ولم تكن تلك حاله معي فقط.. بل هو منهجٌ واضحٌ سَنَّه مع كلِّ طلابه – رحمه الله تعالى.. كان فقده خسارةً كبرى لكلِّ واحدٍ منهم، وفاجعة للمجتمع الأكاديميّ والأدبيّ وصدمة لمحبيه.

ويعزينا جميعًا أنَّه عند ربٍّ كريم، ينزل العلماء المنزلة التي يستحقّونها ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

وإلى جانب تمكُّنه العلميّ كان الأستاذ الدكتور شفيق رحمه الله تعالى أنموذجًا يُحتذَى في الحياء والتَّواضع، يحظى باحترامِ كلِّ من حوله، وكان مؤدَّبًا خلوقًا قليل الكلام إلَّا لما فيه فائدة.. سمته الرّزانة والهدوء.

ولعمري هذه صفات الأتقياء الأنقياء.

رحم الله أستاذي الدكتور محمد شفيق البيطار، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان.. وجمعنا به وبوالدي وأساتذتنا الكرام في جنات النعيم.. آمين.

الاسْتِشَارَةُ العِلْمِيّةُ بَيْنَ نُبْلِ المَوْقِفِ وَصِدقِ النَّصِيحَةِ
الأستاذُ الدّكتورُ مُحَمَّد شَفِيْق خَالِد البِيْطَار مِثَالًا

ضحى شبلي كَشْوَر

مِهَادٌ:

دَرَجَتِ العَرَبُ بِوَعْيِهَا الجَمْعِيِّ عَلَى طَلَبِ النُّصْحِ والنَّصِيْحَةِ مِنَ المَرْجِعيَّاتِ العَشَائِرِيَّةِ، ثُمَّ جَاءَ الإِسْلَامُ فَعَزَزَ هَذِي العَادةَ الحَمِيْدَةَ بَيْنَهُمْ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُوْرَى بَيْنَهُم﴾، وَقَالَ عزَّ جَلَالُهُ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِيْ الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾.

امتَثَلَ الخُلَفاءُ الرَّاشِدونَ إِلَى هَذَا، بل أَرسَوا حُكمَهُم عَلَى أَسَاسِهِ، ولعَلَّ فِي حُكْمِ الفَارُوْقِ عُمَر بنِ الخَطَّابِ خَيْرَ دَلِيْلٍ عَلَى ذَلِكَ، فَمِنَ المَأْثُورِ عَنْهُ قَوْلُه: (لَا خَيْرَ فِي أَمْرٍ أُبْرِمَ مِنْ غَيْرِ شُوْرَى)، وَقَوْله: (شَاوِرْ فِي أَمْرِكَ مَنْ يَخَافُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ).

وَقَد فُطِرَ الإِنْسَانُ عَلَى أَنْ يَلوذَ بِمَن يَخافُ اللهَ. وعَلَى اختِلافِ مَذاهِبِ البَشَرِ، وَ تَعَدُّدِ مَشَارِبِهِم، وتَنَوّعِ مَنَابِتِهِم، غَيْرَ أَنَّهُمْ يَنْزَعونَ بِحُكمِ مَا يَلْمَسُونَهُ مِنَ رَجَاحَةِ العَقْلِ مَقرونَةً بِالصِّدقِ والنُّبْلِ إلى الحَكِيْمِ في الأَمْرِ، وَقَدْ كَانَ أُسْتَاذُنَا الدّكتورُ مُحَمَّد شَفِيْق خَالِدْ البِيْطَار مِنْ حُكَمَاءِ العَرَبِيَّةِ بِعُلُومِهَا وَ آدَابِها المُختَلِفَةِ، وَهُوَ الغَنِيُّ عَنِ تَعْدَادِ الخِصَالِ والمَنَاقِبِ، وَتِبْيَانِ مَنْزِلَتِهِ العِلمِيَّةِ الّتِي نَزَلَ بِها فِي العُقُولِ مَقْرُونَةً بِأَخْلَاقِ العُلَمَاءِ وَبِها نَزَلَ فِي قُلُوبِ كُلِّ مَنَ سَمِعَ عَنْهُ، أو رَآهُ، أَو عَرَفَهُ، أَوْ تَلْمَذَ لَهُ، وَلَمَّا كُنْتُ مِمَنْ حَرَمَهُمُ اللهُ فِي مَاجِسْتِيرِ الدِّرَاسَاتِ الأَدَبِيّةِ مِنْ تَدْرِيْسِهِ، فَقَدْ سأَلْتَهُ مِرَارًا، وَتَكرَارًا، وَأَجْزَلَ النُّصْحَ بِغَزَارَةٍ عَلَى نَحوٍ أَجِدُ مَعَهُ سَانِحَةً فِي هَذي الصّفحَاتِ المُتَاحَةِ لِلكَلَامِ عَلَى فَضْلِهِ، وَلَمَّا عَمِلْتُ فِي جِوَارِ مَكْتَبِهِ بِأَمَانَةِ سِرِّ قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ رَدحًا مِنَ الزَمَنِ؛ فَقَدْ تَرَدَدْتُ إِلَى مَكتَبِهِ بِحُكمِ إِمْضَاءِ بَعْضِ الأَوْرَاقِ تَارَةً، وتَفَقُّدِ بَعْضِ الأَساتِيْذِ تَارَةً، وأَكَادُ أَجْزُمُ أَنَنِي لَمْ أَخرُجْ مَرَّةً إِلّا مُحَمَّلَةً بِفَائِدَةٍ عِلْمِيَّةٍ، أَو نَصِيْحَةٍ مُجْدِيَةٍ، أو نَقْدٍ وَانتِقَادٍ لَطِيْفٍ بَنَّاءٍ؛ إِذْ كَانَ رَحِمَهُ اللهُ لَا يَخْشَى فِي الحَقِّ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَعَلَيْهِ فَسأَقْسِمُ

الكَلَامَ هُنا إِلَى بَابَيْن يَكْتَنِفَانِ حِكَايَاتٍ عَامَةً فِي الأَوّلِ مِنْهُما، وذَاتِيّةٍ فِي ثَانِيهِما مَا يَقُومُ جِسَرًا؛ لِلوصُولِ إِلَى اسْتِمْطَارِ الرَّحَمَاتِ عَلَى رُوحِهِ الطَّاهِرَةِ.

الأستاذُ الدّكتورُ مُحَمَّد شَفِيْق البِيْطَار ومُرِيْدوه:

أَرَدْتُ مَلَاقَاةَ أُسْتَاذِيْ؛ لِتَوْقِيعِ وَرَقَةٍ، بُعَيْدَ رِثَاءِ أَحْدِ أَعْيَانِ اللّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ فَكَانَ أُستَاذِيْ يَسْتَفْهِمُ مِنَ الدُّكتور شَفِيق عَنْ فَحوَى أَبْيَاتٍ مُرْتَجَلَةٍ بِحَقِّ المَرْحُوْمِ المَرْثِيِّ وَهوَ مِنَ الموسرِيْنَ فَكَيْفَ تَقُوْلُ الأَبْيَاتُ فِيْ مَضْمُونِهَا: إِنَّهُ يأكُلُ الخُبْزَ مَبْلوْلًا، وَمَدقوقًا، وَ كَانَ بِاسْتِطاعَتِهِ أَنْ يَأكُلَ(المُشَمَّرَ و المُقَمَّرَ؛ فَما حُلْوَة بِحقِّه يِنْقَال بياكلْ بِهالطَّرِيْقَة) علَى حَدِّ تَعْبِيْرِ الأسْتاذِ السّائِلِ بِاسْتِنْكَارٍ لِلْتعبِيْرِ عَنْ طَعَامِ المَرْثِيِّ، فَانتَظَرَهُ المَرْحُوْمُ حَتّى أَنْهَى كَلَامَهُ، وَالتَفَتَ إِلى الأُسْتَاذِ مُبْتَسِمًا، وأَجَابَهُ إِجَابَةً قَلَبَت مَعْنَى الصّوْرَة؛ إذ قَالَ: (يَا دُكتورْ! ليسَ الأَمرُ كَذَلِكَ، إِنّمَا المَقْصُودُ الكِنَايةُ عَنْ أَنَّهُ كَانَ مَشْغوْلًا بِعِلمْهِ عَن مَضغِ الطَّعامِ، والخُبْزِ؛ فيأكُلُهُ مَدقوقًا ومَبلوْلًا، وَبَعضُ السَّلَفِ كَانَ يَقولُ إِنَّهُ بينَ المَضْغَةِ والمَضْغَةِ يستطيعُ قراءةَ شيءٍ منِ القرآنِ، هو أكسبُ لَهُ أجرًا مِنَ الطَّعَامِ). وبِهَذِيْ الكِنَايَةِ اللَّطِيْفَةِ المَأخوذَةِ مِنَ المَورُوثِ العِلْميِّ الدِّيْنِيِّ، تَخرُجُ مِنْ مَكْتَبِهِ مُتَعَجِّبًا مِن حُسْنِ اختِيَارِ المَعَانِي؛ وقدْ كَانَ مِفنانًا فِي هَذَا يَجْمَعُ اللّفْظَةَ مَعَ أُخْتِهَا عَلَى نَحوٍ سَاحِرًا، ولاسِيّمَا إِذَا مَا ارْتَجَلَ قَوْلًا مِنْ قَبيْلِ مَا قَالَهُ فِيْ بِدايَةِ احتِفالِيَّةِ قِسْمِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ قَبْلَ سَبْعِ سَنَوَاتٍ حِيْنَ جَعَلَ مِنْ كَفَّيهِ أَطْبَاقًا يَجمَعُ فِيْهَا يَاسَمِيْنَ دِمَشقَ، وَ يُقَدِّمُهُ لِلْحَاضِرِيْن.

لَمْ يُخَضِّرِ اليَاسَمِيْنُ نَفْسَهُ يَومًا، لِيُطَوِّقَ قَبْرَهُ، لَا ولَا حتّى الآسُ فِيْ دِمَشْقَ تَخَضَّرَ يَوْمًا لِمِثْلِ هَذَا، لَعَلَّ الوُرْدَ سَيَحْيَا بِدَمْعِهِ فِيْ رُبُوعِ الثّرَى المُحْتَضِنِ رُفَاتَهُ، تَهَشُّ بَتَلاتُهُ لِكُلِّ نَحْلَةٍ أَمَّتْهُ بِقَصْدِ جَنَى الرَّحِيْقِ، فَقَدْ عَرَّشَتْ عَلَى جَانِبَي قَبْرٍ كَرِيْمٍ، وَرُبّمَا صَعَدَتْ إِلَى رُخَامِ اللافِتَةِ، فَجَاوَرَتْ حُرُوفَ الاسِمِ الشَّفِيْقِ، وَلَا تَدْرِيْ تِلْكَ اللافِتَةُ بَعْدُ إِنْ كَانَتِ الحُرُوفُ المَخْطُوطَةُ فِيْ مَتْنِهَا تُرضِيْ مَقَايِيسَهُ الذّوْقِيّةَ الدَّقِيْقَةَ فِيْ رَسْمِ الخَطِّ العَرَبِيِّ، لَا بَأسَ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِيْ العُمْرِ

مُتَّسَعٌ لسؤالِهِ، وهُوَ الذي لَمْ يَبْخَلْ عَلَى أَحَدٍ بالإجَابَةِ يَومًا؛ إذْ كَانَ قِبْلَةً لِلْتَائِهْينَ مِنْ طَلَبَةِ الدِّراسَاتِ العُلْيَا عَلَى اخْتِلَافِ اختِصَاصَاتِهِم، وطَلَبَةِ المَرْحَلَةِ الجَامِعِيّةِ الأوّلَى فِي سَنَواتِهِم المُخْتَلِفَةِ، يُسْدِي النُّصحَ صَافِيًا سَدِيْدًا، فَضْلًا عَلَى مَا يَجْنِيهِ الطّالِبُ إذا حَظيَ بِإشْرَافِهِ، أَوْ كَانَ عُضوًا فِي لَجْنَةِ مُنَاقَشَتِهِ، وَهَذَا يَفتَحُ البَابَ لِلانْتِقَالِ إلى الكَلَامِ عَلَى مَا أَفَادَنِيْ بِه.

الأستاذُ الدّكتورُ مُحَمَّد شَفِيْق البِيْطَار ونُبْلُ المَوقِفِ وصِدْقُ النُّصْحِ:

يُغْرِيْكَ مَا تَسْمَعُهُ عَنْهُ مِنْ نَفَثَاتٍ عروضِيَّةٍ سَدِيْدَةٍ عَزَّ مَثِيلُهَا عَنْدَ أَهْلِ الاخْتِصَاصِ، وَكَافِلِيهِ؛ إذْ تُصْغِي بِشَغَفٍ إِلَيْهِ يُصَحِحُ لِطَالِبَةٍ بَاحِثَةٍ فِيْ عَرُوْضِ الأَدَبِ الحَدِيْثِ مُفردَةً واقِعَةً فِيْ سِياقِ اقْتِبَاسٍ وهِيَ (التّغْبِير) وكَانَت قَدْ نَقَلَتْهَا: (التّغْبِيل) فَتَوَقَّفَ عِنْدَهَا مُبْتَسِمًا بِتوَاضُعِهِ المَعْهُودِ قَائِلًا: (لَعَلّكِ تَقْصُدِيْنَ التّغْبِيرَ، وهُوَ: الغِنَاءُ لِلْغَابِرِيْنَ، وَقَدْ كَانَ مَكروْهًا عِندَ السَّلَفِ...)، وَلِشدَّةِ مَا استَشْعَرْتُ عُمقَهُ فِي عَرُوضِ الأَدَبِ الحَدِيْثِ الذي تَجِدُهُ فِيْهِ عَلَى قدمِ المُسَاواةِ مَعَ القَدِيْمِ، قَرَرْتُ مَرّةً سُؤَالَهُ عَنْ قَصِيْدَةٍ فِي دِيْوَانِ العُجَيْلِيِّ وَكَانَ شِعْرُهُ شَطرًا مِنْ رِسَالَتِي التي سَجَّلْتُها؛ لِنَيْلِ دَرَجَةِ المَاجِسْتِيرِ. القَصِيْدَةُ تُوْقِعُكَ فِيْ حَبَائِلِ الحَيْرَةِ مِنْ حَيْثُ الشَّكلُ العَروضِيُّ الذي نُظِمَ نَثِيْرُها فِي عِقْدِهِ؛ فَهِيَ سِتَةُ أَشْطُرٍ تَتْبَعُها تَفْعِيْلَةٌ سَابِعَةٌ تَحْتَلُ شَطرًا وَحدَها، فَلَمّا عَرَضْتُ القَصِيدَةَ عَلَيْهِ وهِيَ تَحْمِلُ عُنْوانَ (عَيْنَانِ زَرقَاوانِ)، ودَفَعْتُ إِلَيْهِ بِالديوانِ نَظَرَ إلى الأَشْطُرِ، وَقَدْ تَضَيَّقَت حَدَقَتا عَيْنَيْهِ، وتَرَكَّزَتْ عَلَيْهَا، فَقالَ: (هَذي لِلْعُجَيْلِيِّ؟) أجبتُهُ: (نَعَمْ وهيَ سِتَةُ أشطُرٍ والسّابعُ تَفْعِيْلَةٌ يَتيمَة). ابْتَسَمَ قَائلًا:(لَعَلَّهَا بِنِظامِ المَوّالِ السَّبْعاوِيِّ، وهُوَ مِنْ أَضْرُبِ النَّظْمِ المَلْحونِ فِي بِيْئَةِ العُجَيْلِيِّ، اعْتَني بِهَا فَهيَ من الفَصِيْحِ الذي يَأتي عَلى شَكَلِ المَلْحونِ)، بِهَذا حَلَّ لِي رَحِمَهُ اللهُ لُغزَ شَكْلِ القَصِيْدَةِ، و حَمَلْتُها و سَأحْمِلُها لَهُ فِيْ نَفْسِي إِلى أنْ يُغَيَّبَ اللهُ مِنّي الرّوحَ عَنْ هَذِي الدُّنيَا الفَانية، حَمَلْتُها لَهُ فِيْ نَفْسِي كَما أحمِلُ أطْيَافًا مِنْ حُضورِهِ البَهيِّ، و صَوْتِهِ الرَّخيْمِ، صَبَاحًا حِيْنَ كُنْتُ أَجُرُّ خُطواتِي بِتثاقُلٍ إلى أَمَانَةِ

السِّرِّ فَأَجِدُهُ وقَدَ تَصَدَّرَ مَكتبَهُ، وانكَبَّ عَلَى حَاسِبِهِ، فَمَا إِنْ أَقُول السّلَامُ عَلَيْكُمْ حَتّى يَمْتَعِضَ، وَ يَسْتاءَ قَائِلًا: (وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ، أَلَا يَجِبُ أَنْ تكوْنُوا أَنتُم _المُعيدينَ _ فِي المَكْتبَةِ، وَلَيْسَ فِي المَكْتَبِ...) كَانَ أَسْبَلَ اللهُ عَلَيْهِ الرّحماتِ إِذَا رَأى مُنْكرًا حاولَ تَغييرَهُ بِما أَمَرَ اللهُ بِهِ، وأَضعَفُ الإِيْمَانِ أَنْ يَسْتَنْكِرَ بِقَلْبِهِ الطّاهِرِ، فَيَطْفو ذَلِكَ كَدرًا عَلى تَقَاسيمِ وَجهِهِ، أَو كُلَيْمَاتٍ عَلى لِسَانِه مِنْ قَبِيْلِ(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ).

مَا خَجِلْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ يَا دُكتور أَنَنِي تَمَنَّيْتُ أَنْ تكونَ رئيْسًا لِقِسْمِنا، وعَميدًا لِجَامِعَتِنَا، وَوَزيرًا للتّعليمِ العَالِي، غَيْرَ أَنَّكَ كُنْتَ بِمَنْأى عَنْ كُلِّ تِلْكَ المَغَبّاتِ، رُبّما أَنْصَفُوكَ حِيْنَ تَخَيّروكَ عُضوًا لِمَجمَعِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، وأَنْصَفُوا بِكَ المَكَانَ، فَبَثّوا فِيْهِ روحًا ورَيَاحينَ، أَلَمْ تَبْعَثْ أَشْعَارَ قَبائلَ مِنْ أَجْدَاثِهَا، أَلَمْ تُقَوّم أَحْسَابَهَا، وتُظْهِرْ أَنْسَابَهَا؟ أَلَمْ تُصْنَعْ للجَاهِلِيّةِ مَعاجِم جَديدة على عَيْنِكَ، فَكَيْفَ أَغْمَضَ المَوتُ عَيْنَكَ ومَا زَالَتْ هُنَاكَ قَبَائِلُ رَهيْنَةَ الحَبْسِ، وأشعَارٌ حَبِيْسَةَ الكَسْرِ، وكُسورٌ في العَرَبيّةِ لا بُرءَ لَها إلّا عَلَى لِسَانِكَ، كَيْفَ أَصْمَتَ المَوْتُ ذَلِكَ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ المُبِيْن؟ أَتُرَاهُ سُبْحَانَهُ رآكَ بَلَغْتَ مَبْلَغَ الأَنْبِيَاءِ، فَاصطَفَاكَ إِلى جِوارِهِم، لعَلَّ هذا مَا كَانَ وبِهِ العَزاءُ يكونُ، والمصابُ يَهون.

ورحل العالم القُدوة

د. ضياء الدين عبد الغني القالش

غادرَنا قُبيل فتح دمشق بأيَّام، فأبقى في النفس حسرةً لا تُمحى، كنَّا نرقب أن ندفع عنَّا حرارة الشوق إليه ببرد اللقاء بعد أن ضرب النظام البائد بيننا وبينه بأسوار الظلم والتهجير والتضييق والإجرام، وكنا نتمنَّى أن يَشهد زوال ذلك النظام الذي طالما حدَّثنا عن فنون فساده وإجرامه، غيرَ أنَّ قضاء الله كان إليه أسرع.

عرفتُه في أوَّل أيَّام التحاقي بقسم اللغة العربية في عام ١٩٩٧م، إذ دخل علينا مدرسًا قضايا الأدب الجاهليِّ، كان أشبَّ أساتذتنا آنذاك، ينطق ببيان عالٍ، ويتراءى بخلق جمٍّ، يكسوه حياءٌ ظاهرٌ، لطيفًا مؤنسًا محبَّبًا إلى طلابه، حريصًا على نفعهم، شفيقًا بهم، يملِك قلوبَهم قبل عقولهم، ويَغذُوهم بصِغار العلم قبل كِباره، وينبِّههم على شُبُهات المستشرقين وأذنابهم فيما يتَّصل بالشِّعر الجاهليِّ وما إليه، ويُحبِّب إليهم العربيَّة والشِّعر القديم بألطفِ أسلوب، ورأينا فيه العالِمَ المتقِنَ المتفنِّنَ في علوم العربيَّة، والمؤلِّفَ البارع المحقِّق.

وما ترك من أعمال دالٌّ على علوِّ شأنه وتفرُّده في قراءة الشِّعر وتنقيحه وتحقيقه وسبر أغواره، مع معرفة تامَّة بالأنساب والأخبار، وما يتَّصل بالشِّعر من العلوم، وانتهبت منه الحياةُ أكثر وقته فقلَّ نتاجه إذا ما قُورنَ بغزارة علمه وسدادِ رأيه ونفاذِ نظره في دقائق العلم، وكنَّا نرقب له أعمالًا أخرى تخطَّفته يدُ المنية دونها. كتب إليَّ عبر الهاتف قبيل وفاته ببضعة أشهر: "متطلَّبات الحياة والعمل لا تدع لي شيئًا يُذكَر من الوقت، ومع ذلك أستثمره بما يفيد، وهمّي الأوّل الانتهاء من تقويم نصّ كتاب البسوس وتحقيقه، وقد مضى نحو شهر لم أستطع مدَّ يدي إليه، ولكنّني أعمل كلّما سنحت فرصة".

رُزق من سماحة النفس وجمالها ما عزَّ نظيره في إنسان، يُخالط الناسَ بأحسن الأخلاق، وينطوي على وَداعةٍ ظاهرة، وعقل راجح، وقلب مشبوب بالحبِّ والفنِّ، وكان للعربيَّة منه

في ذلك أيُّ نصيب، فخطَّ حروفها برسمٍ أنيق جذَّاب، وتذوَّق جمال ألحانها، وأتقن عروضَ الشِّعر غايةَ الإتقان، وحاكَ القوافيَ العِذاب، وكتب النثر في أحسن بيان، مع بديهةٍ حاضرة، ونكتةٍ بارعة، لا يُملُّ منه الحديث، ولا ترى أحفى منه بجليس.

ما رأيتُ مثلَه عفَّةَ نفس ووفاءَ إنسان وبرًّا بمَن يلوذ به واتقاءً لمواطن الشُّبه، فلم يكن يقبل من طالب له هديةً أو خدمةً مهما صغُرت، زرتُه في بيته أوَّل مرَّة في صيف ١٩٩٨م برفقة صديق لي كان بينهما موعد يتَّصل بعمل من الأعمال، وكنَّا فرغنا آنفًا من امتحانات السنة الأولى، التقينا في مسجد البراء بن عازب بعد صلاة الجمعة، فلمَّا رآني تهلَّل وجهه، ثم سعينا نحو البيت، وحين بلغنا البابَ التفت إليَّ وسألني: ضياء هل نجحت في مقرر الأدب الجاهليّ للفصل الثاني؟ فلمَّا أجبته بنعم، قال لي الآن فادخل.

ولمَّا تولى منصب أمين المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية على كُره منه، زرتُه مرَّة في مكتبه فيه، وسألته عن مسألة من مسائل العلم، فأجابني جوابًا شافيًا مفصَّلًا، ثمَّ أراد أن يزيد الجوابَ إيضاحًا بالكتابة، فسألني ورقةً ليكتب عليها، فنظرت إليه كالمتعجِّب، إذ كان الورق مبذولًا بين يديه، فقال لي: هذه مسألة خاصَّة، ولا أريد أن أستعمل لها ورقًا من المال العامِّ، ثمَّ رأيت تحت بلور مكتبه صحيفةً مرقومةً بخط اليد كأنَّها موضوع كتبه طالب لأستاذه، فسألته عنها، فإذا هي وصية لابنته التي كانت طالبة في الإعدادية فيما أذكر، تقول فيها ما معناه: يا أبتاه إنَّا لنصبر على الجوع ولا نصبر على الحرام، قرأ لي تلك الوصيَّة متأثرًا بها، وباح لي بوجله مِن تولي هذا المنصب، وأرَقِه ممَّا هو فيه، ثم لم يلبث أن استقال منه فلم يُقل، وكرَّر ذلك مرارًا حتى أجيب إلى ما أراد.

لم يكن يرضى بأن يُؤذى أحدٌ من أساتذته أو أصحابه بكلمةٍ في حضرته، ويشتدُّ غضبه على مَن يسيء إلى واحدٍ منهم، وما أكثرَ ما شهدتُه يُحامي عنهم إن ذُكروا بما لا يُرضي، ويلتمس لهم كلَّ عُذرٍ فيما أُخِذ عليهم، مع بذله العفو للأخلَّاء، وسعيه في الخير والصلح بين

الأصحاب إن وقع بينهم خصام، عظيم الصبر على أذى الناس. كتب لي مرَّة في بعض رسائله عبر الهاتف: "صباح الخير، في الحديث: (المُؤمِن الذي يُخالِطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم أفضلُ مِن المُؤمِن الذي لا يُخالِطُ الناسَ ولا يصبرُ على أذاهم)، رواه أحمد والبخاريُّ في الأدب المفرد، والترمذيُّ، وابن ماجه عن ابن عمرَ، وفي مسند أحمد عن الثلاثة الذين يُحبُّهم الله تعالى، ومنهم: (والرَّجلُ يكونُ له الجارُ يُؤذِيه جوارُه، فيصبرُ على أذاه حتَّى يُفرِّق بينهما موتٌ أو ظعْنٌ)".

وله على كلِّ واحد من طلابه أيادٍ لا تُعدُّ ودين مُستَحقّ، يقف إلى جانبهم ويُعينهم، ويسأل عن أحوالهم، ويحمل عنهم بعضَ ما آدهم حمله، على كثرة مَشاغله وهمومِه وقلَّة ذاتِ يده في أكثر مراحل حياته.

كان فريدًا في قراءته الناقدة لِما يتناوله من النصوص، وهذا ما أغرى كثيرًا من أصحابه وخِيار طلابه بأن يعرضوا عليه كثيرًا ممَّا يكتبون، وأن يسألوه في كلِّ ما يضعون يدهم فيه من الأعمال، فيُقبل على تلك الكتابات بالقراءة الفاحصة، ويدوَّن على طُرَرها ما يعنُّ له مِن ملاحظ، بخطِّه الدقيق المُتقَن، من غير إدلالٍ ولا عُجب، حتَّى كان بعض الطلبة يعرضون عليه رسائلَهم التي يُشرف عليها زملاؤه فلا يجدون في ذلك أدنى غضاضة، لِما يعرفون من تواضعه وسماحةِ نفسه، إذ لا يعنيه أن يُنسَب ما صوَّب في تلك الرسائل إليه. وكانت مراقبته للنصوص التي تُعرَض على الأطفال في رسوم متحرِّكة تكشف عن بصرٍ واسع بجوانب اللغة والثقافة والتربية، فلا تكاد تندُّ عنه كلمة أو حركة أو إشارة خفيةٌ تحمل ما لا يُرضي إلَّا كَشَف غطاءها وأبان عوارَها.

كان مشغولَ العقل والفكر بقضايا الأمَّة حريصًا على دينها ونصوصها وشبابها وثقافتها، مترصِّدًا لمكائد أعدائها، وكان كتب إليَّ في أواخر ما كان بيننا من رسائل قبيل وفاته: "أقترح عليك –وأن تقترح ذلك على كلِّ مَن تعرف، وأن يقترح ذلك كلُّ واحدٍ– أن ينشر على مواقع

التواصل بين وقت وآخر حديثًا أو عددًا من الأحاديث الصحيحة، نِكايةً بأعداء الله ورسوله المُسَمَّيْن بالقرآنيين، فإنَّ إهمالهم، وإشاعة ما صحَّ من حديث رسول الله خيرُ ردٍّ عليهم من أهل العلم بالحديث".

يغضي حياءً ويُغضى من مهابته

عبد الله راتب النفاخ

ما وجدت مستهلًّا لكلامي خيرًا من هذا البيت الشهير المنسوب إلى الفرزدق أصف به أستاذنا الدكتور محمد شفيق البيطار، العالم الإنسان.

ولعلمي بأن غيري سيسهبون في الكلام على علمه، فقد التفتّ إلى جانبه الإنساني، ذلك الذي لمسته ولمسه غيري واضحًا جليًا، بل مشعًّا مشرقًا.

كان لقائي الأول به من قبل أن أتتلمذ عليه في جامعة دمشق، وقد كان اسمه يطرق سمعي من قبل مشمولًا بالتقدير والاحترام، فلما لقيته فاجأتني تلك الابتسامة الخجلى التي ارتسمت على محيّاه، وذلك الترحيب المختصر الذي تعرّى من أساليب النفاق الاجتماعي والتزلف المتكلَّف، على أنني قُدِّمت إليه بنسبتي إلى والدي لا بصفتي الشخصية.

ثم وجدتُني طالبًا من مئات الطلاب أحضر درسه في الجامعة، فلم تتغير صورته الأولى، بل انضافت إليها صفات أخرى، الهدوء الرقيق، والحياء المهذَّب، مع الرجولة الحاضرة، ومن فوقها جميعًا تجلى العلم الغزير، فما عليك إلا أن تسأله سؤالًا بسيطًا فتجد أنك أمام بحر زاخر لا تُغَبُّ فواضله.

وقد يفجؤك بعدما تراه من رقته وحسن تأدبه أن تسمعه يقرأ إحدى قصائد شعر العرب الفخام، فتجد صوتًا اجتمعت فيه الرجولة العميقة وجرس الحروف المجلجل، حتى لتكاد ترتجّ له جنبات المدرج الواسع، أو تطرق خاشعة.

كان يعطي ويعطي من نمير علمه فيتدفق تدفقًا، وأيًا يكن ما تسأله عنه في مجاله تلقَ الإجابة، على صغر سنه حينها فهو لم يبلغ الأربعين، ثم تجده آخر المحاضرة كما كان أولها ولو استغرقت بضع ساعات، نشيطًا رحب النفس باسم المحيّا.

وما لا يسعني إغفاله بحال أني لم أجد أعدل منه في توزيع الدرجات، فما عرفت أحدًا

اشتكى من حيف ناله في مادته، على كثرة الشكوى والأذى الذي يتعرض له الطلاب في هذا الجانب ومنهم أنا.

رحمه الله، فقد رسم صورة راسخة لنفسه في صدور محبيه وعقولهم، امتزج فيها العلم الرصين الغزير بالالتزام الخلقي الشديد، وهما خصلتان يلزم اجتماعهما عقلًا، لكنهما قليلتا الاجتماع واقعًا.

أستاذنا الذي اكتَهَل علمًا وشابَ تواضعًا

فضل الحميدان

ما زالَ مَنبَعُ الهِمَمِ والعزائم في علماء الشَّام متدفِّقًا، فالطُّموحُ ممتدٌّ فيهم أبدًا؛ قد فارَ في مآقيهم الجِدُّ، وغار الهَزْلُ، حتَّى إنَّ المستحيلاتِ قد أصبحَت، في ظلالِ اقتدارهم، مُمكناتٍ.

ولهذا الذي ذكرتُهُ نظرةٌ تحليليَّةٌ يمثِّل رموزَها كثرةٌ كاثرةٌ من الأسماءِ العلميَّة التي برعَت في ميادين العلمِ كافَّةً، ودونكم نظرةً في عشَراتِ الأسماء التي أضاءت دنيا العلوم داخلَ الوطن أو خارجَه لتجدوا صدقَ المقالةِ وأصالَتها.

في جامعة دمشق ١٩٩٨م

في جامعة دمشقَ، في كلِّية آدابها كانتِ المحاضرةُ الأولى لي في بدايتي لدراسةِ العربيَّة عام ١٩٩٨م انقلابًا في فكرة تعلُّقي بهذا التخصُّص، وزيادةً في التأمُّل فيه، وثقةً جديدةً بالقُدرة على تحقيق ذاتي في معانيه.

وقد كنتُ أتابع المحاضرَ الذي كان يُرسِلُ نفَسَه الطويلَ بين دقيقة وأُخرى؛ وجملةٍ وأُخرى كأنَّه يريد أن يتوثَّق أنَّ أنفاسنا تُحاكيه، أو أنَّ بعض نفْسِه غدَت جزءًا من أنفُسِنا وإحساسنا وإدراكنا.

ولك، أيها القارئ، مع هذا العالِم الجليل الذي أحدِّثك عنه، كلُّ خِبرات الأيَّام التي مرَّت بك لتُرسِلَها بين يدَي قراءتك له، وتحليلك لخِصاله لتخرُجَ، كما أثق تمامَ الثقة، بخُلاصة الدِّراسة من أنَّه، أي عالمنا الجليل، البيتُ الذي تدور عليه أبياتُ المعاني العالية كلُّها، بل هو من هذه القصيدةِ (البيتُ الأميرُ) الذي تُحفَظ كلماتُ هذه القصيدة كلُّها من أجله.

وحتى أسبِقَ حُكمَك، أيها القارئ، عليَّ فأستاذُنا العلَّامةُ الجليل الذي أكتبُ لك عنه يخرجُه للناس في الصُّورة التي أحبَّها فيه النَّاسُ وجهان:

– جَمالُه: وهنا سبِّقْ بجُزئه الرُّوحي العَتيق الذي جعله سرًّا باقيًا، هذه السنين كلَّها، في موضعٍ من إجلال العالمين وتقديرهم.

– ظَرفُه: ولك أن تستحضرَ رجلًا شابَ علمًا لم تغِب عنه حاضرةُ الظَّرْف والمُلحة والنُّكتة التي يَزيدُك بها، ويَزيدُ عندكَ بها.

وأصدقُك القولَ: إنه رجلٌ لا يحبُّ صادقًا مثلَ كلامي هذا عنه، لكنَّني خرَجتُ ممَّا يحبُّ هو إلى ما أحبُّ أنْ يعرفَه عنه الناس؛ ممَّن لم يلقَه أو يسمَع باسمه من قبل.

العلَّامةُ المَجمَعي الأستاذ الدكتور **محمَّد شفيق البَيطار**: واحدٌ من هؤلاء الذين أتقرَّب بمحبَّتهم وإجلالهم إلى أسرار السَّعادة في نفسي، وأتقرَّب بهم إلى ملاحظة النَّصَف والعدالة وحاقِّ العِلم ورُكنه البَقيِّ المَكين.

وأمَّا قبلُ

فممَّا قرأتُه لأديب العربية مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى:

"المعلِّمُ هو الركنُ الذي تُبنَى عليه حضارةُ الأمَّة، فهو الذي يصنعُ العقولَ، ويهذِّبُ النفوسَ، ويغرِسُ القِيَم".

وكذلك قد كان العلَّامةُ المجمَعيُّ أستاذُنا العالم الجليل محمَّد شفيق البَيطار مع طلَّابه؛ متقَفِّيًا الرَّافعيَّ الذي أحبَّه في قوله وعمله، فصنعَنا صنعةَ العارفين على حكمةٍ ودراية، وربَّانا، على حنُوٍّ منه وحبٍّ، كأننا إِخوةٌ له أو أبناء، وزرعَ في صدورنا أدبَ الكبار وقيمَهم، وحبَّب إلينا أحوالَهم، فما انقطع عن بِرِّه بنا نحن طلَّابَه، كما لم ينقطِع ساعةً عن وفائه بأساتذته.

حديثُه الهادئ، نغمتُه المحبَّة الآسرة، ابتسامتُه الوادعة الصَّادقة، سؤاله المستمرُّ عن عملنا وإنجازنا، عن سعادتنا وحال أولادنا، تواضعُه معنا، إشعارُ كلٍّ منَّا بأننا أقربُ النَّاس إليه... خصائصُ لا تجدُها إلا في ورَثة الأنبياء الذين ورِثوا الخصائصَ الإنسانية العُليا التي تجِدُ

صورتَها في معنًى من معاني الدُّنيا العزيزة، وتتلمَّس حقائقَها في أنفاسٍ من الآخرة التي لا تظفَرُ بها إلا في الكبار، الكبار وحَسْب.

وأمَّا بعدُ

فحينَ يجتمعُ للشَّهادة، في نفسِ صاحبِها، عِلمُها، وفوقَ علمِها هذا علومٌ أُخرى تَزيدُها فإنَّ لصاحبِ الشَّهادةِ مكانةً تفسِّر كلمةَ المكانة في مئةِ فضيلةٍ غير العلم.

وحينَ يكونُ للآخرةِ من ضَميرِ صاحبِ الشَّهادةِ مساحتُها التي تُظِلُّ وِجدانَهُ، تصبحُ الشَّهادةُ التي يحمِلُها قانونًا للفضائل الأخرويَّة مجتمعةً.

وهكذا تكونُ الأخلاقُ الإنسانيَّة العُليا، تكونُ قد شكَّلت في نفس صاحبِها هذا القانونَ الخالدَ الذي يقول: قد انتصرَ إنسانُ الآخرة، فيَّ، على إنسان الدُّنيا.

وأستاذنا الدكتور أبو عبد الرحمن محمَّد شفيق البَيطار رجُلٌ هَدَّكَ من رجُلٍ[1]، فقد ثَقِفَ أدبَ العربيَّة وأسانيدَها، فلم يرَها قصائدَ ومنثوراتٍ وتواريخَ أمم فحسب، بل رآها بنقَداتِه المتأمِّلةِ قنَواتِ الزَّمنِ التي تحملُ دماءَ التَّاريخ المجيدة؛ لتعملَ في الحياة عملَها: فتصنع من أبناء أمَّتنا سادةَ التَّاريخ: عروبةً وعِلمًا، ومن قبلُ: إيمانًا يبلغُ بهم وبأمَّتهم مبلغَ المُحسِنين.

أكتبُ هذه الكلماتِ وأعترفُ مرَّة أُخرى أنَّ أستاذنا الدكتور البَيطار لم يكن راضيًا يومًا بأنْ أخُطَّها عنه في حياته؛ فهو، عند نفسِهِ، [العبدُ الذي لا يملِكُ ما يفخَرُ به إلا أنْ يتغمَّدَه اللهُ برَحمتِهِ]، وإنَّه ما بلغ يقينَهُ هذا إلا حين أيقنَ بأنَّ القويَّ هو مَن يعملُ مع نفسِهِ، وأنَّ من يرى عمله بمكانٍ عَلٍ إنَّما هو للأضعف أكثرُ ممَّا هو للأقوى، فلسفةٌ لا تصلحُ إلا لمَن يسومُ الحياةَ بموازين الآخرة، لهؤلاءِ القُرَّاء الذين تلقَّوا الحياةَ من دروس الكِبار، فعرَفوا أنَّ حكومةَ

(١) قال الزمخشري: وهذا رجُلٌ هَدَّكَ من رجُلٍ، إذا وُصِفَ بجلَدٍ وشدَّة، أي: غلَبَك وكسَرَك. أساس البلاغة (هـ د د). وقال ابن دُريد: هَدَّكَ فلانٌ من رجُلٍ أَي حَسْبُكَ بِهِ. جمهرة اللغة ١/ ١١٦.

النَّفس البشَرية لا يمدُّها إلا وِزاراتٌ أخلاقيَّة أعلاها وِزارةُ التَّواضع، والتَّواضعُ هو في تلك الوِزارات كلِّها هو الأخلاقُ المحارِبةُ فيها لكلِّ ما من شأنه أن يُضعِفَ مكانتها، أو يبدِّدَ من شأنِها.

وأمَّا بعدُ أخرى

فلقد عرَفتُ الدُّكتور شفيق من أكثرَ من خمسةٍ وعشرين عامًا، من يومٍ كانت قد جمعَتْنا فيه لأوَّل اللقاء حواراتُ المحاضرة الأولى لي في الجامعة، وفي مدرَّجها الأوَّل على التحديد. وما زالت صِلتي به في قوَّةٍ، وما زالت لقاءاتنا التي تضمُّ صفوةً من أهل الحبِّ والعلمِ والوفاء تزيدني عُلقةً به، وإعجابًا باقيًا بعلمِهِ الواسع، لا باختصاصه العلميِّ أستاذًا للأدب الجاهلي والمكتبة العربية والعَروض، فحسب، بل بعلوم أُخرى كان يقرؤها بحِرصِ قراءاته في اختصاصاته المتشَعِّبةِ الدَّقيقة. ومن يقرأ آخرَ ما كانت يداه قد خطَّتْه على مواقع التَّواصل، فضلًا عن مقالاته وقصائده يدري صِدقَ ما أعنيه في أستاذنا.

ولعلَّ الصَّمتَ الطَّويلَ الذي زانه، وعرَفه به زملاؤه وطلَّابه ومحبُّوه يَشِي بأنَّهُ قد خلعَ على نفسِهِ نواميسَ الطبيعة الصَّامتةِ المتأمِّلة، فلا يعرفُ ما الحياةُ إلا في الإصغاءِ لأهلها، ولا يعرفُ ما الموتُ إلا أنَّهُ الاستماعُ بمَهابةٍ للأحياء، حتَّى إذا تكلَّم في أمرٍ عرَضَتْ له الأفكارُ واصطَرَعَتْ فيه انبعثَ كأنَّه خيالُ العلماءِ المُدركين، وشعورُ العارِفين المتوثِّبين، وقوَّة المعارفِ التي تَبرُزُ من أعماق العلوم، فيُقيم المائلَ ويحاورها وينقدُها.

ولعلَّ قارئًا، إن لم يُجانِس الدكتور شفيق، يجدُ بعضَ مبالغةٍ وكأنِّي أتحدَّثُ عن علماءَ لم يبقَ منهم إلا ذواتٌ كالجِبال، والحقيقةُ أنَّ هذا الشَّابَّ الذي اكتَهَل علمًا قد تحرَّى آثارَهم، وتقفَّى خُطواتِهم، حتى إنَّك ما تستشعِرُ حين جلوسِكَ إليه إلا أنَّكَ في حَلْقَةٍ من حَلَقاتِ العلماء السابقين العارفين المتبصِّرين.

وقد كنتُ أنتظِرُه حتى يفرُغَ من محاضراته التي لا أفوِّتُ أكثرَها، فأحظى بالاستماع إليه، ومصاحبته، والتعلُّم من هِمَّته. وإن نسيت لا أنسَى تلك اللقاءاتِ التي كانت في بيته، يُكرمنا فيها ببَشاشته، ويُطعمنا فيها من لذيذ طعامه، مجالس كنتُ أسعَدُ فيها فلا أتمنَّى انتهاءها، مجالس كان فيها العلمُ والنُّور والوَقارُ والسُّموُّ، وكان فيها أستاذُنا معلِّمًا ما زلتُ من خمسةٍ وعشرين عامًا أرنو إليه فيها بمَهابةٍ وتقدير وحبٍّ.

وخاتمةً

فالحديثُ عن الدكتور شفيق رحمه الله تعالى حديثٌ عن جيلٍ جليلٍ طويل؛ حديثٌ عن آثارهم ومحاسنهم؛ حديثٌ عن الجمال والمروءة والأنس والحياة، حديثٌ عن أصالةِ علماء العربية الكبار في دمشقَ الشام، حديثٌ عن دمشقَ أمِّ العلماءِ بعِتْقها وحُسْنها وعظَمَتها.

العَروضيُّ الفذُّ

د. محمَّد عبد السَّاتر زكريَّا

الحمد لله وكفى، والصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ المصطفى، أمَّا بعدُ:

فإنَّ معرفتي بالأستاذ الدُّكتور محمَّد شفيق البيطار رحمه الله تعود إلى عشر سنين مضت في مرحلة الماجستير، ثمَّ تعمَّقت صلتي به من بعدُ، فصرت ألجأ إليه في كلِّ مُهِمَّةٍ تعرض لي، ويقرأ ما أرسله إليه ممَّا أكتب فيقوِّم ويسدِّد، وذلك كلُّه بأريحيَّته المعهودة غيرَ مبالٍ بضيق وقته. وكان آخر ما منَّ به عليَّ مساعدته إيّاي في حلِّ بعض ما أشكل عليَّ من مواضع في كتاب المعمَّرين والوصايا لأبي حاتم السِّجِسْتانيِّ، الّذي عُنيت بتحقيقه.

إنَّ ما عرفته في الدُّكتور محمَّد شفيق رحمه الله من خلال تواصلي معه في وسائل التَّواصل أو من خلال زياراتي المعدودة له في مكتبه في كلِّيَّة الآداب بجامعة دمشق يعرفه كلُّ ذي صلة به؛ يعرف حفاوة استقباله من يفد عليه، ويلمس فيه حبَّه العربيَّة، وغيرته عليها، وتقديره علماءها، واهتمامه بحال أمَّتنا العربيَّة والإسلاميَّة، وكلُّ ذلك ظاهر جليٌّ يعرفه فيه القاصي والدَّاني، ولا أريد في هذه الكُلَيمة السَّريعة أن أُسهِبَ في هذا الجانب، وحسبه منِّي – رحمه الله– أن أُثْبِتَ فيها مسألةً عروضيَّةً ألقيتُها عليه فأجاب عنها بما ينمُّ على التَّمكُّن في هذا العلم، عسى أن يكون ذلك من العلم الَّذي يصل أجرُ نفعه إليه في قبره.

ولكنْ قبل أن أُثْبِتَ سؤالي له وجوابه عنه رحمه الله أقول، ولستُ في هذا القول فردًا: إنَّ الدُّكتور محمَّد شفيق فارس الميدان في هذا العلم؛ إذ درَّسه سنواتٍ طويلةً في قسم اللُّغة العربيَّة في مرحلَتي الإجازة والدِّراسات العليا، وألَّف فيه كتابًا جامعيًّا، ولم يزل يقدِّم فيه ما ييسِّر على الطَّلبة فهمه حتَّى آخر عمره؛ إذ صنع جداول بحور الشِّعر العربيِّ، وكان الأستاذ أحمد العلاونة حفظه الله نقل عن الدُّكتور عادل سليمان جمال قولًا يشهد بعلوِّ كعبه في هذا العلم؛ قال: أفضل المحقِّقين الأحياء في ضبط الشِّعر: الدُّكتور أنور أبو سويلم، والدُّكتور

عبد الإله نبهان، والدُّكتور محمَّد شفيق البيطار، والدُّكتور محمَّد الدَّالي[1].

سؤال في علم العَروض

السُّؤال: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته... عساكم بخير دكتور

لو تكرَّمتم دكتور أريد أن أسألك عن المشطور الَّذي وزنه: مستفعلن مستفعلن فعولن.

أنت تعدُّه مشطورَ السَّريع، وبعضهم يعدُّه رجزًا.

أليس تناوب التفعيلة الأخيرة بين فعولن ومستفعلْ (مفعولن) في بعض الشِّعر يرجِّح عدَّه من الرَّجز؟ أم ما الرَّأي في ذلك؟

وجزاكم الله خيرًا.

الجواب: التَّفعيلة الأخيرة أصلها (مفعولاتُ) فأصابَها الكَسْفُ (حذف المتحرِّك السَّابع)، فصارت (مفعولا = مفعولن)، ويجوز فيها الخبنُ (حذف الثَّاني السَّاكن) فتصير (مَعُولا= فعولن)، **وهنالك من يعدُّه من الرَّجَز،** وقد أصاب مستفعلن القطع (مستفعلْ= مفعولن)، ويصيبها الخبن فتصير (متفعلْ = فعولن)، **والقول إنَّه من السَّريع هو الصَّواب** إذا أُريدَت الدِّقَّة في التَّمييز بين البحرين، وإذا أخذنا في الحسبان أنَّ تقدير أخفِّ التَّغيير أولى، وهو أنَّ الكسف حذفُ متحرِّك فقط، وأنَّ القطع حذف ساكن وتسكين متحرِّك.

الأصل في التَّفعيلة أنَّها (مفعولا)، ويجوز فيها الخبن، وهو زِحاف يقع في تفعيلة ولا يقع في أخرى، والزِّحافات غير لازمة أي ليس على الشَّاعر أن يكرِّرها (إلَّا فيما ندر، مثل قبض مفاعيلن في عروض الطَّويل، وخبن فاعلن في عروض البسيط)، وإنَّما الواجب (اللَّازم) تَكرارُ العلل، مثل الكسف في (مفعولا = مفعولن) بحذف التَّاء من آخر (مفعولاتُ)، والحذف في (فاعلا = فاعلن) في الرَّمل بحذف السَّبب الخفيف من آخر (فاعلاتن).

---

[1] نقل ذلك في منشور على (فيس بوك) بتاريخ ٢٠١٧/٤/٢٨م، وأمَّا اليوم فقد انتقل القائلُ – أعني الدُّكتور عادل – وأولئك المحقِّقون جميعهم إلى رحمة الله جزاهم الله عن العربيَّة وأهلها خيرًا كثيرًا!

فإذا أصاب الخبنُ (مفعولا = مفعولن) صارت (معولا = فعولن)؛ وأكرِّر أنَّ الشَّاعر حرٌّ في أن يقع في هذا الزِّحاف أو أن يتجنَّبه؛ لأنَّ الزِّحاف رُخصةٌ للشَّاعر يفعلها متى ألجأه النَّظم إليها؛ فمثلًا: في عروض الرَّجز وضربه، وفي مشطوره ومنهوكه يجوز أن تجتمع في النَّصِّ الواحد: (مستفعلن) و(متفعلن = مفاعلن) المخبونة، و(مستعلن = مفتعلن) المطويَّة، و(متعلن = فعلتن) المخبولة، وفي الكامل يجوز أن تجتمع (متَفاعلن) و(مْتفاعلن) المضمرة و(مفاعلن) الموقوصة و(مْتَفَعلن) المخزولة، ولا حرج على الشَّاعر في ذلك إلَّا من جهة أنَّ الزِّحاف قد يكون مُسْتَقْبَحًا صوتيًّا كالوقص والخزل والخبل، ولكنَّ الرُّخصة تبيح له ذلك كما تبيح الرُّخصةُ القصرَ والجمعَ في صلاة المسافر، وأكلَ الميتة للمضطرِّ ونحو ذلك من الرُّخَصِ.

انتهى تحرير جوابه رحمه الله.

تعقيب: أصل الخلاف في المسألة موافقةُ الخليل رحمه الله في جعل بحر السَّريع مؤلَّفًا من (مستفعلن مستفعلن مفعولاتُ) أو مخالفته في ذلك والقول بكون السَّريع مؤلَّفًا من (مستفعلن مستفعلن فاعلن).

والدُّكتور محمَّد شفيق البيطار رحمه الله بنصرته قولَ الخليل رحمه الله ينطلق من منطلقين اثنين: **الأوَّل** ذَكَرَهُ في جوابه، وهو كون تقدير أخفِّ التَّغيير أولى من غيره، **والثَّاني** أنَّ قول الخليل متَّسق مع نظريَّته ومنها فكُّ السَّريع من الدَّائرة الَّتي وضعه فيها، ولا إشكال يُذْكَرُ فيه، وهذا المنطلق الثَّاني منقول من كلام الدُّكتور بحرفيَّته، وعقَّب بعده بكلام يدلُّ على فضل الخليل والإعجاب بعلمه، وهذا نصُّه: "وما كلُّ هذا الَّذي قال به غيرُ الخليل ممَّن جاؤوا بعده إلى يومنا هذا سوى تعكير لمياه راكدة صافية، ولا فائدة منه إلَّا أن يجعلوا بيتًا من السَّريع أو مشطوره أو منهوك المنسرح من الرَّجز أو مشطوره أو منهوكه، ولو أردتُ أن أصف هذا لقلتُ إنَّه ضرب من الكفر العلميِّ وتطاول على مستنبِط العلم الَّذي أكلوا من علمه على

موائد العلم ثمَّ بصقوا في الصَّحفة الَّتي أكلوا منها".

هذا غيض من فيض علم الأستاذ الدُّكتور محمَّد شفيق البيطار رحمه الله أحببتُ أن أضعه بين يدي القرَّاء الكرام لعلَّهم إذا انتفعوا به يذكرونه بدعوة صالحة جزاء ما قدَّم للعربيَّة وأهلها.

والحمد لله ربِّ العالمين

صاحب الهيبة والوَقار

محمّد نهيل عنطوز

(الدكتور محمد شفيق البيطار) كان هذا الاسم يتردّد على مسامعي كثيرًا منذ أن كنت يافعًا، وصار يتردّد أكثر عندما سجّلتُ في كلّية الآداب عام ٢٠١٤م. يذكره الطلاب بكلّ مودّة واحترام وتقدير، لِما تركه من أثر طيّب في نفوسهم، ولِما أفاض عليهم من بحر علمه الزّخّار، ولطالما سألتُ نفسي هل هو نفسه من كنّا نقرأ اسمه في شارات كثير من برامج الأطفال التي كانت جزءًا من طفولتنا؟ أهو نفسه من ردّدنا أغنياته ولا يزال أولادنا يردّدونها؟

لم تكن ظروفي في سنوات الإجازة تسمح لي بأن أحضر دروسه ولا دروس غيره من الأساتذة، ويا لها من خسارة كبيرة، إلا أنّي لم أكن أتوانى عن الإقبال على أملياته التي كان ينشرها للطلّاب، أتناول منها ما لذّ وطاب من فاكهة مادّة الأدب الجاهليّ الذي كان يبدع في تفسيره وتحليله.

وذات يوم اضطررتُ إلى الذّهاب إلى الكلّيّة لإنجاز بعض الأمور الإداريّة التي تتعلّق بالتسجيل، وإذ بي أرى مجموعة من زملائي يتحلّقون حول أستاذ من أساتذتنا الّذين لا أعرفهم شكلًا، فاقتربت ووقفت معهم، لأرى أستاذًا قديرًا، تعلوه هيبة العلم ووقاره، وتعلو وجهه ابتسامة تريح القلب، ويفيض من فمه الطيّب كلامٌ مليء بالعلم والأدب والحكمة والنّصح الممزوج بمشاعر الأبوّة، والذي يفيض غَيرة على هذه الأمّة، ويفيض بالمشاعر الصّادقة، كلام ينبع من القلب ليصبّ في القلب. كلام لم ألمس منه إلا الصّدق والإخلاص في تأدية رسالة العلم.

وقد استغللتُ الفرصة حينئذٍ لأحدّثه وأستشيره في أمر خاصّ بي، وإذ به يلتفت إليّ بكلّه، ينصت إليّ باهتمام مستمعًا لما أقوله وأبثّه إليه من أمرٍ كان قد أرّقني، فتحدّث إليّ بكلام كان

كالبلسم الشّافي، أزاح عن قلبي غمّة كانت تعكّرني. وبعد ذلك اعتذر مستأذنًا بالذّهاب، وكان الأَولى بنا أن نعتذر إليه من تأخيرنا له وشغله بأمورنا. وبعد ذهابه سألتُ زميلًا لي: من هذا الأستاذ الموقّر؟ وأنا أتشوّق إلى معرفة اسمه. فأجابني: وهل من أحد لا يعرف الدكتور محمد شفيق البيطار؟! وأنا أقول في نفسي والله إنّ الخبر ليس كالعيان، سمعتُ عن سيرته الحسنة، إلّا أنّ ما رأيته منه كان أحسن وأجلّ وأعظم.

ومذ عرفته صرتُ أتشوّق دائمًا إلى أن أجلس بين يديه أنهل من علمه وأرتوي إلى أن أكرمني الله تعالى بذلك عندما سجّلت في برنامج الماجستير الأكاديميّ، وكان حينئذٍ أستاذ مادّة العروض، فقرأنا بين يديه كتابًا من الكتب القيّمة، وأفاض علينا من ينبوع علمه الثّرّ، وكان لا يتوانى عن طرح أيّ فكرة تفيدنا في أيّ منحى من مناحي حياتنا، فوجدنا عنده العلم والأدب والأخلاق والتواضع والصّدق، ووجدنا عنده الغيرة على حال الأمّة، والاهتمام بأمور صلاحها ونهضتها.. وجدنا أنّه لم يكن يؤدّي مهنة فحسب، بل كان يؤدّي رسالة، لم يكن رجلًا عاديًّا، بل كان رجلًا بأمّة، وجدناه قامة علميّة فذّة، تجمع بين الفكر والإبداع، وبين الحزم واللّين.

ذات يوم مررتُ به وقد كان في مكتبه في الكلّيّة يراجع بعض الرّسائل، فسلّمتُ عليه، فاستقبلني بكلّ رحابة صدر ومحبّة، فجرى بيني وبينه حديث ذو شجون، أظهر لي فيه مقدار حرقته على ما وصلت إليه حال بلدنا، وفي أثناء هذا الحديث سألني عن بعض الأمور التي تتعلّق بي وبعملي وبتحصيلي العلميّ، ثمّ فاجأني بتقديم عرض عمل معه في مركز الزّهرة التّابع لقناة سبيستون، ففوجئت كثيرًا بذلك، وشعرت بأنّ الدّنيا لم تسعني من الفرحة. كيف لا وقد اختارني الدكتور شفيق البيطار من بين كثير من زملائي لأكون جليسه أعمل تحت جناحه في مكان لطالما حلمت أن أعمل به.

فصرتُ أعدّ الوقت بالدقائق والثواني، أنتظر اللّحظة التي أبدأ فيها بالعمل تحت رعايته. ليأتي

ذلك اليوم الذي كان مرحلة جديدة فارقة من مراحل حياتي في تحصيلي العلمي والمهنيّ.

حينئذٍ صرت أحدّث نفسي وأقول: يا لفرحتي! صرت قريبًا من الدّكتور شفيق أكثر من أيّ وقت مضى، وأكثر من أيّ أحد آخر.. وصرت أعمل معه في مجال التّدقيق اللغوي ورقابة النّصوص. ولا تزال كلماته تتردّد في ذهني، عندما نظر إليّ نظرة جادّة حازمة، قائلًا لي: يا محمّد! إنّ أبناء هذه الأمّة أمانة في أعناقنا، وإنّ ما بين أيدينا من برامج سيدخل إلى كلّ بيت ليراه أبناؤنا وبناتنا، وإنّ في هذه البرامج الغثّ والسّمين، ومهمّتنا أن نصفّيها من كلّ شائبة قد تعكّر صفو أذهان أبنائنا أو تخرّب عقولهم وعقيدتهم وأخلاقهم. يا محمّد إنّ هذه أمانة، وإنّنا لنقف على ثغر من ثغور هذه الأمّة، فلا تغفل عيناك أبدًا.

في مجالستي له من قرب، تعلّمتُ منه كثيرًا من الأمور لم يُتَح لي أن أتعلّمها كما يجب في جميع سِنِيِّ حياتي الماضية... علّمني النّحو والصّرف، علّمني دقائق في اللغة لم أعهدها من قبل، علّمني كيف أكتب القصائد التي تداعب مشاعر الأطفال وتغرس فيهم الفكر النهضويّ البنّاء. تعلّمت منه منهج حياة، وتعلّمت منه معنى الحياة، وأعطاني ثقة بنفسي كنت أفتقدها كثيرًا، وعلّمني وعلّمني وعلّمني ... وتالله ما عهدْته إلا ثابتًا على الحقّ، لا يخاف في الله لومة لائم.

عندما سجّلت موضوع رسالة الماجستير مع مشرفي الأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف، كان الدكتور شفيق لا ينفكّ يسألني عمّا أنجزته من بحثي، وكأنّي ولد من أولاده الّذين يحرص على إتمام تحصيلهم العلميّ، أو كأنّي طالب تحت إشرافه، بقي يحثّني ويدفعني لأعمل أكثر، ويتابعني ويوجّهني وينصحني، ويوبّخني أحيانًا توبيخ الأب لابنه، ويصوّب لي ما أُخطئ فيه، ويرسم لي منهجيّة أتّبعها في تحصيلي العلمي، وفي حياتي كلّها. وفي يوم مناقشة رسالتي كان من أوّل الحاضرين، وكان فرحًا لي أكثر من أيّ أحد آخر، وبقي يتابع أموري العلميّة ويسألني عن تسجيلي في الدكتوراه إلى آخر يوم جمعني الله تعالى به في هذه الدّنيا، وهو يقترح

عليّ الموضوع الفلاني، والبحث الفلانيّ، ولا يكلّ ولا يمل عن حثّي ودفعي وإرشادي.. إلى أن غيّبته مشيئة الله تعالى عنّا جسدًا، وأبقت علمه بيننا صدقة جارية عنه بإذن الله، ونبراسًا تهتدي به الأجيال من بعده..

الدكتور محمّد شفيق البيطار قد غاب جسدًا.. ولكنّه باقٍ معنا روحًا وعلمًا وأدبًا..

فرحمة الله تعالى عليك يا معلّم الأجيال، وجزاك الله عنّي وعن هذه الأمّة كلّ خير.

وسلام عليك.. يوم وُلِدتَ.. ويومَ مِتَّ.. ويوم تُبعَث حيًّا.

المعلّم الملهِمُ

مها أحمد عيسى

حين يختار أحدهم دربًا في الحياة فلا بدَّ أن تكون لديه بذور الرغبة، وأن يكون هناك دافعٌ لذلك أو محفزٌ عليه.

وأنا.. أحببت الأدب العربي، وتمنيت التخصص في دراسته عندما كنت في الحادية عشرة من عمري.

أما في الثانية عشرة فقد رأيت اسمه مدونًا ضمن شارات المسلسلات الكرتونية، وأسرتني كلماته عندها اتخذت قراري وجعلت هدفي نصب عيني وشحذت همتي لتحقيقه، فكان الدكتور محمد شفيق البيطار أحد أكبر دوافعي للدراسة، وكان البوصلة التي أرشدتني في دربي منذ البداية وقبل أن ألقاه.

أما حين دخلت كلية الآداب بتُّ أبذل جهدي رغم ظروف الحرب ومشاكلها كي أصل باكرًا قدر استطاعتي؛ لأنهل من ذاك العلم وأدون كلمات النور.

أما كلماته؛ فلازلت أذكر حين ذكر لنا أنه ليس بالضرورة أن نحفظ الأشعار التي يحددها لنا في المحاضرة طالما أننا نحفظ أخرى لذات الشاعر وتخدم نفس الغرض، كما أنه رفض أن يطالب بشراء الكتاب أو المدونة من ليست له القدرة على ذلك.

لقد كان ألطف معلم، وأرقى مربٍّ، وأروع قدوة.. كان موسوعة علمية بالمعنى الموسوعي للكلمة.

تمنيت أن أكون طالبة من طلابه تمنيت أن ألقاه والحمد لله تحقق ذلك، لكن الموت أخذه أبكر مما تصورت، رغم ذلك بصمته في حياتي ستظل ثابتة وسيظل اسمه يتردد.

رحم الله قدوتي ومعلمي وملهمي.. رحم الله الأب الروحيّ لطلاب قسم اللغة العربية.

في رثاءِ العلّامة المجمعيّ، الأستاذ الدّكتور محمّد شفيق البيطار

د. هبة عقيل

يتّسعُ الحزنُ، وتضيقُ العبارةُ، ويختنقُ القلمُ، وتضيعُ الكلماتُ في رثاءِ أستاذي المحقّقِ، العلّامةِ المجمعيّ، الشّاعر الأديب، الدّكتور محمّد شفيق البيطار، كيفَ لا؟ وأنا أرثي القدوةَ والمثلَ الأعلَى، وَسببًا مِن أسبابِ تكويني العلميّ والمعرفيّ والتّربويّ، وجزءًا مِن ذاكرتي يمتدّ إلى ما يزيدُ على خمسةٍ وعشرين عامًا، عرفتُ فيها الدّكتورَ شفيق البيطار، الرّجلَ النبيلَ، والعالمَ المعلّمَ، والأخَ النّاصحَ الودودَ، وابنَ البلدِ الأصيلَ.

كانت بدايةُ صِلَتي بالأستاذِ الدّكتورِ في العامِ ١٩٩٧م، لمّا التحقتُ طالبةً بقسمِ اللّغةِ العربيّةِ في جامعةِ دمشقَ، فنعمتُ بحضورِ محاضراتِهِ في الأدبِ الجاهليّ، وفي المكتبةِ العربيّة ومصادرِ التّراثِ، وأعددتُ بإشرافِهِ حلقاتِ البحثِ في المقررين. وكانَ في محاضراتِهِ الأستاذَ القديرَ، على حداثَةِ عهدِهِ، صاحبَ الحضورِ الرَّصينِ، واللّغةِ العاليةِ، والإلقاءِ الواثقِ، والاستطرادِ اللطيفِ إلى فوائدَ وفرائدَ في اللّغةِ والأدبِ والبلاغةِ، وكانت محاضراتُهُ فريدةً في غِناها، ودقّتها، وتنظيمِ مضمونِها العلميّ، وتسلسلِ أفكارِها، مع قُربِها من أفهامِ الطَّلبةِ، واقتدارِ صاحبِها على جذبِهِم ودفعِ السَّأمِ عنهم بفتحِهِ أبوابَ المناقشةِ والتّساؤلِ العلميّ الجاد.

وقبلَ أن ينقضيَ الفصلُ الأوّلُ من عامي الجامعيّ الأوّلِ، دخلتُ إلى مكتبِ الدّكتور لمناقشةِ حلقةِ البحثِ، فاهتمَّ لمّا قرأَ اسمي، وعرفَ أنّي من مدينةِ يبرودَ – وَمسقطُ رأسِه، رأسُ المعرّة، تتبعِ إداريًّا لمدينتي – وذكرَ لي آنذاكَ أنَّ ثمَّةَ مَن أوصاهُ بِي خيرًا، بعدَ تفوّقِي في الثانويّةِ العامّةِ، واستفسرَ عن سببِ التحاقي بقسمِ اللّغةِ العربيّةِ، مع أنَّ درجاتي في الثّانوية تؤهّلني للالتحاقِ بغيرِه، فقلتُ: إنّها محبّةُ العربيّة، فابتسمَ راضيًا، وقالَ: تستحقّ العربيّة الشّريفةُ أن نحبّها وندافعَ عنها، وأوصاني بها خيرًا، وشجّعني على المثابرةِ على التّفوّق،

فوعدتُهُ، وبذلتُ وسعي لأَفِيَ بوعدي، وأبقى عند حسنِ ظنّهِ بي وإكرامِه لي.

وتجدّدت الصّلةُ في السّنةِ الجامعيّة الثانية، وفيها تولّى تدريسَ النّثر الأمويّ، ونلتُ، كما نالَ كلّ طالبٍ، حقّه من الدّرجاتِ في مقرّراته، والحقّ إنّ إنصافَ أستاذنا في تصحيحِ الأوراقِ الامتحانيّةِ لم يكنْ في يومٍ من الأيّامِ موضعَ شكٍّ، وقد لمستُ ذلكَ لمسَ اليدِ بعدَ أنْ شاركتُهُ تدريسَ مقرّر الأدبِ الجاهليّ، ورأيتَ كيفَ يجمعُ دقّة المصحِّحِ وحنُوَّ الأبِ، في نظرِه إلى أوراقِ الطّلبةِ، وكانَ يُذيّل ورقةَ توزيعِ درجاتِ الأسئلةِ الامتحانيّة بالعبارةِ: "يُغَضّ – بعضَ الغَضِّ – عن الأخطاءِ ما لم تكُن فادحةً، وإذا كانَ الغضُّ عنها يساعدُ الطّالبَ في الوصولِ إلى درجةِ النّجاحِ".

وتخرّجتُ في الجامعةِ بتفوّق، والتحقتُ بالدّراسات العُليا، ثمّ عُيّنت معيدةً في قسمِ اللّغة العربيّة، وكنتُ استشرتُهُ في اختيارِ الاختصاصِ، وعرضتُ بين يديهِ تردّدي بينَ الاختصاصَين المطلوبَين، وهما: الأدبُ الإسلاميّ والأمويّ، والأدبُ العبّاسيّ، فنصحَ بالأوّل، قائلًا: إنّ هذهِ المرحلةَ من تاريخِنا حسّاسةٌ ذاتُ خطرٍ، وقدْ أرّخَ لها بعضُ مَن كانت لهُ مآربُ وأهواءٌ تعوزُها النّزاهةُ والموضوعيّة، فقدَّمها في صورةٍ مشوّهة، وهي تحتاجُ اليومَ إلى مَن يُنصفها في الدّراسة والتّدريس، فلعلّك تفعلين. فَحسمتُ أمري، وقبلتُ نصحَهُ.

عُرف عن أستاذِنا، رحمهُ اللهُ، سعةُ درايتِه بمجاهِلِ الأدبِ القديمِ، وإتقانُ فنّ التّحقيقِ، والتّمكّنُ من علومِ الآلةِ، كما عُرف عنهُ إخلاصٌ للعلمِ لا يكدّرهُ شيءٌ، وكنتُ في مرحلةِ إعدادي رسالةَ الماجستير أتتبّعُ المناقشاتِ العلميّةَ، فأحضرها، لأفيدَ ممّا يمرّ فيها من ملاحظاتٍ علميّةٍ ومنهجيّة، وتأثّرت بما حضرتُه لهُ من مناقشاتٍ، وأعجبني تنظيمُه ملاحظاتِه وتبويبُها تحت عنواناتٍ مخصّصة؛ في المنهجِ، والأحكامِ، واللّغةِ، وضبطِ الشّعرِ ووزنِه، وغيرِ ذلك، وحرصتُ على اتّباعِ هذا النهجِ في مناقشاتي لاحقًا، وكانَ من حُسنِ حظّي أن ناقَشني في رسالتي الّتي أعددتُها لنيلِ درجةِ الماجستير في الدّراسات الأدبيّة، بإشرافِ

أستاذي العلّامة الدّكتور وهب رومية، رحمَهُ اللهُ، فوجدتُ في ملاحظاتِه، يومذاك، دقّةً بالغةً، ناتجةً عن قراءةٍ متأنّيةٍ، وبعدَ نظرٍ، ووقوفًا على جوهرِ الأشياءِ، مع احترامِ وجهةِ نظرِ الباحثِ، وجهودِ المشرفِ. وكانَ ديدَنه الإنصاف، يبسطُ ما للطّالب من حسناتٍ في العملِ قبلَ أن يمضيَ إلى كشفِ عثراتِه الّتي تقتضي إعادةَ النّظر فيها، لترميمِ البحثِ وإخراجِه في حلّة بهيّة لائقة. وكانَ في عرضِ تلك العثراتِ يترفَّقُ بالباحثِ، ويقدّر إنجازَه، ويُعرضُ عن التّجريح، ويأبَى الإهانَةَ، وهو في ذلك كلّه لا يحيدُ عن الحقِّ، ولا يُواربُ، ولا يتملّقُ، بل يوازنُ موازنةً عجيبةً بين وضوحِ الحقّ، وجرأتِه فيهِ، ولطفِ العبارةِ وطيبِ أثرِها. وكيف أنسى ما خاطَبني بهِ في يوم مناقشتي، قائلًا: "إنّ ما في رسالتِكِ من الأخطاءِ كالنَّمَشِ في وجهِ الحسناءِ؛ لا يشينُها، إذا أُزيلَ". للهِ أنتَ يا دكتور شفيق! قد حزتُ من اسمِك النصيبَ الأَوفى!

وعُرف عنه أنّه كان الملاذَ الآمنَ لطلبةِ الدّراسات العليا، يتحلّقون حولَه، فَلا يتردَّد في مساعدتِهم وإرشادِهم، ولا سيّما إذا كانوا من المُعيدينَ المُحاصرينَ بتسرّبِ الوقتِ، فكان يهديهم إلى موضوعاتٍ تستحقُّ الدّراسةَ، ويفتح أمامَهم آفاقَ البحثِ، ويعدّل معهم مخطّطاتِ الأبحاثِ قبل عرضِها على المجالِس العلميّة، ثمّ يفتحُ لهم مكتبَه وقلبَه، مُجيبًا عن تساؤلاتِهم، موضحًا لهم ما استغلقَ من الأمورِ، وكان هذا صنيعَه معي لمّا تهيّأتُ للتّسجيلِ لنَيلِ درجةِ الدّكتوراه، فساعدني في اختيارِ الموضوعِ، وإعدادِ مخطّط البحثِ، وكانَ قد قبلَ الإشرافَ عليّ، لولا أنّ أنظمةَ الجامعةِ حالَت دونَ ذلك، بحجّة ضرورةِ تحقُّقِ التّطابقِ بينَ اختصاصِ الطّالبِ المُعيدِ واختصاصِ المشرفِ، ومعَ ذلكَ ظلَّ يفيضُ عليّ من علمِه وصبرِه، فلم يتوانَ عن قراءةِ أوراقِي، وتقويمِ ما فيها، ولا عن الإجابةِ عن استفساراتٍ كثيرةٍ كنتُ ألاحقُه بها، من مكتبِه في قسمِ اللّغةِ العربيّةِ، إلى مكتبِه في مجلّة جامعةِ دمشقَ للآدابِ والعلومِ الإنسانيّة، الّتي تولّى رئاسةَ تحريرِها آنذاك، إلى هاتفهِ، في اتّصالاتٍ طويلةٍ، ولم يكن يُبدي انزعاجًا، ولا يضيقُ صدرُه، ولم يبخلِ بإمدادي بالمراجعِ المتّصلةِ بالبحثِ، ويُذكر أنّه لمّا تسلّم رئاسةَ تحريرِ المجلّة

سادَ في أوساطِ الباحثين من أساتذةٍ وطلبةٍ في الدّراساتِ العليا ارتياحٌ وسرورٌ، ولمسوا يسرًا ومرونةً في حركةِ الأبحاثِ بين الباحثين والمحكّمين ورئاسةِ تحريرِ المجلّة، ولمسوا –كذلك– إنصافًا وحيادًا في التّحكيمِ والنّشر.

وبعدَ تعييني في عضويّة هيئةِ التّدريسِ في قسمِ اللّغةِ العربيّةِ، بمدّة وجيزةٍ، شرّفني بأن طلبَ منّي مشاركتَه تدريسَ مقرّرِ الأدبِ الجاهليّ، بعدَ أن بقيَ في الاختصاصِ وحيدًا، وشهدَ آنذاكَ بأنّه يثقُ بعلمي، ويرتضي أمانَتي، وشهادتُه تلكَ وسامُ فخرٍ على صدري! وكان قد جمعَ محاضراتِ المقرّر في أمليةٍ صنعَها، وضبطَها ضبطًا متقنًا، حرفًا حرفًا، فأوكلَ إليّ مراجعتَها، ومتابعةَ أمرِ طباعتِها، وحرصَ على توافرِها بين أيدي الطّلبة، منقّحةً، وافيةً، تسهيلًا عليهم، وضمانًا لوصول المقرّر إليهم، بعيدًا عن متاجرةِ المكتباتِ الخاصّة، وما كان يقعُ في محاضراتِها من أخطاء تُودي بالطّالب إلى هاويةِ الرّسوبِ. ثمّ تولّى رئاسةَ قسمِ اللّغة العربيّة، فأزاحَ عن كاهلي عبءَ تدريسِ اللّغة العربيّة لغيرِ المختصّين، ولم يرضَ أن أحملَ عبءَ مقرّرَي أدبٍ ضخمَين في كلّ فصلٍ من فصلَي العامِ الدّراسيّ، تدريسًا وتصحيحَ أوراقٍ امتحانيّة، وأن أحملَ مع ذلكَ عبءَ غيرِ المختصّين، ولم يكتفِ بذلكَ، بل حملَ عنّي كلّ عبءٍ غيرِ تعليميّ يتّصل بمقرّر الأدبِ الجاهليّ، من تنضيدِ الأسئلةِ الامتحانيّة، وتسليمِها، وطباعتِها، وتغليفِها، ونقلِها إلى مستودعها قبلَ موعدِ الامتحانِ، ثمّ كانَ يقلّني في سيّارته، مع ما تسلّمتُه من الأوراقِ الامتحانيّة، إلى بيتي، ويعتذرُ من إرهاقي بالتّصحيح وكثرةِ الأوراقِ، وما كان ذاكَ إلّا من تواضعِه ولطفِه، وكانَ يوصيني بالصّبر واتّساعِ الصّدر في أثناءِ التّصحيحِ، ويذكّرني دائمًا بأنّ الطّلبةَ يتكبّدونُ مشقّةَ الدّراسةِ في بلدِنا في ظروفٍ استثنائيّة، وأنّ واجبَنا الأخلاقيَّ يحتّم علينا أن نأخذَهم بالحِلم والرّحمةِ، وأنّ على المصحّح أن يسعى وسعَ طاقتِه، إلى فهمِ عبارةِ الطّالبِ وتصيّدِ الدّرجاتِ لصالحِه، ومساعدتِه على النّجاح، ما وجدَه أهلًا له، وأنّ المعاملةَ بالعدلِ لا تكونُ بتحطيمِ الدّرجاتِ، لأنّ الرّحمةَ والإنسانيةَ صفتانِ لازمتانِ للعدلِ، حتّى لا

يخلو العملُ البشريّ من روحهِ وجوهرِه.

ولم تكُن تلكَ الوصايا غريبةً على المربّي الحاني العَطوف. لقد كانت عندَه منهجَ حياةٍ، وقد بلغَ الغايةَ في لُطفِ المعشرِ والقربِ من القلوبِ، حتّى أجمعَ النّاس على محبّته، وأذكرُ أنّني اضطُررتُ غيرَ مرّة إلى اصطحابِ أطفالي إلى الجامعةِ، أتركهُم في مكتبي أو في مكتبِ أمانةِ السّرِّ لبعضِ الوقتِ، ريثَما أفرغُ من جلسةِ مراقبةٍ أو حضورِ اجتماعٍ، أو نحوِ ذلكَ، لأجدَهُ عند عودتي يتودَّدُ إليهم ويلاطفُهم ويمازحُهم، حتّى لا يستشعروا وحشةً في أثناءِ غيابِي عنهُم.

كانت أفضالُ أستاذي، رحمَهُ اللهُ، عليّ سابغةً، وأياديه البيضاءُ لا تُحصى، وكانَ يحثّني من أوّل أيّام تعييني على العملِ الدّؤوبِ للتّرفّع الأكاديميّ، منبّهًا على أهميّة الوقتِ، فلمّا تولّى رئاسة القسمِ، وكنتُ قد اجتزتُ مرحلةُ التّمرينِ وأصبحتُ مدرّسةً أصيلةً، أسندَ إليّ الإشرافَ على بعضِ طلبةِ الدّراساتِ العُليا، ليضمنَ لي النّقاطَ المطلوبةَ للتّرفّع. ولا أنسى تهلّلَ وجهِه سرورًا لمّا علمَ بصدورِ قرارِ ترفّعي إلى مرتبةِ (أستاذٍ مساعدٍ)، كما لا أنسى كلماتٍ كتبَها إليّ مهنّئًا بعد فوزي بجائزةٍ جامعيّة، وكانَ سبّاقًا إلى تهنئتي في الأعيادِ والمناسباتِ، يفيضُ خاطرُه بما في نفسِه من محبّة وودٍّ، وطيبِ معدنٍ، وتلطّف إلى النّاسِ.

وطلبَ منّي، بعد ترفّعي، مشاركتَه تأليفَ كتابٍ جامعيّ لمقرّرِ الأدبِ الجاهليّ، قائلًا: هذهِ فرصةٌ لكِ لتضمَني نقاطَ التّرفعِ إلى مرتبةِ أستاذٍ، وقد ألّفتُ الكتابَ، وكنتُ في صددِ دفعِهِ إلى الطّباعةِ، غيرَ أنّي تريّثتُ، ورأيتُ أنّه يحتملُ التّوسعةَ، وأرغبُ في أن تضيفي فصلَين، يغنيانِ الكتابَ ويحتسبان لكِ، فسرّني عرضُهُ، وزادتني ثقتُه بي ثقةً بنفسي، وكتبتُ الفصلَين المطلوبين، وأرسلتُهما إليهِ، فأعادَ النّظر فيهما، مدقّقًا، مقوّمًا، وخرجَ الكتابُ إلكترونيًّا في الصّورةِ النّهائيّة الّتي ارتضاها، وكم كانَ فرحي غامرًا لمّا اجتمعَ اسمي إلى اسمِه على غلافٍ واحدٍ.

وشرّفني بأن ضمّني إلى لجانِ الحكمِ على معظمِ طلَبَته، وكلُّهم من المعيدين المتميّزين، إلى جانبِ كبارِ أساتذتي، ثقةً منه، واهتمامًا، ورغبةً في وضعي على طريقِ التّقويمِ العلميّ

والمنهجيّ السليمِ، وكانَ يقدّمني في تلك الجلساتِ باحترامٍ بالغٍ، ويصغي إلى ما أقولُ بعنايةٍ، ويثني عليهِ، وكانت آخرَ مناقشةٍ جمَعتنا لطالبتهِ الدّكتورة رغد الصبّاغ، وفي ختامِها استعرضَ صلَتَه بأعضاءِ لجنةِ الحكمِ استعراضًا أنيقًا فيهِ من المودّة والتّقدير ما فيه، ولمّا وصل بحديثه إليّ فاجأني بذكرِ حادثةِ معرفتهِ بي في عامي الجامعيّ الأوّلِ، وما كنتُ أظنّ أنَ تلك الحادثةَ قد بقيتْ في ذهنِه، بعدَ مرور أكثرَ من عقدينِ ونصفِ العَقدِ عليها، مع كثرةِ مشاغلِه وتشعّبها، فأيقنتُ، وقتذاكَ، أنّ أستاذي خُلق من جوهرٍ أصيلٍ نادرٍ.

وكانَ آخرَ حديثٍ بيننا في لقاءٍ جمعَنا في القسمِ قبلَ مرضِه بنحوِ خمسةَ عشرَ يومًا، أخبرتُه يومَها أنّ مديريّة المطبوعاتِ لن تصرفَ لنا المكافأةَ الماليّة المخصّصة لكتابِ الأدبِ الجاهليّ، لأسبابٍ مادّيّة، فتبسّم راضيًا، وقال: عوّضنا اللهُ خيرًا، قد عملنا لوجهِ اللهِ، وخدمةً للعلمِ، وأخلصنا النّيّة، ونسألُ اللهَ أن ينفعَ بهذا الكتابِ الطّلبةَ وأهل العربيّةِ، ونحتسبُ أجرَنا عند اللهِ تعالى. ثمّ أخبرني أنّه يعتزمُ تطويرَ بذرةِ هذا الكتابِ وتوسعتَه، وتوثيقَه، وصناعةَ فهارس فنّيّة لهُ، ونشرَه على حسابِه الخاصّ بعنوان: (مراجيعُ وشمٍ)، ليكونَ مرجعًا عامًّا في الأدبِ الجاهليّ، غيرَ أنّ القدرَ لم يمهلْه، وكانت المنيّةُ أسبق.

لقد وقعَ خبرُ مرضِ أستاذي المفاجيءِ على نفسي وقوعَ الصّاعقةِ، وكنتُ أرجو أن أراهُ مجدّدًا وقد استعادَ عافيتَه، غيرَ أنّ الأملَ ذَوى وتلاشى إلى أن تبخّرَ، وغادرَ الدّكتور شفيق في يومٍ حالِكٍ ليسَ كمثلِه يومٌ، فذهبَت بذهابِه بشاشَةُ الأدبِ القديمِ، وتقوَّضَ ركنٌ من أركانِ العربيّة الّتي عاشَ عمرَه منافِحًا عنها، وعن تراثِها الأدبيّ الجليلِ.

إلى رحمةِ اللهِ تعالى ورضوانِه وفسيح جنانِه، أيّها النّبيل. وجُزيتَ عن العربيّة وأهلِها ومحبّيها خيرَ جزاء. وإنّا على فراقِكَ، يا أستاذَنا، لَمحزونون، ولا نقولُ إلّا ما يُرضي اللهَ: إنّا للهِ وإنّا إليهِ راجعون.

دمشق – رمضان/ عام ١٤٤٦هـ – آذار/ عام ٢٠٢٥م.

كُنَّاشَة العربيَّة العلَّامة المجْمَعِيّ محمّد شفيق البَيْطَار

د. هفل فاضل اليونس

إذا ما اختلفت نوائب الأيام وتشاجرت نوازل الدهر وبلغت العَنَان، فإنَّ فقد أهل العلم وذوي الفضل، لهوَ أشدُّ هذه النوائب وأكثرها اجتيافًا لقلب المرء المحبِّ لأستاذه الذي اجتمع الناس كافة على محبته وتقدير علمه ودماثة خلقه وطيب معشره وأياديه البيض ومعاريفه التي لم تنقطع منذ أن شبَّ وأدرك قيم الحياة ومعانيها الجليلة، وحتى قبيل توعكه بأيامٍ، كيف لا يألمُ المرء وقد فقد من اتَّخَذَهُ صُوَّةً يهتدي به، أو سمتًا صالحًا يقتفي أثره ويتبعه في نهجه، وأنى له ذلك وقد اخترمته كفّ القدر ولما يبلغ الستين من العمر.

في الثاني من جمادى الآخرة سنة ١٤٤٦ للهجرة الموافق للثالث من ديسمبر ٢٠٢٤ ميلادية، غيب الموت أستاذنا الدكتور محمد شفيق البيطار العلّامةَ المجمعيّ الموسوعي، أستاذ الأدب الجاهليّ في جامعة دمشق، وعضو مجمع اللُّغة العربيّة بدمشق، ففقدت الجامعات السورية والأوساط الأدبية والعلمية في الشام برحيله علمًا بارزًا من أعلامها، بل انثلم جزء من الأرض لفقد هذا العالم الجليل، قال تعالى في كتابة العزيز ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١] وفسر ابن عباس رضي الله عنه هذه بقوله: خرابها بموت علمائها وأهل الخير منها، أو كما قال هو رحمه الله في رثاء صديقه الدكتور محمد الدالي:

جَبَـــــلٌ آخَـــــرُ يَنْهَـــــدُّ ... مِـــن جبـــالِ العلْـــمِ مُمْتَـــدُّ
شـــامخٌ صَـــلْدٌ يُـــلاذُ بـــهِ ... كيـــفَ مـــالَ الشّـــامخُ الصَّـــلْدُ؟
كـــان دَوْحًـــا يُسْـــتَظَلُّ بـــهِ ... عنـــدَهُ الرَّيْحـــانُ والـــوَرْدُ
ســـيّدٌ والعلْـــمُ قِبْلَتُـــهُ ... فَهْـــوَ في مِحرابِـــهِ عَبْـــدُ

ولست بالغًا مكانة الشيخ السامقة بهذه الوريقات، ولا مُلِمًّا بما له، ومما يعرفه أهل الصنعة،

إذ الذي له، تنوء بتدوينه عصبةٌ أولو عزمٍ، وإن أرادوا وعزموا، ندت خلائقه وصفاته؛ لكثرتها ومدافعة بعضها بعضًا، فلا يكاد المرء يعرف من أين يبدأ؟ من تواضعه الذي جبل عليه وقدَّ منه، فأكسبه محبة الناس جميعًا، أم من صولاته نصرة للحق وجولاته على الباطل البغيض؟ فلم يكن يخشى لومة لائم في نصرته، ولا يحابي، أم من انصرافه عن الدنيا ومتعها الزائلة ابتغاء الحق ومرضاة الله؟ وهو الذي تهيأت له السبل للعمل خارج جامعة دمشق إلَّا أنها وطلابه فيها كانوا الهوى، لا ينازعهما شيءٌ في نفسه، أم من اعتداده بنفسه، ليس غرورًا بل إيمانًا بقيمته ورباطة جأش نفسه التي عاش معها بسلام كما عاش بسلام مع الآخرين، الذين ما فتئ يساعدهم ويمدُّ يده لهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا. وصفات أخرى يطول ذكرها، فلست أرحل ناقتي في فيافي الماضي الذي يمتدّ لربع قرن أو يزيد، فثمة من بسط القول وأفرده في تلك الخلائق من المحبين للشيخ رحمه الله.

عرفته رحمه الله من مصنفاته التي تحكي عنه ومقالاته التي كان يوجهنا أساتذتنا في دبلوم التخصص لمطالعتها والنظر فيها، قبل أن ألتقيه في عام ٢٠٠٣م في دمشق حينما زرته بصحبة الأخ الصديق الدكتور ضياء الدين القالش في مكتبه في وزارة التعليم العالي، كان وقتذاك أمينًا عامًّا للمجلس الأعلى للآداب والفنون، فاستقبلنا بأهشِّ وجهٍ وأبشِّ ابتسامةٍ، وتنامت علاقتنا بعد ذلك اللقاء، أتابعه في مناقشاته العلمية لرسائل الماجستير والدكتوراه مثل كثير من طلبة العلم الذين زرع في قلوبهم حبه، فإذا ما غادر دمشق إلى حلب لمناقشة علمية غادرت بصحبة الأصدقاء الراغبين بحضور المناقشة وسماعه رحمه الله ؛ فقد حباه الله بصيرةً بالعربية واسعةً، ممزوجةً بذكاءٍ حادٍّ وفكرٍ يضاهي فكر الأوائل الذين مخر عُبَاب كتبهم قراءةً وفهمًا وتدريسًا بل حفظًا إن شئتَ، وأناةً وهدوءًا بعيدًا عن الاستعراضات الفارغة في أثناء تلك المناقشات، إنما هدف الدكتور رحمه الله الذي سعى إلى طلبه هو تبصير الطالب بما تعثَّر به و قصر عن إدراكه أو ندَّ عنه، فهذا ديدنه في تلك المناقشات، حرصه على تعليم الطلاب وإرشادهم إلى ما يمكنهم من قراءة التراث قراءة

واعية هادئة، فاحصة، مدققة، محافظة عليه، بعيدة عن التخبط والاضطراب والعجلة، إذ كثيرًا ما نوَّه إلى الطريق الفاسدة في تلَقُّنِ العلم، وهنيئًا لمن تنعم بقربه، وطول مجالساته، وسماع حديثه الرصين الذي لم يكن إلا في التوجيه والإرشاد السليم مستلهمًا فكر النبي صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالرفق في الأمر كلِّه، فإن الرفق ما كان في أمر إلَّا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه). ماذا أقول؟ وهل القول المضمَّخ بالمسك يجزي أهل الفضل والمعروف؟ كان رحمه الله من أكثر الناس بسطًا لليد، وبشاشة للوجه وله من اسمه نصيب، لكثرة شفقته على طلاب العلم، لم يتباطأ يومًا في مدِّ يد العون لي حينما بدأت أكابد أطروحتي للدكتوراه (قبيلة خولان، أخبارها وأشعارها في الجاهلية والإسلام جمع وتحقيق ودراسة) وأعاني حزون الطريق ووعورتها؛ إذ إن ضبط أشعار هذه القبيلة وأعلامها وأخبارها لكثرة التصحيفات التي لا تكاد تخلو منها مقطعة في مصادرها الأصيلة، وإصلاح ما فسد من شعرها يحتاج إلى إجهاد الذهن وتسريح النظر غير مرة، وإيقاد البصيرة والوقوع بالحيرة، والتقلب على جمر التشتت، وربّما لا تقف على الصواب ولا يتأتى لك، فكنت أفزع إلى الشيخ، أتواصل معه بالبريد الإلكتروني بناء على طلبه، إذ لم يقبل تجشمي عناء السفر من حمص إلى دمشق للإفادة منه، ولم يكن يومذاك في حمص من يعرف صنعة دواوين القبائل على النحو المرضي كما يعرفها طيب الله ثراه، خلا الدكتور عبد الإله نبهان العلامة المجمعي رحمه الله الذي شهد بالدكتور شفيق شهادة عظيمة إذ قال: شفيق البيطار من القلائل المتبحرين في علوم العربية وصاحب منهج أستاذه السطلي- والله على ما أقول شهيد- والنبهان هو من هو، غني عن التعريف، فكان الدكتور البيطار كالطود الشامخ آوي إليه ليعصمني من مخاطر الطريق وحزونه وزلل البحث ومزالقه، يخفف عني مشقة الرحلة مع خولان، يأتيني بالخبر اليقين كأباليج الفجر الناصعة، الظاهرة الإسفار التي تبدد كل ظلمة كانت في النصِّ والنفس، أصلح الفاسد وردَّ المزحزح إلى مكانه، ونبه على غيره برفق ولين وتؤدةٍ، فقد تأتى له من النظر الثاقب والحكمة في قراءة الشعر وفك طلسماته، وإصلاح فاسده، وتقويم معوجِّه مالم يتأتَّ

لكثيرين من أهل الصنعة، فلله درُّه من عالم أمسك بناصية الشعر فانقاد له وتذلل، فكان في وجدانه ينبض بنبض قلبه. وقد لمست في تصويباته عثراتي في أثناء تحقيق ديوان خولان طبائع عالم يحفزك على العلم والصبر والتأني أكثر في معالجة عويص المسائل، وكان حريصًا أن يفقه صاحب العمل عمله، وأن يمسك بمنهج يأخذ بصاحبه إلى جادة الصواب، لإيمانه بأنَّ هذا الطالب سيكون أستاذًا ولديه طلاب.

واستمرت الحال على هذه الشاكلة مدة سنتين ونصف السنة حتى رَبت مراسلاتي له بالبريد الإلكتروني على ستين صفحة، فيها تصويبات الشيخ لأشعار خولان التي صنعت على عينه رحمه الله، فكان له من الفضل واليد الطولى في خروج هذا العمل واستوائه على حاله ما لا أستطيع الإحاطة به، وكان رحمه الله أمارة النصح والإرشاد، يكتب لي ما اعوجّ وخرج عن الصواب بلغة ناصعة فصيحة يسيرة يلفُّها ذاك التواضع الجمُّ المعروف عنه، والتشجيع لإتمام العمل في ظل منهج علميّ دقيق يؤسّس لمرحلة بحثيّة قادمة، وكثيرًا ما كان يُذيِّل تصويباته بتوجيهات ونصائح علمية ينتفع منها طالب العلم وتأخذه إلى جادّة الصواب، من مثل نصحه لي بوجوب مصاحبة دواوين القبائل التي صنعت من قبلُ، للتمكن من الصنعة والإمساك بخيوطها، وبعدها شرعت لا أفارق دواوين القبائل ولاسيما كلب بن وبرة وحمير اللتين لابدَّ للساعي لجمع الشعر وإصلاحه أن يستشيرهما فيما يصادفه من عوائق ومشكلاتٍ، ولابدَّ له أن يمتح منهما برشائه ما يبلُّ صداه، وبعد هذا استطعت أن ألج إلى سرِّ صنعة الدواوين، فتكشف لي بأن الشيخ رحمه الله قد هيَّأَ لها جهودًا عظيمة مؤطرة بالصبر والحصافة الأدبية ومعرفة غير متناهية بعلوم العربية مجتمعة إذ لابدَّ لجامع الشعر ومحققه من الإلمام بها ولو بقدر. وبعد انقضاء سنوات أربع ونصف السنة قدّر لي أن أمثل بين يديه رحمه الله، إذ كان أحد أعضاء لجنة المناقشة على أطروحتي للدّكتوراه، فشرفني بأن قطع أهوال الطريق من دمشق إلى حمص بصحبة الأخ الدكتور ضياء القالش في وقت أغبر أقتم، تنكبت الناس فيه عن الخروج من مدنهم إلى المدن

الأخرى بسبب ثورة الشعب السوري ونزول الجيش لقمعه، مع اعتذار عدد من الأساتذة عن عدم المجيءِ لخطر الطريق وانعدام الأمن، فأكبرت فيه هذه الهمة العالية، وأعظمت فيه حرصه عليَّ، وعلى طلبة العلم الذين شرعوا يرسمون طريق المستقبل وهم متمسكون بتلابيب عباءته يحبونه ويرغبون بالنهل من معين علمه، علَاوة على معاريفه التي لم أعد أحصيها، أَلَمْ أقل في ناصية كلمتي، تتزاحم صفاته ويدافع بعضها بعضًا لكثرتها وتنوعها. صرف وقتًا وجهدًا غير قليلين في قراءة رسالة اقتربت من تسعمئة صفحة أتى على جلّها، مبينًا وموضحًا ومصوبًا بعض الهَنات التي لا تند عن أطروحة جامعية، مبصِّرًا إِيَّايَ بموطن الزلل تبصير الأب ولده، واستمرت صلتي بالشيخ بأن وجهني لجمع أشعار بعض قبائل قضاعة من مثل جرم التي أخرجت شاعرين من شعرائها، و قبيلة عكل التي ستبصر النور قريبًا بإذن الله، وأعمال أخرى كنت قد استفدت منه فيها، وأشياء أخرى يطول ذكرها، وكان آخر عهدي به قبيل وعكته الصحية بأن أرشدني إلى إعادة تحقيق كتابين مهمين من كتب التراث، وما إنْ تحصلت على مخطوط واحد منهما والفرحة تغمرني لأزف خبر المخطوط له حتى ضرب سمعي خبر مرضه ومكوثه في العناية المركزة، فتصدعت نفسي وتشعثت حتى ما كاد يسعفني الكلام.

لقد تعلمت من الشيخ كثيرًا، الاجتهاد والصبر والأناة في مطالعة مسائل العلم ومعالجة فاسد النصوص المصحفة، كما تعلمت التواضع والأنفة من دون الغرور، والانتصار للحق ضد الباطل الجؤور، وأنَّ الذي يبقى للمرء بعد تطاول العمر به، هو ما يقدمه لنفع الناس وخدمتهم، وها نحن نعلم تلامذتنا في الجامعة ما تعلّمناه من الذين صنعونا وأثروا فينا، وتركوا فينا ما تركوه، وكم تمنيت لو أنّي تتلمذت له منذ صغري، فأنعم بقربه وأتعلم منه أكثر وأكثر، فهل أسرفت في القول وأنا الذي أجد نفسي مدفوعًا للحديث عن الراحل الكبير وعن سجاياه التي حاولت تجنبها إلَّا أنني ما أستطع منها فكاكًا، فأسرتني لملاحتها وميل النفس لها، سيبقى لساني نديًّا بذكرك ما حييتُ، رحمك الله رحمة الصالحين والأنبياء والشهداء، وأعلى مقامك في الجنة.

الحاضر الغائب

د. وفاء حسين الحمّود

فقيد العلم والعلماء

فقيد الأخلاق الحسنة

فقيد القلوب والعقول

فقيد سوريّة والعرب والعالم أجمع

أستاذي العزيز العلّامة الجليل المفضال التّقيّ النّقيّ الورِع الزّاهد المتواضع الأستاذ الدّكتور محمّد شفيق البيطار

"أبكيك لو نقع الغليل بكائي" ولا أظنّه...

رغم يقيننا بالموت، وإيماننا العميق بحتميّة وقوعه، إلّا أنّنا بطبيعتنا الإنسانيّة نُذهَل ونُكسَر في كلّ مرّة نفقد فيها عزيزًا، وأيّ عزيز أنت يا أستاذي؟! وأيّ عزيز أنت؟!

إنّي لآمل في لحظتي هذه أن يطاوعني بناني المرتجف لخطّ بعض الكليمات العاجزة تمامًا عن حمل المعاني والمشاعر المتغلغة في كياني ووجداني.

كان أوّل عهدي بأستاذي الرّاحل -وسّع الله مدخله- في السّنة التّمهيديّة لمرحلة الماجستير حين درّسنا مادّة "العروض وموسيقى الشّعر"، وكم نهلنا وعللنا واغترفنا من بحر علمه في بحور الشّعر، ودقّة وقوفه على تفصيلاته، وشرحه لجزئيّاته، وقد زوّدنا حينها بملزمة من صنع يده -رحمة الله عليه- لم أر مثلها في ترتيبها لبحور الشّعر العربيّ، وجدولة ما يلحق بها من جوازات وزحافات وعلل وما إلى ذلك، فازداد حبّي لعلم العروض أضعافًا.

وحين بدأتُ رحلة رسالة الماجستير، لم يكن من قدري أن يكون مشرفي، لكن ما قدّمه لي في هذه المرحلة كان مثيرًا للدّهشة، وشاهدًا واقعيًّا حيًّا على سموّ أخلاقه ورفعة مكانته وسعة صدره وغزارة علمه وعطائه اللّامحدود، لم أنسَ تلك الأيّام للحظة، ولن أنساها ما حييت؛

وذلك أنّي بعد أن قطعتُ شوطًا طويلًا في إعدادي رسالة الماجستير، لم أكن حقيقةً مقتنعة بمنهج أستاذي المشرف على رسالتي جزاه الله خيرًا، ولم أكن مطمئنّة لسيري في تلك الطّريق الّتي رسمها لي ووجّهني نحوها فيما يتعلّق بتصنيف أبيات البحث، وطريقة معالجتها، والتّسميات الموضوعة لها من شعر صحيح وآخر منحول وما إلى ذلك كون رسالتي كانت تدور في فلك التّحقيق، والّذي جعلني أعيد النّظر والفكر مرّة تلو الأخرى هو طبيعة شخصيّتي العلميّة الّتي تأبى أن تكتب شيئًا غير مقتنعة به مهما كانت الأسباب، فأخذت أدعو الله سبحانه أن ينير بصيرتي ويهيّئ لي سبل السّداد والرّشاد، فإذا بشعاع النّور يطلّ عليّ ويبدّد ظلمات متاهاتي الفكريّة الّتي كنت غارقة فيها، فكان بداية الفرج والفرح بعمل علميّ متقن ممنهج على أسس واضحة ومنطقيّة يرضي طموحي العلميّ ويهدّئ روع فكري، ولم يكن مصدر ذاك النّور إلا مكتب أستاذي الرّاحل- طيّب الله ثراه- الّذي لم يألُ جهدًا في مساعدتي وتوجيهي، ولا أخفي أنّي كنت أقدّم رجلًا وأؤخّر أخرى قبل حديثي معه خوفًا من أن يُخجلني أو يعتذر عن الاستماع إليّ كونه ليس مشرفًا على عملي وليس مسؤولًا عنّي، بيد أنّي استجمعت قواي وتقدّمت، فكانت النّتيجة مذهلة جدًّا؛ إذ آواني علميًّا ونصرني فكريًّا، واستمع إليّ، ولم يضنّ عليّ برأي أو توجيه، وكنتُ في كلّ ما يقوله أشعر أنّي يشفى غليلي، وأنّي وجدت ضالّتي الّتي طالما أرّقتني وأقلقتني، فبدأ البحث يستوي على سوقه، ويسير بخطوات واثقة مطمئنّة كما رجوت أن يكون.

هذه أخلاق العلماء، هذه أفعال العظماء، هذه أعمال الأتقياء الّذين زهدوا في الدّنيا الفانية، وأمدّوا أعناقهم نحو عمارة الدّار الآخرة، فعملوا بصمت وإخلاص لوجه الله تعالى، وادّخروا جزاء أعمالهم ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم، فطوبى لهم طوبى وحُسْن مآب.

وقد يظنّ ظانّ أنّي أسيء إلى أستاذي المشرف على رسالتي أو أقلّل من شأنه في ذكري هذا

الموقف الّذي لا يمكن تجاوزه أو تجاهله، ولتصحيح هذا الظّنّ الخاطئ أقول إنّي لم أرَ من أستاذي المشرف إلّا خيرًا، وكان نعم الأستاذ بعلمه وأخلاقه وتفهّمه، والأمر لا يتجاوز اختلاف وجهات النّظر، واختلاف الرّأي- بكلّ تأكيد- لا يُفسد الودّ.

ثم جاءت مرحلة الدّكتوراه لتحمل لي الخير بقضّه وقضيضه، فكانت أولى البشارات أن سمّي أستاذي الفاضل العالم الجليل د. محمّد شفيق البيطار-أكرم الله نزله- مشرفًا على أطروحتي، حينها تنفّست الصّعداء، وشمّرت عن ساعديّ، وبدأتُ رحلة علميّة واضحة ممنهجة جادّة مُرضِية، وفُتحَ الباب أمامي على مصراعيه لأنهل من علم أستاذي، وأستمدّ العزم والإرادة من روحه العلميّة، وأتّخذ الدّقّة والإخلاص منهجًا سائرة بذلك على خطاه في منهجيّة التّحقيق والدّراسة... وهكذا حتّى منّ الله عليّ بالحصول على الدّكتوراه بتقدير امتياز، وما زالت الكلمات الّتي قالها فيّ أستاذي -أنار الله قبره- ترنّ في أذنيّ، وتمنحني شعورًا غريبًا متراوحًا بين الفخر بثنائه على عملي، والحزن على فقدنا سماع ذاك الصّوت الشّجيّ، وأن أصبحت كلماته ذكرى نواسي بها مشاعرنا، وحتّى حين بكيتُ لعدم رضاي عن الدّرجة الّتي منحتني إيّاها لجنة الحكم الموقّرة، واساني بكلمات لطيفة مسحت الحزن عن صدري، وقال لي إنّي أستحقّ أكثر من هذا، فكان أبًا حانيًا وسندًا شامخًا، لله درّه! طيّب الله ثراه.

وتوالت الأيّام، وأجبرتني الظّروف على ترك دمشق، ولكنّي كنت دائمًا أتواصل معه، وأطمئنّ عن حاله، وأستشيره، وأزوره في مكتبه كلّما زرت دمشق، وبين الحين والآخر كانت تتواصل معي بعض الزّميلات الفاضلات، ويخبرنني عن ثناء أستاذي عليّ وعلى دقّة عملي وعن رضاه الّذي سيبقى وسام شرف على صدري حتّى يأتيني اليقين.

إنّ ما ذكرتُه هو غيضٌ من فيض فضائلك عليّ يا أستاذي، أفلا يتفطّر قلبي حزنًا على فراقك بعد كلّ هذا؟! ها أنا أخبرك أنّي على العهد باقية، وأنّ صلة الوصل بيننا هي عروةٌ وثقى لا انفصام لها، هي رزق من الله منّ به علينا، هي الدّعاء... نعم، إنّه الدّعاء الّذي نفرّغ فيه

صرخات قلوبنا، ونترجم فيه محبّتنا وإخلاصنا، ونردّ فيه بعض الجميل الّذي لن نقوى على ردّه مهما فعلنا... سأذكرك يا أستاذي في صلواتي وخلواتي وسجداتي، سأدعو لك كلّما دعوتُ لوالدي -رحمه الله- الّذي فقدتُه منذ أربع سنوات خلت، وأسأل الله تعالى أن يجزيك خير ما يجزي به عباده الصّالحين، وأن يُسكنك الفردوس الأعلى من الجنّة، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولا نقول إلّا ما يُرضي الله، والحمد لله على كلّ حال.

وما كان (شيخي) هُلْكُه هُلْك واحدٍ ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تهدَّما

أستاذنا الشّفيق

د. ياسين عبد الله جمّول

ممّا جاء في الحديث النّبويّ الشّريف: (إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا).

أستاذنا العلّامة:

ممّا قاله أهل العلم في معنى التّجديد الوارد في الحديث (منهم الذّهبي وابن كثير وابن حَجَر) أنّ المجدِّد قد لا يكون شخصًا واحدًا بعينِه، فقد يكون جماعة من المجدّدين، ولا ينحصر ذلك في أمر علوم الشّريعة وحدَها بل في كلّ ما ينفع الأمّة من العلوم، ولا يكون مجدِّدًا إلّا مَن نال حظًّا في غير علم حتّى يجمع أدوات التّميّز والاجتهاد؛ فقد ملك الدّكتور شفيق نواصي علومٍ عدّة، منها موسيقا الشِّعر وعلم العَروض، وعلم الأيّام والأخبار والأنساب، ، وعلمه في تاريخ العرب الأوّليّة حتّى أيّام بني أميّة لا يقلّ عن علمه في الأدب، ومع علوّ كعبه في الأدب القديم ما زالت شاشة سبيستون تتزيّن بقصائدَ وأغانٍ ماتعة للأطفال كأنّه متخصّص بأدب الطفل؛ فضلًا عن شعره العالي ونثره البليغ فيما كتب.

ومَن يعرف علوم الأدب ودواوين العرب المعاصرة لن يُغالي إن اقترب بأستاذنا الدّكتور شفيق رحمه الله من المجدّدين فيها؛ فديوان كلب بن وَبْرة الّذي صنعه أستاذنا لهذه القبيلة بما فيه من جمع وتحقيق ودراسة يستحقّ أن يكون ذاته موضعَ بحثٍ ودراسة في أصول جمع الشِّعْر العربيّ وتحقيقه ودراسته؛ فقد استوعب فيه رحمه الله ما جاء عن المتقدّمين وعن المتأخّرين، فلا يُشكّ أنّه تجاوز كثيرين من لِداته وكبار أصحابه في هذا الباب؛ وليُنظَر مبحث الاضطراب من ذلك الدّيوان مثلًا على الصّبر والأناة في الجمع والدّرس وفي التّحرير والتّصنيف. ثم لينظَر فيما استدركه على الميمني رحمه الله في صنعة ديوان حُميد بن ثور، وليقف باحترام وإجلال إزاء ما صنعه في تحقيقه ديوان أبي بكرٍ الصدّيق رضي الله عنه؛ حتى إنّه آثرَ أن يكتب النّسخة الأولى منه بخطّ يده ويُطبع

بذلك من دون تنضيد وحرف إلكتروني.

بدأت مشواري في جامعة دمشق موفدًا من جامعة حمص، فكان أوّل أمري مع د. وهب روميّة لموضوع فنّيّ؛ فلما وجدتُ الموضوع الذي اخترته قد دُرس في الأردنّ انتقلت إلى موضوع أسجاع الكهّان الجاهليّين وأشعارهم، فكان ممّا قاله الدكتور وهب؛ وهذه من أخلاق الكبار: "ما دمتَ انتقلتَ بالموضوع إلى ميدان التّحقيق فاذهب إلى شيخنا في الباب وهو الدكتور شفيق". فبقيتُ أيّامًا أتهيّب زيارتَه والدّخول عليه؛ ولا أنسى ابتسامتَه الهادئة رحمه الله حينما أخبرته أنّني جئت من حمص دون نوم لأنني كنت أفكّر في زيارته وأتهيّب لقاءه.

وإن كان الطّلبة يبالغون، أو يجاملون ويكذبون فيما يكتبون لأساتذتهم من الإطراء في مقدّمات الرسائل؛ فإنني أعترف أنّي ما وفّيته حقّه رحمه الله فيما كتبته عنه في مقدّمة رسالة الماجستير، وما ذاك إلا لِما أعرفه فيه من كراهية المدح، لكنّني عَنيتُ بدقّة ما قلت: "**ما كان لهذا البحث أن ينهض لولا فضل الله؛ فله الحمد، ثم متابعة المشرف الجليل الأستاذ الدّكتور محمّد شفيق البيطار؛ الذي يغلبني خجلي منه لتقصيري عمّا كان يأمله في هذا البحث، فالشّكر له – على غزارة علمه، وعلى حسن خُلُقِه، وعلى صبره واحتماله ضعفي وتقصيري أحيانًا – مهما نمّقته يقصر دونَه، فكثيرًا ما كنت أتقلّب على جمر الغضا لمعضلة أحسّها كالجَبَل، فإذا جئته سهَّل الحَزْن وقوَّم الزَّلَل**" حقًّا؛ كنتُ أبقى أيّامًا متتابعة أحاول فهم نصٍّ عقيم في بعض الكتب المتهالكة الطّبع كسيرة ابن إسحق دون جدوى، فإن جلست إليه دقّق في النّصّ واستدعى المخطوط مع المطبوع؛ فيسوّد قليلًا بالقلم الأحمر الذي لم يكن يكاد يفارقه، إذ كثيرًا ما كنت ألتقيه في مقرّ "سبيستون"، ويقول: هذه الكلمة هي هكذا والبيت يصبح هكذا؛ فكأنّه هو الذي كتب المخطوط الأوّل بيده.

وبقي في بحثٍ وعطاء وعمل علميّ حتى مرضه ووفاته رحمه الله.

أستاذنا والشّام:

كانت الشّام تسكنه وهو يسكنُها؛ فلا عجب أن تمرّ سنوات الحرب العجاف من دون أن يغادرها حتى قضى رحمه الله فيها، ولعلّه مِن أكثر مَن جاءتْه عقودٌ من جهات مرموقة بأفضل الأجور في غير دولة، لكنّه آثر أن يبقى في الشّام على قلّة الرّاتب وكثرة الأعباء. وليس حبّ الدكتور شفيق الشّام وتعلّقه بها حبًّا عارضًا قريبًا؛ بل يمتدّ به إلى التاريخ والأدب القديم، فكان ممّا يستهويه للبحث والتّنقيب ما يتّصل بالأدب في بلاط الغساسنة وما يدور في الشّام عامّة من الأدب الجاهلّي، ويكون من أوّل ما يوجّه إليه عناية طلبته في الأدب القديم، حتّى لَتجد فيما جمعه من اختيارات الجاهليّين عن الشّام مذ امرئ القيس والنّابغة والمتلمّس إلى عبد الرّحمن بن أبي بكر وحسّان بن ثابت سِفرًا نادرًا.

فلا تعجب بعدُ ممّا قاله في الشّام وما بكاها في سنوات المحنة والحرب، وممّا حامَى في قسم اللُّغة العربيّة بجامعة دمشق عن حُرمات العلم والنّاس.

أستاذنا الشّفيق:

تأخّرت عليه مرّة أيّام بحثي الماجستير؛ وكان تأخري بسبب الانشغال في طلب الرّزق وسداد الدّيون لعدم كفاية راتب المعيدية آنذاك، فأرسلت إليه رسالة اعتذار فضحت له فيها نفسي وما حبسني من العذر؛ فكان ردّه الآتي: "أخي ياسين! السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. لا يحتاج الأمر إلى أدنى كلمة اعتذار، فليس ثمّة ما يُعتَذَر منه؛ وفّقك الله إلى إنجاز رسالتك، وأعانك على برّ والديك ورعاية أهلِك، وأنت تعلم أن أوّل طريق العلم محفوف بشيء من الضِّيق، وأنّ "مَن يتّقِ الله يرزُقْه من حيث لا يحتسب". ولا تنسَ أنّ إخوتك من حولك عند الضَّرورة؛ فلا تتردّد في الاستنجاد بهم، وأنا واحد منهم".

لم يكن صدر رسالته موعظة مألوفة إذ ما كان في قسمها الأخير جاء أبلغ في إنسانية أستاذنا

وحبّه إخوانَه ومساعدته طلبتَه؛ فمع بدء الثّورة واشتداد عصابات النّظام البائد ضدّ المدنيّين قُتل مِن أسرتي عدد واشتدّ عليّ الطّلب فانقطعت عن الجامعة، فكان أخٌ كريمٌ يأتيني كل مدّة بمبلغٍ يقول: هذا لأخواتك زوجات الشّهداء ولأسرتك، ولم يكن يصرّح؛ حتى كان لقاء بعد سنوات وأخبرني أنّ ما كان يأتيني به إنما هو من الدّكتور شفيق يقتطعه من راتبه ويرسله إليّ.

ولم يكن يقبل يوم المناقشة ولا في غيره أيّة هدّية ولا دعوة؛ حتى عزيمة المناقشة لم يقبل الذَّهاب حتى دفع هو بنفسه فضلًا منه رحمه الله، مع أنّنا كنا في وقت كادت تصبح سنّة سيّئة!

وكان الدكتور شفيق رحمه الله يسعى لطلبته وإخوانه بأعمال مميّزة لو عُرضت على غيره لَضنّ واستأثر بها لنفسه، دون أن يحابي بالعلم أحدًا ولا يزكّي مجاملة وزورًا.

أستاذنا في العلم والسّمت:

قد تجد العالِم وخُلقه ليس بذاك يُؤخذ منه العلم وحدَه، وتجد آخر قليل الزّاد يُؤخذ عنه السَّمت دون العلم، وقَلّ أن تجدَ مَن يُؤخذ عنه العلم والهَدْي؛ وإنّني مع كثرة مَن أخذتُ عنهم وخالطتُهم في الجامعات أعدّ أستاذي الدّكتور محمّد شفيق البيطار رحمه الله ممّن يُؤخذ عنه العلم والسَّمْت معًا؛ فما كان أشدّه في العلم والبحث والتّحقيق، وما أرقّه وألطفه في الأدب والمعاشرة، وما أكثر تواضعه وكرمه مع إخوانه وطلبته!

رحمك الله أستاذنا الدّكتور (شفيق) عالمًا محقّقًا وأخًا كبيرًا طيّبًا فاضلًا، وغفر الله لك، وأعلى مقامك في علّيين.

(٤) أسرته ومحبّوه

ساكن القلب لا يغيب

زوجه أمّ عبد الرّحمن البيطار

كيف لي وبكلمات معدودة بسيطة أن أختصر ثلاثًا وثلاثين عامًا من الحب والمودة بحلوها ومرِّها، فإن جفَّ حبر هذا الكون بأسره لن يوفيك حقك يا حبيب قلبي.. كيف لقلبي أن يتحمل مرارة هذا الفراق؟ ومن أين لي أن أبدأ؟

هل أبدأ من عطفك ومساعدتك لوالدي، رحمه الله، في حياته بل حتى في أيام مرضه الأخيرة؟ فقد كنت خير معين له، لم تفارقه لحظة حتى لقي ربه، وكانت آخر وصاياه لك أن تعتني بوالدتي، رحمها الله، فكنت على قدر الوصية، مخلصًا ومحبًّا، لم تتركها يومًا، وكنت لها السند والعون.

أم أبدأ من ذكريات حجّنا معًا؟ فكنت خير رفيق، وخير معين، وقفت إلى جانبي وإلى جانب طفلينا آنذاك في رحلة العمر..

أم أتحدث عن مواقفك التربوية لأبنائنا؟ حيث كنت الرؤوف والشفيق عليهم حتى أكثر مني..

أم أروي تفاصيل رحلتك العلميّة، التي كنتُ فيها شريكة لك في كل خطوة؟

لا أدري من أين أبدأ، ولا كيف أنتهي.. كل ما أعرفه أنك كنت وستبقى أعظم رجل في هذا الزمان، بطيبتك، وعطفك، وكرمك، وقوتك في نصرة الضعفاء، بحكمتك، وغضبك من أجل الحقّ، وثباتك في وجه الظلم دون أن تخاف في الله لومة لائم.

أسأل الله أن يجمعني بك في جنة عرضها السماوات والأرض، أعدّت للمتقين.

شفيق... أخي

محمود خالد البيطار

أبناء أخي .. إخوتي .. السادة الأعزاء من أساتذة، وطلبةِ علمٍ، وأهلٍ وأصدقاءَ وجِيْران.

لم أكن لأتخّيل أن أقف موقفًا كهذا الموقف للحديث عن أخي الأستاذ الدكتور محمد شفيق البيطار رحمه الله تعالى وإيّانا وإياكم، ووالدينا ووالديكم، ومن سبقنا إلى رحمته.. أسأل الله أن يثيبكم خير الثواب وخير الجزاء.. فالحمد لله أولاً وآخرًا.. فماذا يمكن أن أقول في مثل هذا الموقف؟!

سأقول:

كلكم عرفتم أخي الدكتور (محمد شفيق البيطار).. لكنّكم لم تعرفوه كما نعرفه!

كلكم عرفتموه العالم والمعلّم والأستاذ الجامعي المبدع.. الذي لم يدّخر جهدًا في إبلاغ رسالته..

كلكم عرفتم (شفيق) الإداري الذي لم يتوانَ عن قول الحق، وفعل الحق، برغم الصعوبات ومواجهة ذوي النفوذ أيام النظام السابق، حيث كان يصدح بالحق - حاملًا السُّلَّم بالعرض - من دون أن يُجرّح مَنْ يُخالفه أو يُعنّف من يُخطئ، في سبيل أن يصون أمانة العلم التي يحملها ممّن يمكن أن يتسلّق نحو ذراها بغير حقّ..

لكن هل عرفتم (شفيق) الخطّاط الذي قدّم مادة الأدب الفارسي في السنة الأولى، حيث كان يدرّسها أستاذنا د. محمد التونجي، فمنحه الـ/ ١٠٠ كاملة/، حيث كان معهم في الدفعة طالب إيراني، توهّم حينها أستاذنا أن ورقة (شفيق) هي ورقة الطالب الإيراني؛ لدقة إجاباته، ولفهمه للّغة، ولجمال خطّه بالفارسية، ولولا أن قيّض الله د. علي أبو زيد الذي بيّن له أنّ أخانا طالب مميّز في كلّ المواد التي صدرت نتائجها.

وهل عرفتم (شفيق) الرسّام المبدع الخطّاط المتألّق الذي لو تفرّغ لفنّه لكان واحدًا من

كبار فناني هذا الزمان، لا في سورية وحدها، بل في العالم أجمع؟؟

وهل عرفتم (شفيق) الشاعرَ مرهفَ الحسّ، الذي لو تفرّغ للشعر لكان أحد كبار شعراء هذا العصر، لا في سورية وحدها، بل على مساحة الوطن العربيّ كلّه؟؟ وما شارات أعمال الرسوم المتحرّكة التي كان يكتبها إلا نتفٌ تحمل رسائل لأبناء الأمّة للنهوض والثورة على الواقع، لبلوغ أعلى ذرا المجد واللحاق بركب الحضارة التي كان يبتغيها.

كلكم عرفتم (شفيق) المبتسم دائمًا، المشرق أبدًا، المتفائل بهذه الأمّة وما تخبئه لها الأيام، لكن هل عرفتم (شفيق) الابن البارّ بوالديه بِرًا ما بعده بِرّ؟ هل عرفتم (شفيق) الأخ الشفيق على إخوته، والأب الحنون العطوف على أولاده؟ الذي كان لحضوره بينهم جميعًا هالة محبّة ورفقٍ لا تجدها بين إخوة أو بين أفراد أسرة واحدة. هل عرفتم (شفيق) المحبّ لذويه (الأخوال والخالات والعمات)؟ هل عرفتم (شفيق) المحبّ لبلده وأبناء بلده؛ كبيرِهم وصغيرِهم؟ هل عرفتم (شفيق) الذي كانت وصيته لأبناء إخوته وهو في المشفى يرقد بين الوعي واللاوعي: "لا تُؤذوا النّاس، ولا تْزَعْلُوا حَدا مِنكُم، وكُونُوا عادِلِيْن ومُنْصِفِيْن مَع الناس".

هل عرفتم (شفيق) التقيّ النقيّ المؤمن، الذي كان في مرحلة اللاوعي في المشفى يريد أن يقوم ليتوضّأ ويقيم الصلاة كما كان يقيمها في حياته؟ فكان يصلي، ويقرأ القرآن، وهو في كامل الوعي في هذه المرحلة الشديدة من اللاوعي!

هل عرفتم (شفيق) الذي كان يسأل عن الكبير والصغير، ويريد ألّا يُصاب أحد منّا أو من الأهل أو الأصدقاء، بل من الناس كلّهم، بسُوء، ولو على حساب راحته وصحّته وماله؟؟ وكم من مأزق وقع فيه بعض إخوته أو أصدقائه فكان لهم حبل الأمان وصلة الوصل برغم صعوبات الحياة! وكم من مرة تأذّى من مساعدته الناس إلا أنّه أبى أن يحيد عمّا تربّى عليه! حتى عندما توقّف يومًا – وهذا دأبه- ليحمل بعض الناس المنقطعين في الطريق

فسُرق جوّاله، وعندما بدأت أدعو وأسبُّ على السارق بما فُتِح علي قال لي: دعه يا أخي، لعلّه محتاج إليه أو إلى ثمنه!! يكفينا أن نوقف الخطَّ في الشركة، لكنني أصررت عليه بأن نذهب لكتابة ضبط شرطة بالحادثة، فأجابني لذلك على مضض.

هل عرفتم (شفيق) الذي أبى أن يغادر الشام التي كانت تعشّش في خلاياه، برغم ضيق العيش؟ ولمّا اضطرته الحياة تحت إصرارنا نحن وأهل بيته إلى أن يجرّب السفر؛ اختار السعودية، مدرِّسًا في دار المعلمين بمكّة، مجاورًا بيت الله الحرام، حيث أدّى فريضة الحجّ، وقد استطاع والداي -رحمهما الله وإياه- أن يؤدّيا هذه الفريضة بدعوتِهما إليه، فكان ذلك من أسعد الأعمال إلى قلبه وقلبَيْ والديّ، فجزاه الله خير الجزاء.

هل تعلمون أنّ أخي (شفيق) كان يقضي يوميًا نحو ١٨ ساعة في العمل؛ ما بين الجامعة ومحاضراته فيها، وإشرافه العلمي على رسائل الماجستير والدكتوراه، فضلًا عن مساعداته كثيرًا من الطلاب الذين يفدون إليه من بقاع سورية والعالم الإسلامي كافّة، في مكتبه في الجامعة، أو في الشركة، أو بيته، لمساعدتهم في اختيار موضوعات رسائلهم، بما يخدم هذه اللغة في حاضرها ومستقبلها.. إضافة إلى عمله في شركة الزُّهْرة، حاملًا رسالة اللغة والأخلاق والقيم النبيلة؛ ليوصلها إلى كلّ أبناء هذه الأمة من المحيط إلى الخليج..

هل عرفتم أخي (شفيق) الذي كان يحلم لهذه اللأمة بيوم الحرية هذا الذي تعيشونه اليوم، والذي كنّا نخاف عليه من بطش الأجهزة وكتّاب التقارير بسبب مواقفه السياسيّة التي كان يصرّح بها ولا يلمّح، فما كان يهاب أحدًا في سبيل قولها، فيرى أنّ الظلم لا بدّ له من أن يزول، وأنّ مستقبل هذه الأمة كلّه خير، وأنّها لا تستحق إلّا أن تكون في صدارة الأمم.. (شفيق) يا إخوتي وأحبائي كان عصفورًا يحلم مثلنا بالحرية، ولكنّه كان يؤمن برحيل الطغيان حتمًا، ألم يَقُل:

لا تسألوني: كيف؟

ولا تقولوا لي: متى؟

لا علمَ لي.. لا عِلمَ إلّا أنّهُ أَتَى..

وأنَّهُ كوى الوجوهَ والشّفاهَ والحُلوقَ والقُلوبَ والكُبُودَ والكُلى

وأنّه محترقٌ أكثرَ ممّا نابَنا مِن حرِّهِ حتّى استوى

وأنَّهُ مُغادِرٌ بالرّغم أو بـ(الكَيْف).. لَهِيبُ هذا الصَّيْف!

(شفيق) يا إخوتي لم يكن شخصًا عاديًا، كان نبيلًا على بساطته، بسيطًا على عظمته، كان شخصًا هربت جيناته من زمن الصحابة وزرعها الله بيننا في هذا الزمان.. كان إذا جلس في مجلسٍ أفاد أو استفاد، ولم يكن الثالث.. وأقرأ لكم ما كتبه ذات يوم من أيام ٢٠١٦م:

من الحكمة والأجوبة المُسكِتة:

((كان عبدُ القادر (ابنُ خالي) -رحمه الله - فتًى مُشاغِبًا، ثُمّ تقلَّبت به الحياة، فاغتربَ، وعركته الحياة فعرف كثيرًا من حقائقها، ثمّ ساقته إلى أن عَمِلَ قبل وفاته في محلٍّ للجِزارة في سوق اللّحم بدمشق، ولَقِيتُه في آخر زيارة له إلى بيت أهلي ليُسَلِّمَ على أُمّي (عَمَّتِه)، فحدَّثَنا أحاديثَ ما كنتُ أَظُنُّه يتحدَّثُ بها؛ ومنها أنّه لمّا بدأ يعملُ في محلّ الجِزارة كان يجتمع مع بقيّة العاملين وقتَ الغَداء، فكانت أحاديثُهم -وهو يسمعُ - تدورُ حولَ ما فعلوه فيما سبق من أيّامهم، أو حولَ ما سيفعلونه مِن قَصْفٍ ولهوٍ و(شُرْبٍ) مع بنات الهوى، فلمّا تكرَّر ذلك منهم صار يتناولُ غَداءَه وحدَه بعيدًا عنهم، فقالُوا له مُمازِحين: (ما تكون ترانا كِلابًا حتّى لا تُشارِكنا في غَدائِنا؟)؛ فقالَ: (لا، ولكنّني كنتُ في صِغَرِي أُرَبِّي الجِراءَ، فأُطعِمُها وأَسقِيْها، ثمّ تَمُرُّ الأيّامُ وأغيبُ عنها، وتَكْبَرُ فتصيرُ كِلابًا، فإذا رأَتْنِي بَعْدَ طولِ العَهْدِ بي جاءَتْني تتمَسَّحُ بي مُرَحِّبَةً، لم تنسَ ما قدَّمتُهُ إليها فيما سَلَفَ؛ وأنتم أنعمَ الله عليكم، فكَبَّرَكُم، وأتمّ نعمته عليكم بالطّعام والشّراب والصّحّة والعمل والمال والأهل والأولاد، وأراكم تأكلُونَ مِن رِزْقِه وأنتم

على مائدته وتُصِرُّونَ على مَعْصِيَتِه؛ أفَأَنتم خَيْرٌ أَمِ الكِلاب؟!)).

ما أبلغ بصيرة ابن خالي رحمه الله، وما أعظم ما وقف عليه أخي من هذا الخلق النبيل! مع أن ابن خالي لم يحصّل كثيرًا من العلم في المدارس، بل فتح الله على بصيرته.

لقد كانَ الشفيق الحبيب -عَلى شَرَفِهِ- أَشدَّ النّاسِ تَواضُعًا، وأَخفَضَهُم جَناحًا، تَأثَّلَتْ لَهُ بعلمِهِ وَجاهةٌ عَظيمَةٌ، فَلَمْ يَصْرِفْها فِي تَرفِيعِ حَالٍ، ولا جَمْعِ مَالٍ، إنّما قَصَرَها عَلى المَصالِحِ العامّةِ التي كُلِّفَ بها.. فكان أزهَد الناس بالوجاهةِ.

لو أردت أن أقول ما عرفت في أخي الشفيق لما كفاه القول، ولسطّرت لكم صفحات وصفحات، بين قول شائق، وحكمة وموعظة لا تملّها الأسماع ولا القلوب..

أحبتنا: حسبنا من كان من الأحبّة جميعًا، وما رأيناه منكم في الفترة التي كان فيها أخونا في المشفى، ثمّ في التشييع، وفي صلاة الجِنازة، وفي العزاء، غير المعزّين في منزل الأهل بدمشق، ثم في منزله في معضمية الشام، حسبنا ما رأيناه من محبّة الناس، ومشاركتنا في تعاطفها، وتقديم المواساة، وشدّ أزرنا في مصابنا، سواء من خلال الزيارات المباشرة، أو الاتصال بالهاتف، أو من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، من داخل القطر ومن خارجه، ومن أبناء بلدتنا رأس المعرة ومنطقة القلمون كلّها، ومن طلاب العلم والأصدقاء والزملاء في جامعة دمشق الموقّرة، وقسم اللغة العربية خاصةً، ومن الأخوة والأصدقاء في شركة الزهرة الكريمة، ومن الجيران، فجزاهم الله عنّا خير الجزاء..

ما يُعزّينا أنّ الدكتور محمد شفيق البيطار زرع بذور الخير في الأمة، وسعى لها أن تكبر لتصبح بالغة مثمرة، ولو على حساب صحته وراحته ووقت أسرته، لكي تكتَمل مسيرته ورسالته، فجزاه الله عنّا وعن العربية خير الجزاء، ونرجو من الله أن تكون أعمالُه وأعمال طلابِهِ ومحبّيه في ميزان حسناته، لا يُنقِص ذلك من أجورهم شيئًا.

وأكثر ما عزّانا في مصابِنا أنّ آخر كلامه قبل دخوله غرفة العمليات: (أشهد ألاّ إله إلا

الله، وحده، لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، عليها نحيا، وعليها نموت، وعليها نُبعَث إن شاء الله).. فكانت شهادة لقي بها وجه الله الكريم.

سنبقى أيُّها الحبيب النبيل على العهد الذي عرفْتَنا به، وتربّينا معَك من والدَيْنا – رحمهما الله– عليه: نُحبّ الناس؛ كلَّ الناس، لا نَظلِم أحدًا، ولا نُؤذي أحدًا، وسنَبقَى مُنصفِيْنَ وعادلِيْنَ مَعَ الجَميع.. تمامًا كما أَوصيتَنا وأنت في المشفى، بين الوعي واللا وعي.

ستبقى يا أخي (شفيق) الحبَّ الذي لا يُهزم، والسّندَ الذي لا يَميل إذا مال الناس.. وستبقى ذكراك الجزء الأجمل لنا في هذا الكون؛ فريدًا وحيدًا لا يشبهه شيء..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أبي ... ومن كأبي؟!

هبة الله محمد شفيق البيطار

لطالما كان يتردّد على مسمعي مقولة: "كلّ فتاة بأبيها معجبة"، لكن يقيني دائمًا كان مختلفًا، فأبي لم يكن مثل الجميع، بل كان استثناء فريدًا، رجلًا لا شبيه له ولا مثيل. وحقًا، أشفق على من لا "شفيق" له؛ فقد كان اسم أبي يحمل في معناه البركة والرحمة، تمامًا كما حملها في حياته لكلّ من حوله.

كيف لا؟ وهو الذي جلب معه الخير للدّنيا ولمن حوله منذ ولادته.

أستحضر كلام جدتي رحمها الله حين ذكرت مرة أنّ أبي رحمه الله كان أشقر في صغره، لأرد عليها متعجبة: كيف ذلك يا ستي؟ وأبي الآن أسمر!"

فوصفت لي ولادته وصفًا لا أكاد أنساه، وأنّها كانت سهلة يسيرة. قالت إنهم بعد ولادته وضعوه في وعاء ليغسلوه، فكان وجهه يشرق كما الشّمس، وكان ممتلئًا بياضًا كالقمر، وشعره أشقر كالذّهب.

قد لا يكون ذلك شقارًا يا جدتي، بل كان نورًا جاء به إلى هذه الدّنيا لينيرها.

كان أبي رحمه الله فائق الذّكاء منذ الصّغر، وقد ذكرت لي إحدى قريباته أنّه منذ طفولته كان محبًّا للقرآن الكريم والكتاب، وكثيرًا ما كان يتغيّب عن الجمعات العائليّة ليختلي بكتابه في تلك الغرفة.

كما أنّ موهبة الرّسم لمعت لديه في عمر مبكّر، حتى إنّ المدرسة طلبت من جدي رحمه الله أن يوافق على إرساله إلى روسيا في بعثة لتنمية هذه الموهبة. أذكر أيضًا أنَّ جدّتي رحمها الله كان لديها أوانٍ من النّحاس والألمنيوم، وكان أبي قد نقش عليها بخطه المذهل بعض الآيات والأشعار.

كان أبي رحمه الله بارًّا جدًا بوالديه، حتى إنّه كان يحضر لهما (النقرشات) التي كانا يحبّانها،

وعندما كنّا نذهب لشراء رقائق البطاطس كان يطلب منّا أن نحضر لهما أيضًا فكان بذلك يربينا على برّهما.

عرف أبي بمحبّته للجميع، وكان لأعمامي وعمّاتي حفظهم الله نصيب كبير فكان مساعدًا ومساندًا لهم دائمًا.

أما عن أهل أمي، أطال الله عمرها وأحسن عملها، وأطال عمر أخوالي وخالتي، فلم يكن لهم مجرد صهر بل كان ابنًا بارًّا. ولذلك، وهبه الله صهرين بل ابنين وأسأل الله أن يكونا بارّين بأهلي كما كان أبي مع أهل أمي.

أذكر تمامًا كم كان يحب جدتي رحمها الله ويكرمها دائمًا، ويطلب منها أن تبيت عندنا. وأذكر كيف كان يتحدث عن جدي رحمه الله بكل احترام وتقدير.

أما عن علاقته بخالي أديب رحمه الله، فقد كانت علاقة صديقين بل أخوين. كان بينهما ودٌّ عظيم واحترام متبادل.

أحبُّ اسمي كثيرًا، فقد اختاره لي أبي رحمه الله بعد أن هداه الله لذلك. كان عازمًا على أن يسميني "بغداد" لشدة حبه لهذه المدينة، لكنه حين علم أن الاسم يعود لآلهة قديمة، عدل عنه واختار لي اسمًا آخر.

أما بالنسبة لأختي الصيدلانية صفاء، فعند ولادتها غضبت نساء العائلة الكبيرات وقلن: "لو أنها لم تأت!" لأنهنَّ كنَّ يحببن الصبية أكثر. فما كان من أبي رحمه الله إلا أن سجد لله شكرًا وقال: "الحمد لله، الآن ضمنت الجنة إن شاء الله".

سنظل يا أبي كما أردتنا أن نكون دائمًا: فتيات عابدات نقيات، عفيفات ومتعلمات. ورضي الله عن أختي صفاء الحنونة، البارة، والواعية، التي كانت دائمًا قريبة من قلبك.

وماذا أقول عن اسم أخي عمرو آخر العنقود؟ على ما أذكر، كان أبي رحمه الله يريد أن يسميه "سيف الإسلام" أو ما شابه. لكن عندما رأى أن أمي قد تعبت كثيرًا بعد ولادته التي

تعسّرت جدًا، قال لها: "هل نسميه عَمرًا؟"، وقد كانت أمي تحب هذا الاسم كثيرًا.

رحم الله أبي، فقد كان يمشي في الأرض جابرًا للخواطر. أذكر عندما كنت طفلة كان أبي يعلمني قصار السور. لم تغب عن بالي أبدًا طريقته في سرد قصص القرآن كقصة أصحاب الفيل، وأبي لهب، والكوثر، وغيرهم الكثير. أتذكر كيف طلب مني أن أحفظ سورة الرحمن وأنا في الصف الثاني الابتدائي، وكيف كافأني على حفظها بمئتي ليرة.

في أول يوم لي في الروضة، طبع قبلة على جبيني وقال لي: "أريدك أن تكوني قويّة"، ثم ذهب. كنت أراقبه بنظراتي حتى اختفى حين رأيت الأطفال يبكون ويصرخون دمعت عيناي، لكني تذكرت قول أبي فمسحت دموعي وقلت: "أنا قوية".

كم كنت أستمتع بوقتي معه عندما كنا ننتظر الباص ليقلّني إلى الروضة. أذكر كيف كان يغلف لنا الكتب والدفاتر، ويكتب عليها بخطه الرائع الذي لم أر مثله يومًا. كان أبي وأمي يعلماننا الأناشيد، وكان دائمًا يساعدني في كتابة مواضيع عن أبطال الأمة.

فكان يطلب مني إحضار كتاب "الأعلام"، ليستخرج لي الأشعار الواردة عن الأبطال. كان أكثر بطل أحببته وأحبه هو عمر المختار، بل هو من جعلني أعشق هذا البطل.

وكثيرًا ما كان يخطُّ اللافتات للمناسبات في المدرسة بعد طلب مني رغم اعتراضه على ذلك وعدم رغبته به لكنّه لم يكن يريد أن أشعر بالحزن، وكان يؤلف الأشعار التي كنت ألقيها في تلك المناسبات.

كان أبي رحمه الله منبعًا للخير والحنان، معطاء بلا حدود، ولا ينتظر مقابلًا من أحد. كان دائما يعمل لآخرته، طالبًا القبول والرضا من الله. لا أستطيع أن أنسى أبدًا كيف كان أبي يساعد الطلاب والأشخاص الواقفين على قارعة الطريق، ينتظرون وسائل النقل للعودة إلى بيوتهم أو أعمالهم. كان يطلب منهم أن يركبوا معنا في السيارة، خاصة في أيام الشتاء الباردة.

أتذكّر مرة أن أحد هؤلاء الأشخاص سرق هاتفه الجديد! ومع ذلك استمر في مساعدتهم.

فسألته: "لماذا يا أبي تفعل هذا؟" فأجابني بأنه يطبق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له."

حتى إنه كان يأخذني أنا وصديقاتي بسيارته الخاصة إلى المدرسة. ولكن عندما بدأت اثنتان منهن بدراسة اللغة العربية في جامعة دمشق، توقّف عن إيصالهما. وحين سألته عن السبب، قال: "كي لا تظنا أنهما مميّزتان عن باقي الطلاب فجميعهم أولادي".

أتذكر أنني حضرت إحدى محاضراته في الجامعة دون أن يعلم، وأقسم بالله إنني لم أحضر أجمل منها في حياتي. لم أر أستاذًا أبلغ ولا أروع منه فقد كان محاضرًا استثنائيًا، بأسلوبه العذب وكلماته المؤثرة التي أسرت قلوب الطلاب.

ومرة كنت أنتظر الباص على باب الجامعة، فإذا بأبي يدخل بسيارته إلى الحرم الجامعي ودون شعور، ناديت: "أبي، أبي!". فما كان من فتاة تقف قربي إلا أن التفتت وسألتني: "الدكتور" شفيق أبوك؟" ثم قالت: "والله إنه أفضل دكتور لدينا. وأضافت أنها لا تنسى يومًا حين قال لهم في المحاضرة: "خير الطهور الماء"، محفزًا لهم على النظافة، ومكرّهًا لهم وضع الطيب. وعلى ذكر الطيب، أذكر مرة كنا نستعد للذهاب إلى مدينة الملاهي، وكنت في الصف الخامس الابتدائي. تطيبت بعطر مميز، ولما شمّ أبي تلك الرائحة، طلب مني أن أغير ملابسي على الفور، وقال لي بحزم: "لا أريدك أن تفعلي ذلك مرة أخرى".

كان رحمه الله يحرص على أن نكون متواضعات نقيات، ملتزمات بالقيم والأخلاق التي ترضي الله ورسوله. كان أبًا يعلمنا دروسًا عميقة في الحياة دون أن يشعرنا بذلك، فكل تصرّف له كان رسالة، وكل كلمة كانت نصيحة.

كان أبي رحمه الله أمّة في التواضع، بتواضع لا يمكن وصفه. حتى إن بعض الجاهلين المتكبرين كانوا يتفاخرون أمامه بما جمعوه من هنا وهناك، معتقدين أنها ثقافة. لكنّه لم يكن ليكسر خاطرهم أبدًا، بل كان يشفق عليهم ويستمع لهم بصبر. سألته مرة: "لماذا يا أبي تتواضع

إلى هذه الدرجة؟" فأجابني: "يا بابا، من تواضع لله رفعه، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. وأريدكم أن تكونوا مثلي".

أتذكر كيف كان أبي يقوم بتنظيف الشارع وشطفه بنفسه. وعندما كنا نقول له: "يا أبي، هذا عمل عامل النظافة" كان يبتسم ويقول: "لا" مشكلة، فأنا أساعده، والنظافة من الإيمان.

ذات مرة، استلم منصبًا فخُصصت له سيارة رسمية وسائق خاص لكنّه كان دائمًا يجلس بجانب السائق وكثيرًا ما كان يقود السيارة بنفسه. لم يخطر في بالنا أبدًا أن نطلب من السائق إيصالنا إلى أي مكان نريده لأن أبي كان يقول: "هذه سيارة للعمل فقط."

حتى الراتب الذي كان يتقاضاه من هذا المنصب، لم يكن يقبل أن يحتفظ به لنفسه بل كان يقوم بتوزيعه على من يحتاج من الموظفين والعاملين. كان يقول: "هذا المنصب يتطلب دوامًا دائمًا، وأنا أضطر أحيانًا لإعطاء محاضرة في وقت الدوام".

كان أبي رحمه الله نموذجًا نادرًا للزهد والإيثار، يُعلمنا بالقيم والمبادئ من خلال أفعاله، ويترك في قلوبنا أثرًا لا يزول.

رحم الله أبي، الذي كان يجني ماله بالحلال فقط. وأقسم بالله أنه لم يدخل بيتنا مالًا حرامًا، ولم يطعمنا إلا اللقمة الحلال.

كان أبي رحمه الله حنونًا جدًا، ورحيمًا، لم أذكر أنه قام بضرب أحد منا.

أما عن تلك القطة الصغيرة التي وجدناها أمام المنزل وكان عمرها لا يزيد على أسبوع، فقد قام أبي برعايتها والاعتناء بها، وأحضر لها دواء، وكان يعتني بها بحب وعطف. لكن قدر الله أن تموت القطة، وأذكر كيف دمعت عيناه عندما أخبرناه بأنها ماتت.

كان أبي رحمه الله رحيمًا، رؤوفًا، عطوفًا على أمي وكان يحبها حبًا جمًا. كان يحترمها ويأخذ برأيها. فقد كانت أم عبده شريكة العمر، وكانا مثالًا يحتذى به للزوجين الصالحين. كثيرًا ما كانت أمي تدعو لنا أن يرزقنا الله أزواجًا كأبي.

وكم كانت فرحة أبي كبيرة عندما تمت خطبتي من زوجي الدكتور إسماعيل، فقد كان يحبه كثيرًا. وأذكر عندما جلست معه شعرت وكأنه نسخة أبي لهذا الزمن.

وربما لذلك وافقت.

وكتب أبي رحمه الله بعد قراءة الفاتحة هذه الأبيات:

أهديت روحي لروحي فيا رياحين فوحي

ويا زهور أفيقي ❋ ويا عصافير بوحي

لما قرأنا افتتحنا❋ بالحمد خير الفتوح

يا رب تمّم بخير❋ في يوم سعد صبوحي

وأما بمناسبة زواجي فقد كتب:

اليوم يلتقي القمر❋ والشمس في أحلى خبر

والأهل والأحباب في❋ حفل السرور والسمر

يا رب تمّم بالهنا❋ واغمر به من قد حضر

هب هبة الله وإسـ❋ ـماعيل صفوًا لا كدر

واجعلهما مثل الشجر❋ يأتي بأطيب الثمر

وعندما ولدت ابنتنا (مارية) حبيبة قلب جدّها ودلوعته وأولى أحفاده كتب أبي رحمه الله:

شمس أتتنا مشرقة❋ وباقة منسقة

مارية حفيدة❋ أنيقة مؤنقة

محفوفة بحبنا❋ محبوبة كالفستقة

وعندما ولد محمد أوس كتب أبي:

قد جاء أوس هللوا تهليلا

وادعوا لأوس أن يكون نبيلا

مفتاح خير لا يزال دليلا

متلألئًا أوس بن إسماعيلا

وكنا قد اسميناه اسمًا مركبًا تيمّنًا باسم أبي، أوس يشبه أبي كثيرًا بوجهه البشوش وثغره الضاحك، حتى إنه يشبهه في جلسته. أوس يحمل في طياته سحرًا خاصًا يشع من ملامحه الصغيرة، ويذكرنا دائمًا بحب أبي وتواضعه.

إن أردت أن أصف ما يمكن للمرء أن يتعلمه من أبي رحمه الله، فلن تكفيني أيام، ولا شهور، ولا سنون. ولكن أعتقد أن أكثر ما تعلمته منه كان حب الصدقة والمبادرة إليه دائمًا، حتى ولو بالقليل. فقد كان أبي رحمه الله عابدًا، زاهدًا، فقيهًا، متصدقًا.

كيف لي أن أخبركم عن صوته الشجيّ وهو يتلو آيات القرآن الكريم؟ كان صوته يعطر الأجواء ويُشعرنا بالسكون والطمأنينة. وقد بعث لي بمقاطع صوتية سجلها وهو يقرأ قصار السور، كي أعلمها مارية. وكنت قد نشرت تلك المقاطع على أوسع نطاق، وأصبح صوته عبقًا يتنقل بين الناس.

إن شاء الله، ستبقى هذه المقاطع في ميزان حسناته إلى يوم القيامة، وتظل ذكراه حية في قلوبنا جميعًا. كان أبي نموذجًا للصدق والإيمان، وأثره في حياتنا لا يقاس.

وبمقدار حنان أبي ورحمته، فقد كان شديدًا حازمًا، لا يخاف في الله لومة لائم. كان يقول الحق ويسعى وراءه بكل شجاعة، كان أبي مجاهدًا بقلمه، مرابطًا في وطنه. وما أكثر العروض التي طرحت عليه ليسافر ويغادر البلاد، لكن جوابه كان واحدًا دائمًا: "لا أترك أولاد بلدي، ولن أتركها حتى يذهب منها هؤلاء الظالمون".

وقد رفض المناصب العلمية الكبرى، فقط لأنه لم ير فيها عدلًا أو حقًا.

وكان دائمًا يوصينا بالصبر، ويؤكد أن النصر قادم. كان يقول: "عام ٢٠٢٥م لن يظهر على هذه المنظومة الفاسدة." وفي عام ٢٠٢٠م، قال: "الصبر، فلم يبق لهم سوى أربع سنوات.

فقلت له: "بل" تقصد أربعين سنة يا أبي؟" كان يقين أبي بالنصر يقينًا قويًّا، بل من شدّة يقينه تظن أنه قد أوحي إليه.

وكان يوصينا دائمًا بالعودة إلى بلادنا، سنعود يا أبي فقد طلبت بلادنا أولادها.

عائدون لنكون يدًا بيد ونرقى بها إلى أعالي السؤدد.

لقد كانت أمنيته أن يعمر مزرعة في الريف، وأن يمضي بها بقية حياته عندما يتقاعد، إن شاء الله لك هذا يا أبي في جنات النعيم، خالدًا فيها.

كل ما سبق ذكره كان مجرد ذكريات بسيطة، وأما إن أردت أن أذكر التفاصيل، فلن تكفيني ملايين المجلدات.

أبي كان إنسانًا استثنائيًا، أبًا، معلمًا، صديقًا، وزوجًا مخلصًا. رحل، لكن روحه باقية بيننا، في كل ذكرى وكل فعل تعلمناه منه. سأبقى أروي لأولادي وأحفادي عنه، عن تواضعه وحنانه، عن قوة إيمانه، وعن يقينه بنصر الله.

أسأل الله أن يرحمك رحمة واسعة، ويجعل مسكنك الجنة، ويجزيك عنا كل خير. لقد كنت خير قدوة وخير أب، وستظل حيًا في قلوبنا ما دمنا أحياء.

الأب المعلّم، والجدّ الحنون

عفاف محمد شفيق البيطار

كيف لي أن أكتب عن رجلٍ لو أفنيتُ عمري في وصفه لما أوفيته حقه؟

كان والدي رجلًا طيّبًا ولطيفًا وهادئًا، لم أسمع منه يومًا كلمة تؤذيني أو تزعجني، بل على العكس تمامًا، كنت أراه صديقًا مقرَّبًا لي، لم أخف يومًا من أن أحكي له أيَّ شيء.

أذكر مرة، عندما كنت في الصّفّ الخامس الابتدائيّ، اعترضني أحد الصّبية في طريقي إلى المدرسة، وأسمعني كلامًا غير لائق، فعدت إلى أبي وأخبرته بما حدث، فأجابني بحنانٍ وحزم: (إذا تكرَّر الأمر، اخلعي نعلك واضربيه)، وفي اليوم التالي، بينما كنت في طريقي إلى المدرسة، لم أكن أعلم أن أبي كان يسير بسيّارته خلفي ببطء ليراقبني دون أن أشعر، وعندما اعترضني الصّبيّ مجددًا، صرخت في وجهه بكلّ شجاعة. عاد أبي مساء، وقال لي بابتسامة فخر: (هكذا أريدك أن تكوني... بطلة لا تحتاجين لأحد).

كان والدي هادئًا حتى في تلاوته للقرآن، رجلٌ يعشق العمل، يحبّ العلم، ويولي اللّغة العربيّة اهتمامًا خاصًّا. في ليالي رمضان، كان بعد الإفطار يحتسي منقوع المتة مع والدتي، ثم يجلس أمام حاسوبه المحمول يكتب. بعد ذلك، يصلي التّراويح جماعة معنا بصوتٍ عذب، ما زلت أسمعه في ذاكرتي وكأنّه حاضرٌ إلى اليوم.

عندما كبرنا وارتدنا الجامعة، لم يكن يرضى أن نتكبّد عناء المواصلات الصّعبة في تلك الفترة، كان يأخذنا ويعيدنا بسيّارته، وينتظرنا حتى ننهي محاضراتنا، وإن أردنا الذّهاب مع أصدقائنا، كان يقول: (سأنتظركم، لا أريدكم أن تتعبوا)، وبعد التخرّج، عملت أنا وأختي في صيدلية بساحة عرنوس، كان يوصلنا يوميًّا ويعيدنا إلى المنزل بنفس الحبّ والرعاية.

لم يكن أبي مجرد مربٍّ للأجيال، بل كان فنّانًا بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.

عندما التحقت بمركز أدهم إسماعيل للفنون التشكيليّة، كان ينظر إلى لوحاتي بعينٍ ناقدة،

يصحّح لي أخطائي بعينين ذكيّتين قلّما رأيت مثلهما. مرّة قلت له مازحة: (بابا، شو رأيك تسجل بمركز أدهم إسماعيل؟ والله أنت فنان!) فرد عليّ ممازحًا: (لو سجّلت، بفنفن أكتر منك، بس ما في وقت يا بابا).

كان يحب والدتي حبًّا نقيًّا عذبًا لم أرَ مثله في حياتي، دائمًا ما يعترف بفضلها ويقول: (لولا أم عبد الرحمن وصبرها، لما أنجزتُ شيئًا ممّا حققته).

لم يكن أبي بالنسبة لي أبًا فقط، بل كان صديقًا وسندًا، لم أخشَ يومًا أن أناقشه في أيّ أمر، حتى عندما صرت شابّة يتقدم لها الخطّاب، كنت أشاركه كلّ التّفاصيل، وكان يقول لنا دائمًا: (اعملوا ما تجدونه مناسبًا).

في آخر زيارة لي للشّام، كنت أستيقظ باكرًا مع طفلي، فأراه كعادته يستيقظ قبلي، يجلس أمام حاسوبه المحمول، كان يصلي الفجر، يقرأ القرآن، ويباشر عمله قبل أن يتوجّه إلى الجامعة لنشر العلم. في طريقه، كان يتلو أذكار الصّباح بهدوء وسكينة.

في تلك الزّيارة، أوصاني قائلًا: (عودي إلى الشّام، فالملائكة باسطة أجنحتها هنا). كنت أنا وزوجي قد عرضنا عليه أن يأتي لزيارتنا في ألمانيا، لكنه أجاب بحزم: (لن أخرج من الشام ما دمت حيًّا).

هذا وقد أوصاني أن أدرّب ابني الذي كان عمره عشرة أشهر على مخارج الحروف، وقد حاول معه مرارًا أن يقول لفظ الجلالة "الله" فتجاوب معه ابني مرة واحدة، فرح عندها فرحة كبيرة، وأوصاني أن أعلّمه كتاب الله.

برحيله، لم نخسر أبًا فقط، بل خسرنا المعلّم، الصّديق، الجدّ الحنون، والسّند.

رحمك الله يا أبي، وجزاك عنّا كل خير.

أبي السَّند والقوَّة

عبد الرحمن محمد شفيق البيطار

أبي رحمه الله، كان الإنسان الطيب الحنون، المتواضع الكريم، صاحب العلم والخير، المحب الرفيق، الداعم الذي يجبر القلوب، المعلم والأستاذ، والمرجع في كل شيء.

كان أبي السند والقوة التي نستمدُّ منها العزم في هذه الحياة، كان منارةً تضيء لنا وسط بحر الحياة الهائج، كنا نلجأ إليه لنطمئنَّ، فكان لنا المأوى والملجأ واليد الحانية التي تمسح على قلوبنا. لم يكن مجرَّد أبٍ، بل كان مدرسة في الأخلاق والقيم، يزرع فينا حب الخير، ويحثُّنا دائمًا على المحبَّة والصلح وجبر الخواطر، وأن نبتغي وجه الله في كل عمل نقوم به، صغيرًا كان أم كبيرًا.

كان رحمه الله يوصينا بالعدل، ويحثنا على ألّا نظلم أحدًا، وأن نسامح، وأن نرى الجمال في الناس، ونتغاضى عن الزلات، فالحياة لا تحتمل أن نثقل قلوبنا بالأحقاد. عندما كنت أخرج معه صباحًا إلى العمل، كان يوجهني بكلماتٍ لا تزال ترنّ في أذني: (اجعل كل خطوة تخطوها لله، ولا تبتغِ بها إلا وجهه الكريم).

وفي المساء، ونحن في طريق العودة، كنت أختصر له أحداث يومي في مشوار السيارة إلى البيت، فيستمع إليّ بحبٍ وحكمة، ثم يبتسم قائلًا: (كن حليمًا وتغاضَ، فليس العنيف سيد القوم، إنما سيد القوم المتغابي). كان دائمًا يحدثني عن حبه للبساطة، ويذكّرني أن هذه الحياة ما هي إلا دار عملٍ وكدح، وأن الباقي منها هو الأثر الطيب الذي نتركه.

كان رحمه الله يحثُّنا على أن نكون دعاةً للخير، مساعدين للناس، جابرين للخواطر، لأنَّ الكلمة الطيبة، واليد المعطاءة، والابتسامة الصادقة، تبقى في القلوب أطول من العمر نفسه. رحمك الله يا أبي، وجعل مثواك الجنة.

لا شيء يعدل في هذا الوجود أبا

صفاء محمد شفيق البيطار

لو أمطرت ذهبًا من بعد ما ذهبَا لا شيء يعدل في هذا الوجود أبًا

أنّى للكلمات أن تصف خصالك الحسنة، يا من كنت قمرًا مضيئًا في سمائنا، تنير لنا أيامنا وعمرنا وقلوبنا..

في كل صباح كنت أتشارك طريق الذهاب إلى الجامعة مع والدي وكان دائمًا يكرِّر: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ، وَقَهْرِ الرِّجَالِ ".

وفي طريقنا كان يوقف سيارته ليُركب معنا بعض المارة رجالًا ونساءً، كبارًا وأطفالًا..

كان رحيمًا شفيقًا هنيًّا كريمًا، لم أرَ في كرمه أحدًا..

العام الماضي في مثل هذه الأيام؛ كان حفل خطوبة صديقتي، وكانت الحفلة في مكان بعيد عن منطقتنا، طلبت منه حينها أن يمرَّ على صديقتيَّ لنأخذهما معنا، فوافق بصدر رحب، أخذنا والدي إلى الحفل وانتظرنا أربع ساعات!! ووالله لم يقل كلمة تزعجني، ولم يتضجّر أو يتبرّم!!

وفي المدّة نفسها كانت والدتي في سفرٍ، وكنت المسؤولة عن أعمال البيت، فكان دائمًا يساعدني في التنظيف والطبخ والترتيب.

وكم كان رحمه الله يحب الترتيب والنظافة!! كان ينظف الشارع الذي أمام بيتنا بنفسه.

في مرضه حدثني ابن عمي عندما كنا في المشفى، وكنت حينها أمسك بيد والدي، قال لي ابن عمي أنه كان يسقيه العصير مع عمي، فقال له والدي: "يكفي هذا" فقالوا له: "اشرب المزيد"، فقال: "أريد أن أترك لكم شيئًا لتشربوه".

هكذا كان أبي دائمًا، يفضّل أحبابه على نفسه، زاهدًا في كل ما في هذه الحياة...

رحمه الله رحمة واسعة وجمعنا به في جنات الفردوس الأعلى..

وَدَاعًا أبي

وَدَاعًا فللمَوْتِ جُرْحٌ عَمِيق

وَدَاعًا فللمَوْتِ ظُفْرٌ وَنَابْ

ودَاعًا أبى وَلْتَنُلْ حَيْثُ تَرْقَى

رَفيعَ الجِنانِ وحُسْنَ المَآبْ

رفيقي الغالي

عمرو محمد شفيق البيطار

أبي رحل معه الحنان والسعادة والطيبة، يراودني كلام لا أستطيع أن أخرجه أبدًا بسبب الحزن الموجود بداخلي.. وضعت كلمات مكثفة لتعبر عن حزن فراق أبي وعن كل شيء جميل قد كان لي في حياتي قبل رحيل أبي، وعن كل حسن لي غادرني بعد رحيله.. غادرني الفرح في رحيلك يا أبي.. ذهبتَ وذهب معك كل شيء جميل..

أبي، بعد رحيلك، لم تعد الحياة كما كانت، فراقك كان وجع العمر، وألم الروح، وحزن القلب. في وفاتك يا أبي، أيقنت أنَّ الحياة قد تسقط من عيني إنسان، كما أني أيقنت أن في فقد الأب كسرًا لا يجبر.

كم اشتقت إليك ولحديثك ولعينيك اللتين كانتا تبتسمان حين تراني.. لا أعلم يا سيد الرجال كم أحتاج من العمر لأتيقَّن أنك لن تعود إلى الحياة سندي..

لا أنسى حين كنتُ صغيرًا تصحبني معك إلى الجامع، وكنت أجلس إلى جانبك.. لا أنسى حين كنت تأخذني إلى المدرسة، وعندما نصل تأخذ بيدي لتقطع معي الطريق، خوفًا عليّ.

لا أنسى يدك التي كنت أقبلها قبل دخولي إلى المدرسة.. كبرت وترعرعت بين أحضانك.. لم يتغير شيء، ما زلت تصحبني معك لأتعلم منك.

كبرت حتى دخلت الثانوية، وصارت لدي مشاكل أخبرك بها لتكشف لي عن حلّها، لم أكن أهلًا لأحل هذه المشاكل بمفردي.. وكنت تخبرني بأشياء بسيطة تزعجك، فتشعرني بأنني صديق لك.

في هذا العام شعرت بنضجي قليلًا، وأدركت أنَّ عليَّ أن ألازمك لأتعلم منك كل ما هو مفيد، ولا أنسى الكتاب الذي أعطيتني إياه وصرنا في كل يوم نقرأ جزءًا منه مع والدتي

لتعلمنا من بحرك الواسع.. لا أنسى النقوش على الصخور التي كنت تريني إياها، وتقول لي: اقرأ، لتعلمني الصواب.

ولا يغيب عن بالي حين كنت أقرأ لك قصائد من كتبي، فتخبرني أن في هذا البيت حرف في الشطر الأول منقول إلى الشطر الثاني، كيف كنت من سماعٍ عابرٍ تتنبه إلى ذلك؟

أمّا صباحك فكان رائعًا جدًا، يشبهك تمامًا، كنت أستيقظ وأراك مشغولًا، تنهل من العلم، وتقرأ في كتاب رياض الصالحين، ولا أنسى حين كنت تناديني لتسألني: هل تعلم هذا الحديث ومن أخرجه؟ فتنبهني على أشياء وتفيض عليّ من بحر علمك. وحين كنت أصحو قبلك لا أستطيع نسيان كلمة صباح الخير منك أو كلمة الله يرضى عليك..

كانت لدي طمأنينة من نوع آخر.. كان لديّ أبي!!

عمّي الغالي

د. إسماعيل الرفاعي

عمّي الغالي...

تعوّدت أن أناديك هكذا، وكنت دائمًا تعترض لتقول لي بأن أناديك يا بن خالتي، وكنت أعلم علم اليقين أنّ ذلك من تواضعك، والذي أجزم أنّه لم ولن أقابل أحدًا مثلك.

ليس لنا عزاءٌ بفقدك سوى أنَّ أثرك باقٍ فينا، ويحيطنا على مرّ الوقت.

أذكر تلك المناقشات التي كنت أتقصّد أن أثيرها معك حتى أنهل من بحر علومك الذي ما فتئ يدهشني كلَّ مرَّة.

ستبقى في ذاكرتي مثالًا للعلم والتعلّم والاجتهاد والتّواضع وشغف العلم والعمل والانضباط ومحبّة النّاس وحسن النّيّة.

آه يا سيدي على حسن نيّتك وظنّك!

كلّما ذكرتك قلت في خلدي: طبت حيًّا وطبت ميتًا.

عمّي... معلِّمي

د. طارق رشوان

عمّي العزيز...

كنت منارةً للعلم وطالبًا له حتّى يوم مرضك.

علّمتنا بتفانيك الصّبر والمثابرة.

أنرتَ لنا طريقًا وتركت لنا إرثًا خالدًا.

نسأل الله أن يجعلنا وأولادنا على نهجك وخطاك.

رحمك الله وجمعنا بك في جنان الخلد.

من تُوُفِّي؟!

بانة محمد موعد

من تُوُفِّي؟ الدكتور شفيق البيطار؟ لكنني لا أعرفه؟

تعرفه حتمًا يا صديقي... لقد آنس دارنا في طفولتنا دومًا.. لقد أبكاك حينما كنت في عمر اليراعات والبراعم.

صديق طفولتكم الذي ربَّما لا تعرفونه، لكنّكم غنّيتم أغنياته، وقرأتم اسمه آلاف المرّات في التدقيق على شارة أنا وأخي.

لا تعرفه شخصيًّا، لكنَّكَ صادقته طفلا سبيستونيًّا ... وأسهم فيها بصنع أجنحة قويَّةٍ لك، لتصبح حينما تكبر عنقاء قويَّة، ومحاربًا مقدامًا كهزيم الرعد.

تعرفه منذ أن كنتَ غضًّا طريًّا تشاهد الكرتون على قناتك المفضلة، وتنسكب سلاسة اللّغة، وهو المدقّق لها في مسامعك، فاشتدّ عودك ورقَّ قلبك ونَمَت شجرتك بجذورٍ صلبةٍ، وعَلَت ساميةً أمام غُثَاء وسخف هذه الأيام فذهب جُفاء.

عازف اللّغة العربيّة الذي عزف لحنًا في أعماقنا بأروع الكلمات العذبة الرّاقية التي لا تزال ترافق ذاكرتنا وتلتصق بها وأصبحت جزءًا أبديًّا منها.. جزءًا من تربيتك ورقيّ نفسك الذي نفثته تلك الموسيقا مع مزيجِ روحك، حتى أصبحت راقي النَّفس مهذَّب الأخلاق، وصديقًا لسبيس تون وصديقًا للدكتور شفيق البيطار.

ألم أقل لكم أنّكم حتمًا تعرفونه؟! رحمه الله ورزقه الجنة..

كان أبي دائم الفخر به، ويقول لنا: هل تدرون من هو مؤلف هذه الأغنية أو مدقق الكرتون؟ إنّه صديقي الدكتور شفيق بيطار.

ويحقّ لأبي أن يفخر بك أخًا وصديقًا.

عمّي ... شفيق

صانعُ شباب المستقبل

صاحبُ الإبداع والإذهال

أروى مقبل التّام الأحمديّ

بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، أمّا بعد،

ففَقَدْنا مؤخَّرًا صاحبَ الفضل لطفولة عشناها.. فقدنا من كان يعطينا أَمَلًا بالحياة، منذ أن كنّا في مطلعها، رمزًا من رموز المُؤَثِّرين، علمًا من أعلام اللُّغَويّين..

كلّما حَنَّ أحدُنا ليُفوعه، واسترجع ذكريات ماضيه، وجد أنّ صانعها هو شفيق البيطار؛ بكلماته البليغة، وأسلوبه الملامس للقلب، عَزَّزَ انتماءنا لوطننا العربيّ، وصَلَّبَ قِيَمَ ديننا الفضيل، وغَرَسَ فينا تَمَسُّكَنا بشَمْل العائلة، وصنع لنا ماضيًا جميلًا، وحاضرًا بهيًّا، وجَنَّدَنا بالقوّة لنُحَقِّقَ راية (سبيستون) في خدمة العربيّة، لنصبح شباب المستقبل.

رحم الله تعالى عمّي (محمّد شفيق)، وجعل الخير في إثر ذِكْراه، وأسكنه فسيح جِنانه، وجعل عِلْمَهُ المُنْتفَع به صدقةً جاريةً عن روحه.

بعض الصّور

في مناقشته أطروحة الدّكتوراه مع أستاذه د. عبد الحفيظ السّطلي

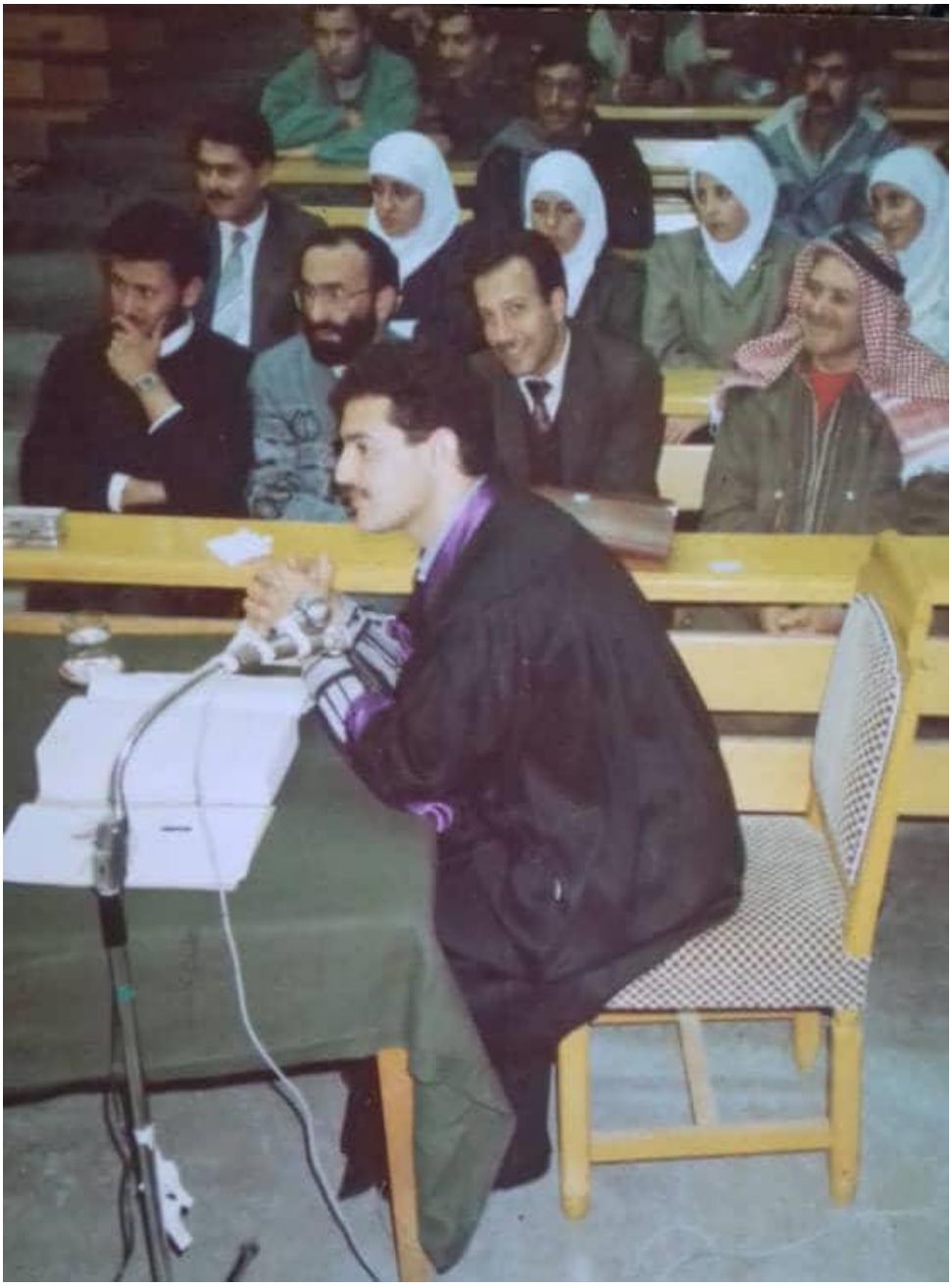

مع والده المرحوم الحاج خالد البيطار

في بلدته رأس المعرة

في محاضرة له

في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق

مع بعض الأصدقاء عام ٢٠١١

مع أصدقائه في حماة ٢٠٢٣

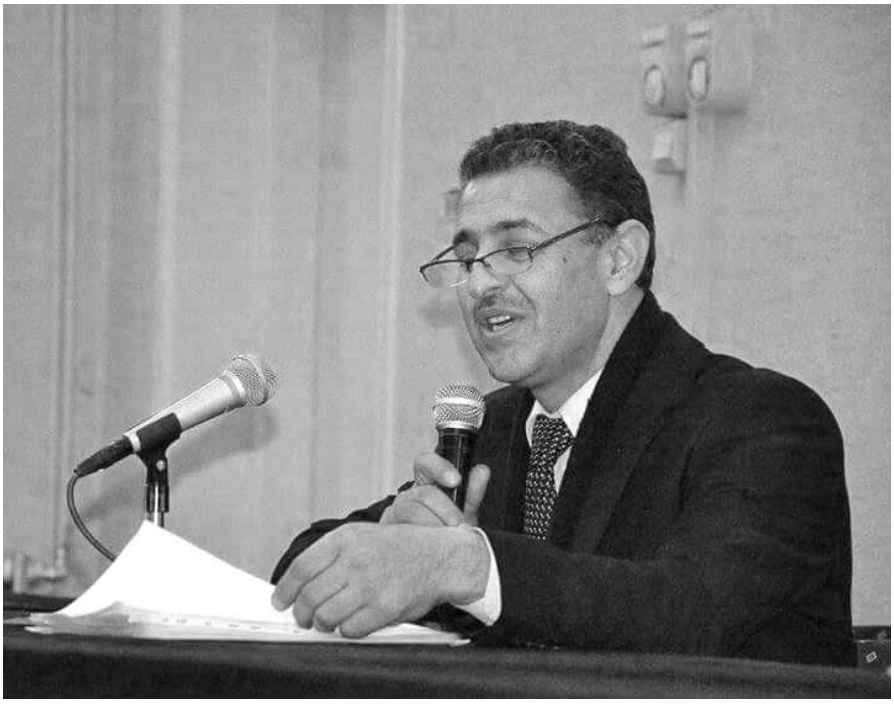

في محاضرته

في رئاسته لقسم اللغة العربية

في مناقشات آخر ثلاثة من طلابه

مناقشة د. أحمد العودة في ٢٠٢٣/٢/٢٣

مناقشة د. سناء عيسى في ٢٠٢٣/١٠/٣١

مناقشة د. رغد الصباغ بتاريخ ٢٠٢٤/٩/٢٤

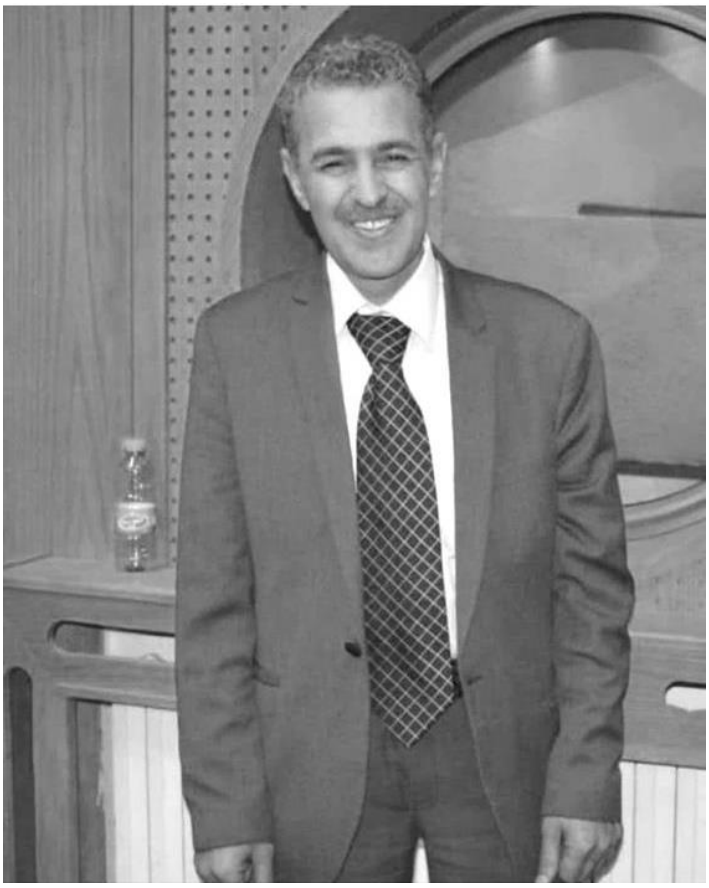

في آخر مناقشة له بتاريخ ٢٧/١٠/٢٠٢٤

رسوماته وخطّه

رسم لإحدى بناته

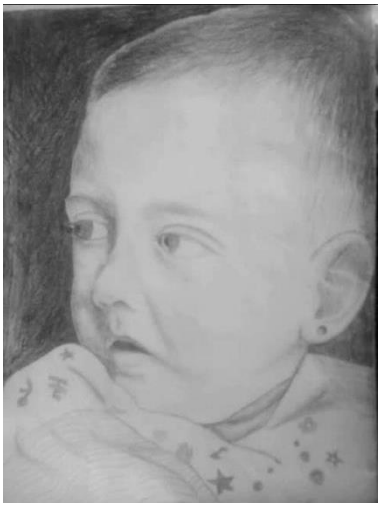

رسمة لأخرى

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا
وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ
وكتب محمد شفيق البيطار ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م
صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، وبعد :

العروسان العزيزان ، نادر وعفاف

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما وقد أتم الله تعالى زواجكما بخير ، فبارك الله لكما وفيكما ونوّل كلّ واحد منكما خير صاحبه وخير ما جُبل عليه ، وأعاذه من شرّه وشرّ ما جُبل عليه ! ورزقكما الذرّية الطيبة الصالحة الكثيرة ، وأسلحكما وأصلح بكما وبذريتكما ، إنه سميع مجيب

أما وقد أرسلت إليكما هذه الرسالة عني وعن إخوتي وعن زوجتي - وهي اليوم في القرية - فاحتفظا بها ، فلعلّه لا يكون لكما عندي غيرها ، لتكاسلي في كتابة الرسائل ، ولكم في تيسير وسعدية وزهير وضعون ، عبرة !

هذا ، وقد طبخت لكما طعاماً طيباً وقعدت بأكل مع زوجته ، فقال لو ما أطيب هذا الطعام ، لولا الزحام ! ، فقالت زوجته ، أي زحام ؟! إنما هو أنا وأنت ؟ فقال ، كنت أقصدني لو كنت أنا والقصعة !!!

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

دمشق في يوم الاثنين

٥/ربيع الآخر/ ١٤١٧

١٩/ آب / ١٩٩٦

أخوكما د. محمد شفيق البطار

نماذج لإهداءاته

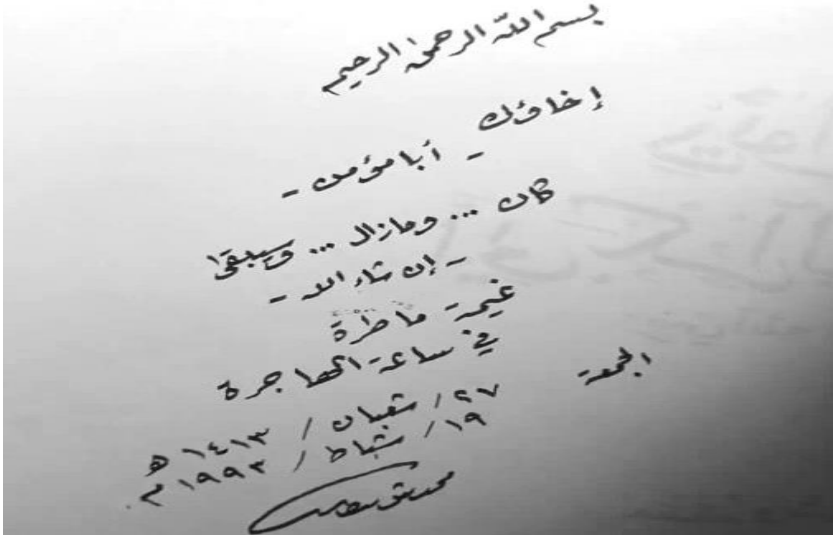
بسم الله الرحمن الرحيم

إخوانك

- أبا مؤمن -

كان ... ومازال ... وسيبقى

- إن شاء الله -

غيمة - ملاطفة

في ساعة - الهاجرة

الجمعة

٢٧ / شعبان / ١٤١٣ هـ

١٩ / شباط / ١٩٩٣ م

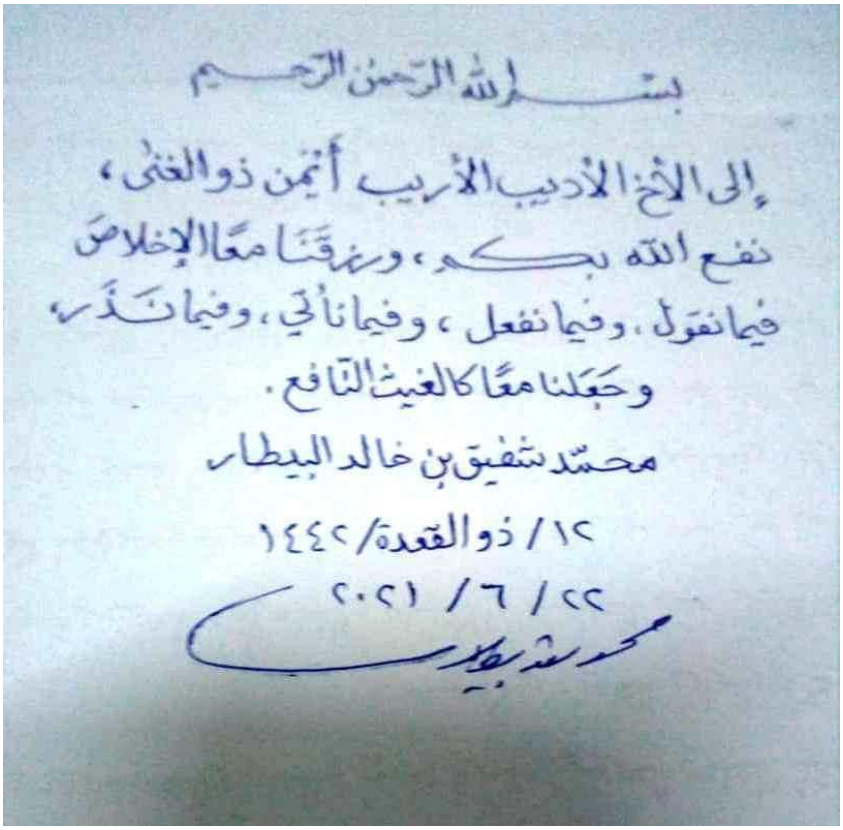
بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الأخ الأديب الأريب أيمن ذو الغنى،

نفع الله بكم، ورزقنا معًا الإخلاص

فيما نقول، وفيما نفعل، وفيما نأتي، وفيما نذر،

وجعلنا معًا كالغيث النافع.

محمد شفيق بن خالد البيطار

١٢ / ذو القعدة / ١٤٤٢

٢٢ / ٦ / ٢٠٢١

السيرة الذاتية كما ارتضاها واعتمدها د. شفيق في حياته[1]

الاسم: (محمد شفيق) بن خالد بن محمّد عليّ بن عبد القادر بن أحمد البيطار.

وجدّي (محمّد عليّ) أوّل مَن خرج من دمشق- الشّاغور- حيّ الشّمّاعين، واستقرّ في (رأس المعرّة) بالقلمون من ريف دمشق.

ووالدتي: حسنا بنت عليّ بن حسن بن مُحسِن بن خليل الرّفاعيّ الحسينيّ الهاشميّ القرشيّ.

تولد: رأس المعرّة (بِريف دمشق) ٣ / ١ / ١٩٦٥م.

الوضع العائليّ: متزوج، عدد الأولاد: ٦.

العنوان: جامعة دمشق / كلية الآداب / قسم اللّغة العربيّة.

البريد الالكتروني shbitarv@Gmail.com

العمل الحالي: عضو هيئة تدريسيّة في قسم اللّغة العربيّة بجامعة دمشق.

المؤهلات العلميّة :

١.إجازة في الآداب ١٩٨٧ بمرتبة جيّد جدًّا (الأوّل على الدُّفعة).

٢.دبلوم الدراسات العليا / دراسات أدبيّة ١٩٨٨ بمرتبة جيّد .

٣.الماجستير في الآداب ١٩٩٢ بمرتبة امتياز.

٤.الدكتوراه في الآداب / الأدب الجاهليّ ١٩٩٥ بمرتبة الشّرف.

عُيِّنت معيدًا في قسم اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة دمشق عام ١٩٨٨م.

المرتبة العلميّة: أستاذ منذ عام ٢٠٠٧.

---

[1] منقول عن منشور على صفحته الشخصيّة على (فيسبوك) في ٢٠٢٠/٩/٢٥، وذكر في بدايته (هذا المنشور لِمَنْ يطلب سيرتي الذّاتيّة أو يسأل عنّي!!!).

أشرفت على عدد من الرّسائل الجامعيّة، منها :

١ -الأفوه الأوديّ (حياته وشعره): ماجستير -نوقشت .

٢ -الرسائل الشعرية في العصر الجاهلي: ماجستير -نوقشت، وطُبِعَت .

٣ -أثر الفكر البلاغي في النقد العربي القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري: ماجستير - نوقشت .

٤ -الغناء وأثره في حفظ الشعر الجاهلي منذ الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي: ماجستير - نوقشت .

٥ -المُنْصِفات في الشعر الجاهلي: ماجستير -نوقشت.

٦ -المعمَّرون، أشعارهم وأخبارهم في الجاهلية والإسلام: دكتوراه -نوقِشَت، وطُبِعَت .

٧ -الكهّان الجاهليون، أسجاعهم وأشعارهم: ماجستير -نوقشت، وطُبِعَت.

٨ -أشعار كِنْدة في الجاهليّة والإسلام إلى نهاية العصر الأمويّ: دكتوراه -لم تُناقَش لظروف خاصّة بالطّالب، وقد أنجزها.

٩ -النقائض في الجاهلّية وصدر الإسلام: ماجستير -نوقشت.

١٠ -الصورة الحركيّة في أشعار الطبقة الجاهليّة الأولى عند ابن سلّام الجُمَحيّ: ماجستير- نوقشت.

١١ -بيوتات الشّعر والمعرقون فيه ...: دكتوراه- نوقِشَت.

١٢ -شعر القضاة منذ الجاهليّة إلى نهاية العصر الأمويّ: دكتوراه- نوقِشَت.

١٣ -شعر بني كِنانة في صدر الإسلام والعصر الأموي: دكتوراه- نوقشت.

١٤ -شعر خثعم في الجاهليّة والإسلام حتّى نهاية العصر الأمويّ: ماجستير- نُوقِشَت.

١٥ -أثر الزراعة في الشّعر الجاهليّ: ماجستير- نوقشت.

١٦ -الشّعراء الثُنْيان في الجاهلية والإسلام إلى نهاية العصر الأمويّ: دكتوراه - قيد الإنجاز.

١٧ –شعر بَجيلة في الجاهليّة والإسلام إلى نهاية العصر الأمويّ: دكتوراه – قيد الإنجاز.

شاركت في الحكم على عدد من الرسائل الجامعيّة، منها:

١ –شعر الفروسية في ظل الفتوحات الإسلامية: دكتوراه، دمشق .

٢ –وصف الطبيعة في شعر الصنوبري: ماجستير، دمشق.

٣ –السّريّ الرّفّاء حياته وشعره: ماجستير، دمشق.

٤ –لغة القصص المصوَّرة في مجلات الأطفال: ماجستير، في الجامعة اللبنانية، بيروت .

٥ –المجالس الأدبية في ظل بني بويه: رسالة دكتوراه، دمشق .

٦ –ساعدة بن جؤية الهذلي: حياته وشعره، ماجستير، دمشق .

٧ –الحارث بن عباد البكري حياته وشعره: ماجستير، دمشق .

٨ –رمز الناقة في الشعر الجاهلي: ماجستير، جامعة حلب.

٩ –جماليات تأثير اللون في شعر الأغربة الجاهليين: ماجستير، جامعة البعث .

١٠ –صورة المرأة في الحديث النبوي: ماجستير، دمشق .

١١ –مزاحم العقيلي حياته وشعره: ماجستير، دمشق .

١٢ –شعر حِمْيَر في الجاهلية والإسلام: دكتوراه، دمشق.

١٣ –الرجز في العصر الجاهليّ: ماجستير، جامعة حلب.

١٤ –شعر بني بكر بن وائل في الإسلام حتّى نهاية العصر الأمويّ: دكتوراه، جامعة دمشق.

١٥ –شعر خُزاعة في الجاهليّة والإسلام حتّى نهاية العصر الأموي: دكتوراه، جامعة دمشق.

١٦ –مفهوم الذّات وجمالياتها بين شعر امرئ القيس وزهير بن أبي سُلمى: دكتوراه، دمشق.

١٧ –ديوان الشّواهد الشعريّة في مؤلَّفات الواقديّ: ماجستير، دمشق.

١٨ –الحاشية الكبرى على متن الكافي في علمَي العروض والقوافي: ماجستير، دمشق.

١٩ –التّشكيل الموسيقيّ في شعر أبي العتاهية: دكتوراه، دمشق.

٢٠ –صورة الكون والحياة لدى شعراء العصر العبّاسيّ الأوّل، دكتوراه، دمشق.

أعمال منشورة:

١ – ديوان بني كلب بن وبرة في الجاهلية والإسلام (دراسة وتحقيق – ٣ مجلدات): دار صادر – بيروت ٢٠٠١م.

٢ – ديوان حميد بن ثور الهلالي (دراسة وتحقيق): المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت ٢٠٠٢م .

ثمّ طُبِعَ في الهيئة العامّة للكتاب– أبو ظبي– الإمارات العربيّة المتّحدة.

٣ – المكتبة العربية: كتاب جامعي (بالاشتراك) جامعة دمشق– ١٩٩٨ .

٤ –محاضرات في الأدب الجاهليّ: أملية جامعيّة، مطبعة جامعة دمشق، تكرّر طباعتها منذ عام ٢٠١٧ م.

٥ – ديوان زهير بن جناب الكلبي: دار صادر – بيروت ٢٠٠٠م .

٦ – ديوان أبي بكر الصدّيق (تحقيق عن مخطوط المكتبة الظاهرية) دار الشراع – دمشق – ١٩٩٢م.

٧ –ديوان الإمام أبي بكر الصّدّيق وجمهرة خطبه ووصاياه ورسائله: مجمع العربيّة السّعيدة، اليمن، نشرة إلكترونيّةpdf ، ٢٠٢٠ م.

٨ – العروض وموسيقى الشعر (كتاب جامعي – بالاشتراك): جامعة دمشق – ٢٠٠٦ م.

٩ –جداول بحور الشّعر العربيّ: وزارة الثّقافة، دمشق .

ثمّ طُبع في دار البشائر بدمشق.

١٠ –مخالفة القياس في العربيّة، شعر الأعشى مثالًا: وزارة الثّقافة، دمشق.

١١ –نقوش حِسْمَى (قراءة نقوش مِن حِسْمَى) بالاشتراك: السّعوديّة، ٢٠١٩ م.

١٢ –ندوة خير الدّين الزركليّ...: وزارة الثّقافة، بالاشتراك، ٢٠١٧.

١٣ –ندوة ماري عجمي ...: وزارة الثّقافة، دمشق، بالاشتراك، ٢٠١٨.

١٤ –ندوة الدّكتور عمر النّصّ ...: وزارة الثّقافة، دمشق، بالاشتراك، ٢٠١٩.

١٥ –ندوة الدّكتور شاكر مصطفى ...: وزارة الثّقافة، دمشق، بالاشتراك، ٢٠٢٠.

١٦ –المختار من عيون الأخبار: وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٢٠.

–البحوث العلمية المحكمة:

١ –ما هكذا تورد يا سعد الإبل: مجلة معهد المخطوطات العربية – القاهرة، ونشرته أيضًا موسَّعًا مجلّة عالم الكتب السعودية .

٢ –امرؤ القيس بن حُمام، الشاعر الذي بكى الديار قبل امرئ القيس بن حجر: مجلة جامعة البعث– حمص .

٣–كتابة مواد معتمَدة في الموسوعة العربيّة (حميد بن ثور الهلالي – قبيلة خثعم – الخطابة عند العرب – قبيلة قضاعة _ قبيلة كلب بن وبرة _ طسم وجديس _ طرفة بن العبد _ الفضل بن العباس اللهبي _ الفند الزماني _ العرب _ المفضل الضبي – مناة – مالك بن أسماء الفزاري _ المعلقات _ معدّ بن عدنان – علم النسب – اليرموك.....)، هيئة الموسوعة العربيّة، دمشق .

٤ –(أحاديث الشعر) لعبد الغنيّ المقدسيّ: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .

٥ –صورة الطبيعة في شعر الشابي: مجلة جامعة دمشق .

٦ –مخالفة القياس اللغوي في شعر الأعشى: مجلة التراث العربي .

٧ –مخالفة القياس النحوي في شعر الأعشى: مجلة التراث العربي.

٨ –مخالفة القياس العروضي في شعر الأعشى: مجلة التراث العربي.

ثمّ صدر القسمان الأوّلان من مخالفة القياس في كُتَيّب في الهيئة العامة السوريّة للكتاب في كتاب، وصدر القسم الثّالث في كُتَيّب آخر.

٩ –الشّعر في بلاد الشّام قبل الإسلام: في احتفاليّة دمشق عاصمة للثقافة العربيّة.

١٠ –جداول بحور الشّعر العربيّ: مجلّة التراث العربيّ.

ثمّ صدر في الهيئة العامة السوريّة للكتاب في كتاب، ونفِدَت طبعته،

وأصدرَته ثانيةً دار البشائر في دمشق.

١١ –سرقة الأطاريح والرسائل الجامعية شعر ثقيف مثالًا: مجلة التراث العربيّ.

مقالات غير محكّمة، منها:

١ –رد على نقد: مجلة المنهل – السعودية .

٢ –عروة بن أذينة (قراءة في حياته وشعره): مجلة الجندي العربي – دمشق .

٣ –وحدة القصيدة الجاهلية (في حديث الأربعاء): مجلة الغد الجديد – دمشق .

٤ –الموسيقى في شعر حميد بن ثور الهلالي: مجلة جيش الشعب – دمشق .

٥ –برهان بخاري ظالمًا: جريدة تشرين – دمشق .

٦ –التحقيق في سرقة ديوان الصدّيق: جريدة تشرين – دمشق .

٧ –قراءة في ديوان قصائد للشام: مجلة الثقافة – دمشق .

أعمال إبداعية، منها :

١ _لبن الناقة: مسرحية من وحي التراث – مجلة جيش الشعب – دمشق .

٢ _بين أحضان الشرر: قصيدة – مجلة الفيصل السعودية .

٣ _أطلال روح: ديوان منضد ولم يطبع .

٤ _مشرّد بلا خطيئة: كتابة سيناريو بالاشتراك لفِلْمٍ بالرسوم المتحركة، عن رواية الدكتور محمد عبدو يماني .

٥ _من رباعيات بابا طاهر العريان: صياغة شعرية لرباعيّات فارسيّة، لم تطبع .

٦ _كتابة ما يزيد على خمسين نصًا شعريًّا لبرنامج الأطفال (مدينة المعلومات) لمؤسسة الإنتاج البرامجي المشترك لدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي .

٧ -كتابة مجموعة من النصوص الشعرية لبرنامج (بيتنا العربي) للأطفال .

٨ -كتابة عدد من الشارات لمسلسلات الرّسوم المتحرّكة وأفلامها.

٩ -كتابة نشيد للجامعة السورية الدّوليّة.

وغير ذلك.

المؤتمرات والندوات العلمية التي شارك بها:

١ -مهرجان الشعر العربي (الشعر وجدان الأمّة) في مدينة اللاذقية - ٢٠٠٨.

٢ -مهرجان الشّعر العربيّ، في مدينة حماة، ٢٠١٨.

٣-ندوة خير الدين الزركلي، دمشق، ٢٠١٧.

٤ -ندوة ماري عجمي، دمشق، ٢٠١٨.

٥ -ندوة الدّكتور عمر النّصّ ٢٠١٩.

٦ -ندوة الدّكتور شاكر مصطفى ٢٠٢٠.

٧-أشرفت على المؤتمرات الآتية من مؤتمرات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في عام ٢٠٠٥م -٢٠٠٦م :

أ- التراث الشعبي العربي، وحدة الأصل والهدف: من ١٤-٢٠٠٥/٣/١٦ .

ب- الإصلاح الاقتصادي والسياسي في الوطن العربي: من ٣-٢٠٠٥/٥/٥ .

ج- الجغرافيا ودورها في خدمة التنمية: من ٤-٢٠٠٥/٧/٦ .

د- الإرشاد الاجتماعي النفسي ودوره في العملية التعليمية: من ١-٢٠٠٥/٨/٣ .

هـ - الآثار في سورية، الواقع والطموح: من ١٢-٢٠٠٥/٩/١٤ .

و- علاقة المسرح بالتربية وتنمية الذائقة الفنية: من ٢١-٢٠٠٥/١١/٢٣ .

ز- التاريخ في التعليم ما قبل الجامعي والجامعي: من ٢٤-٢٠٠٦/٣/٢٦ .

ح- الترجمة في الدول العربية ودورها في التواصل بين الشعوب: بين ٢٦-٢٠٠٦/٦/٢٨ .

أعمال قيد الإعداد للطبع:

١ -كتاب البَسُوس: تحقيق.

٢ -مراجيع وَشْم، كتاب في الأدب الجاهليّ.

خبرات إضافية:

-تدريس الأدب الجاهليّ في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق منذ عام ١٩٩٥ م.

-تدريس المكتبة العربية في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق بين عامي ١٩٩٨ و ٢٠٠٠.

-تدريس الأدب الأموي في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق بين عامَي ١٩٩٩ و ٢٠٠٢.

-تدريس العروض وموسيقى الشعر العربيّ في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق بين عامَي ١٩٩٩ و٢٠١٨.

-تدريس مقرَّر دراسات في العروض وموسيقى الشّعر في السّنة التّحضيريّة لماجستير الدّراسات الأدبيّة، وماجستير النّقد والبلاغة، بجامعة دمشق، منذ سنوات.

-تدريس الأدب الجاهلي، والعروض، وقاعة البحث، والقراءة التحليلية لكتب القراءة، والمهارات اللغوية: في كليتي المعلمين في مكّة وجدّة، في أثناء الإعارة.

-التدريس في دورات مجّانيّة في العروض والتذوق الشعري في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق .

-التدريس في دورات جائزة عبد العزيز سعود البابطين في العروض والتذوق الشّعريّ الّتي أُقيمَت في جامعة دمشق بين عامي ٢٠٠٣ و ٢٠٠٧.

-تدريس الأدب الجاهليّ في فرع مجمع الفتح الإسلاميّ (جامعة بلاد الشّام) بدمشق، من عام ٢٠٠٢ إلى عام ٢٠١٩.

-الإعلام الموجّه إلى الطفل.

-الخطّ العربيّ.

خبرات إداريّة (مع عدم رغبتي في الأعمال الإداريّة):

-أمين المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإنسانية، في سورية، بين عامي ٢٠٠٥ -٢٠٠٦م.

-رئيس تحرير مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة ثلاث سنوات ونصف، أوّل مرَّة .

-رئيس قسم اللغة العربيّة مدّة سنتين مع رئاسة تحرير المجلّة مرّة ثانية .

-رئيس تحرير مجلّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة مرّةً ثانيةً منذ أربع سنوات ولا أزال حتّى الآن (٢٠٢٠).

-عضو قراءة كتب التراث العربيّ في الهيئة العامة السوريّة للكتاب من عام ٢٠١٨ حتّى الآن (٢٠٢٠).

عضو تحكيم مسابقة حفظ الشّعر العربيّ في الهيئة العامة السوريّة للكتاب لدورتي ٢٠١٨ و٢٠١٩.

-عضو لجنة التّمكين للّغة العربيّة في وزارة التّعليم العالي سابقًا.

- عضو إدارة مكتبة الأسد الوطنيّة ممثّلًا لوزارة التّعليم العالي.

فهرس المحتويات

تصدير..... ٥

رَحَلَ الأخ والرَّفيق ... رَحَلَ محمَّد شَفيق..... ٧

سيرة الدكتور محمّد شفيق البيطار.....١١

ثلاثية الفقد والسّيرة واللّقاء.....٢٧

نماذج من أشعاره..... ٥٣

رحلته في سبيستون.....٦٤

رحلته مع النّقوش.....٦٧

قالوا فيه:..... ٩٥

(١) أساتذته

د. مازن المبارك ٩٥

د. محمّد رضوان الدّاية ٩٩

د. عبد النبي اصطيف.....١٠٥

الدكتور الرّاحل وهب رومية.....١٠٩

(٢) أصدقاؤه

د. أحمد نتوف.....١١٣

د. إسماعيل مروة ١١٧

أ. أيمن ذو الغنى ١٢٢

د. حسان فلاح أوغلي.....١٢٦

د. حسن الأحمد ١٣١

د. حمّود يونس ١٣٤

د. عبد الكريم محمد حسين ١٣٩
د. عبد النّاصر عسّاف ١٤٣
د. علي إبراهيم كردي ١٥٢
د. محمد حسان الطيان ١٥٤
د. محمّد عبد الله قاسم ١٥٧
د. محمّد موعد ١٦٤
د. محمود السيّد ١٦٧
د. منى طعمة ١٦٩
(٣) طلّابُهُ
د. أحمد الأعرج ١٧٣
د. أحمد العودة ١٧٩
د. رغد الصّبّاغ ١٨٤
د. زاهر الشَّمَّاع ١٨٨
د. شمس الإسلام حالو ١٩٠
ضحى شبلي كَشْوَر ١٩٢
د. ضياء الدين عبد الغني القالش.....١٩٦
عبد الله راتب النفاخ ٢٠٠
فضل الحميدان ٢٠٢
د. محمَّد عبد السَّاتر زكريَّا ٢٠٧
محمّد نهيل عنطوز.....٢١١
مها أحمد عيسى ٢١٥

د. هبة عقيل.....٢١٦
د. هفل فاضل اليونس.....٢٢٢
د. وفاء حسين الحمّود.....٢٢٧
د. ياسين عبد الله جمّول.....٢٣١
(٤) أسرته ومحبّوه
زوجه أمّ عبد الرّحمن البيطار.....٢٣٥
محمود خالد البيطار.....٢٣٦
هبة الله محمد شفيق البيطار.....٢٤٢
عفاف محمد شفيق البيطار.....٢٥٠
عبد الرحمن محمد شفيق البيطار.....٢٥٢
صفاء محمد شفيق البيطار.....٢٥٣
عمرو محمد شفيق البيطار.....٢٥٥
د. إسماعيل الرفاعي.....٢٥٧
د. طارق رشوان.....٢٥٧
بانة محمد موعد.....٢٥٨
أروى مقبل التّام الأحمديّ.....٢٥٩
بعض الصّور.....٢٦١
رسوماته وخطّه.....٢٧٠
نماذج لإهداءاته.....٢٧٣
السيرة الذاتية كما ارتضاها واعتمدها د. شفيق في حياته.....٢٧٥

ISBN 978-9933-702-96-0